المملكة العربية السعودية



جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

موقف النقد الأدبي

من الشعر الجاهلي

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومي

الاستاذ بكلية اللغة العربية

من مطبوعات

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المملكة العربية السعودية



جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

موقف النقد الأدبي

من الشعر الجاهلي

تأليف

الدكتور محمد رجب البيومي

الأستاذ بكلية اللغة العربية

من مطبوعات

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتـاب

بقلم معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

مدير جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلاما على نبيه الكريم ٠٠ وبعد :

فالجامعات مصدر اشعاع في محيطها ، وجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية تستمد نورها من الاسلام لتسعى على هديه القويم ، وتدعو الى صراطه الحميد ٠

والاسلام دين العقل ، يدعو الى مناقشة الرأي ، ويفتح صدره لكل حوار مخلص ينشد الحقيقة ، ويدعو الى البحث الصادق النزيه ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حي عن بينة ٠

وقد أثيرت منذ نصف قرن قضية الشعر الجاهلي فقام حولها نقاش حاد متصل ، اذ تعدت المناقشات المحتدة نطاق الشعر الجاهلي الى مجالات أخرى يعنف فيها الصيال ويحتد القول ، وتركت المعركة الجدلية مقالات متشعبة في الصحف ، وكتبا متعددة بين أيدي القراء ، كما ظهرت بحوث تالية عن الشعر الجاهلي تدور حول ماقيل تأييدا وتفنيدا ، ثم هدأت العاصفة ، ومضى المتنازعون جميعا الى ربهم تاركين ماخلفوا من الآثار أمانة في أعناق الباحثين ، ليقوم منهم من يوازن بين الآراء هادفا الى الحق

بعيدا عن لجاج الخصومة ، وما زالت معارك النقد الأدبي القديم التي خاضها أمثال الآمدي والجرجاني والحاتمي مصدر عطاء سخي للمعاصرين ولاتقل عنها معارك النقد الحديث خصوبة وازدهارا ، فلا عجب اذا اتجه اليها الباحثون ليضعوها في مكانها الصحيح ٠

والكتاب الذي نقدمه اليوم ، مثل صادق لما ننشد من النقاش الجاد ، فقد تخلى كاتبه عن الاستطراد المتنقل لينفذ الى صميم الامر في هـدوء لايستبد به الانفعال ولاتحتدم معه العاطفة ، فلم يكن محاميا يدافع عن حق أحد الخصوم ، ولكنه كان قاضيا هادئا ، يستمع الى كل ماقيل ،فيتابع البحث في حيدة ، ويناقش الآراء في تؤدة ، حتى يهتدي الى مقطع الصواب فيصدر حكمه مؤيدا بالبرهان ، معللا بالاسباب واذا كان قد انتصر في الحكم الى فريق دون فريق ، فتلك طبيعة القضاء التي تحسم الامر دون اعتداد بغير الحق والبراهين ناطقة ، والادلة شواهد ٠

واذا كان الجهد الادبي في هذا العمل المثمر ، أوضح من أن يدل عليه ، وسيتجلى لكل قارىء يدرس الكتاب في يقظة متتبعة ، وانتباه جاد ، فاني أشير الى جهد آخر يواكبه في صراطه الجاد مواكبة مؤازره ، هـو الجهد الخلقي الذي يهدف الى نتائجه صاحب البحث حين نجا من سلاطة القول ، وعنف المؤاخذة وتمادى اللجاج ، وهي أعراض مرضية تشوب النقاش العلمي في كثير من مجالاته ، ولها آثار مريرة فيما نشـاهد من عراك ، وقد كان التنافس العلمي مدعاة شطط وجماح نرى دلائلهما في بعض التراث القديم ، ونشهدها أكثر وضوحا في معارك الأدب المعاصر حتى جاز لدى قوم أن يعتبروا أقوى المتناظرين حجة من يهجم بالعنف ، ويتسلح بالمشاحنة ، ولكن ماخطه الدكتور محمد رجب البيومي قد نأى عن كل ذلك ، فسيطرت الموضوعية على اتجـاهه سيطـرة نود أن تكون موضعا للاحتذاء ٠

وأصحاب الاتجاه الخلقي يقدرون للكـاتب بواعثه المخلصـة حين اندفع الى انصاف قوم من كرام الكاتبين ، قد خاضوا المعركة في حميـة مؤمنة ، وغيرة صادقة وتسلحوا بكل مايحقق الانتصار العلمي من سعة الاطلاع ، وصدق النظر ، وقوة الاستشفاف وعمق التحليل ، ونفـاذ التأويل ، ثم جاء من المغرضين من حاول أن يطمس نورهم عن عمد ، وأن يهون من نضالهم عن كيد ، وقد ذهبوا جميعا الى ربهم فلم يملكـوا في قبورهم رد الفرية ، ودفع الشبهة ، ولكن الحق لايعدم النصير فقد هيـأ الله كاتب البحث ، ليثبت وثبته الصادقة أمام هؤلاء المغرضين ، وليكشف عن ملامح المعركة في صدق دؤوب ، فأماالزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث في الارض ، كذلك يضرب الله الامثال ١٧ : الرعد ٠

ومن دلائل هذا الالتزام الخلقي الجاد أن الباحث المحايد ، قد أغفل كل ماتورط فيه الدكتور طه حسين من خطـأ ديني في الطبعة الاولى من كتابه ، لأن الدكتور قد اعترف بخطئه وأسقط ماتورط فيه فيما تـلا الطبعة الاولى من طبعات ، فلم تعد القضية في ذلك ذات موضوع ، وقـد تخلى عنها صاحبها حين نفاها عن كتابه انما الانصاف حينئذ أن نعمد الى ماأصر عليه الدكتور طه ورردده في كل الطبعات وقـد جاوزت العشـر ـ لنضـعه موضـع التشريح ، ولنقول كلمة العلم في أمر نعتده بعيدا عن الصـواب ٠

واذا كنت قد ارتضيت جهد المـؤلف في منحـاه الأدبي ، وحمدت اتجاهه الخلقي الملتزمفاني أعقب على ذلك محبذا مارأيتهمن صدقالنظرة في التاريخ الاسلامي لدى الكاتب ، لأن من يقرأ البحث يدرك احاطتـه التاريخية ذات السعة الرحيبة مما يؤكد أن المثقف المسـلم يحتـاج في دراسة الادب العربي الى مايمده من جداول الثقافة الاسلامية المتشعبـة في الفقه والتشريع والتفسير والحديث والتاريخ الاسلامي الفسيح ، ولا أنكر هنا فائدة التخصص الادبي وعظيم جدواه ، ولكني أشير الى نقص

يجب أن يستكمل لدى بعض الدارسين ، اذ فهموا التخصص بمعناد الضيق ، فأصبحنا نجد عالم اللغة بمنأى عن علوم الشريعة ، كما نجد عالم الشريعة بعيدا عن علوم اللسان العربي ، وذلك مايحز في النفس اذ يجب أن تكون الثقافة الاسلامية ركيزة لكل اتجاه متخصص لدى المسلمين وأجدني أضرب المثل لما أريد بناقد كبير ترددت آراؤه الناضجة في فصول هذا الكتاب ، هو الاستاذ الامام محمد الخضر حسين رحمه الله ، فقد كتب في الاصول والتاريخ واللغة والفقه فصولا تنم عن ضلاعة ورسوخ ثم هو في مجال النقد الادبي باحث عملاق تصول حججه الادبية مصال السيوف ! وما تسنى ذلك دون ركيزة قوية من الثقافة الاسلامية المحيطة ، وذلك ماندعو اليه بالحاح .

أقول ، لقد وجدت صدق النظرة التاريخية لدى الدكتور محمد رجب البيومي في عدة مواقف ، أمثل لها هنا بما كتبه عن الشعوبية ، اذ تجافي أناس عن وجه الحق في هذه الطائفة عن غرض قاتل ، حين جعلوا كل ماعدا العرب شعوبيين ، وهذا خطأ بارز أوضحه المؤلف حين قال :

يتزيد كثير م نالمتحدثين عن الشعوبية في الأدب والسياسة تزيدا ترفضه حقائق التاريخ الصحيح ، فهم يتصيدون بيتا أو أبياتا قالها أمثال : بشار بن برد وأبي نواس ومهيار الديلمي ليجعلوا من ذلك وحده دليلا على اضطغان الفرس على العرب في الدولة العباسية ، وهي شنشنة نعرفها من دهاة المستشرقين .

ولكن الاندفاع في تضخيمها على أيدي كتاب مسلمين ، مما يتنافى مع الحقائق الصارخة ، فان جمهور القائمين على الدولة العباسية من الفارسيين كانوا من حصونها الواقية ، ومحاولة الانتقاض على الحكم الاموي أو العباسي قد وجدت من العرب أنفسهم كما وجدت من الفارسيين وليس معنى ذلك أن مؤامرة شعوبية تدبر من فارس للقضاء على الاسلام كما يحاول بعض المغرضين أن يجوفوا الحقائق ليمزقوا

أعضاء الجسد الواحد ، وأنت اذا أحصيت المعارضين للامويين والعباسيين تجد أكثرهم من العلويين والخوارج وهم عرب أقحاح كانوا قادة من تبعهم من الفرس والديلم ، فلم تكن المعارضة شعوبية تهدف الى كيد العروبة والاسلام ولكنها مما تضطر اليه طبائع البشر في كل جيل في الدولة الواحدة والملة الواحدة ... الخ .

واذا نظرنا لأقوال ذكرها أمثال أبي عبيدة وأبي نواس ، فكل ذلك نزاع شخصي لايتسع حتي ليشمل القوم أجمعين ، ومن يذهب الى ذلك العموم يجهل أن دين العربية وعلم العربية لم يخدما بأكثر مما سطره علماء وفقهاء ومحدثون من الفرس منهم سيبويه والبيهقي والنيسابوري والخوارزمي والجرجاني والترمذي والتفتازاني والزمخشري والرازي والشيرازي والبيضاوي والطوسى والبخاري والنسائي والفارابي والقزويني والسمرقندي والسجستاني والنسفي والهمذاني ، ومن لانستطيع أن نحصى من هؤلاء الاعلام ، وهم أئمة كبار .

هذا كلام منصف يحتاج الى كتاب برأسه لتوضيح مراميه والاستدلال على وقائعه وهو مما يجمع المسلمين اليوم على كلمة واحدة دو نأن تتشعب بهم السبيل ، ودعوة التضامن الاسلامي التي دعت اليها المملكة العربية السعودية ورفعت رايتها في عهد جلالة الملك فيصل رحمه الله وتابع المسيرة جلالة الملك خالد حفظه الله وولي عهده صاحب السمو الملكي الامير فهد وفقه الله تقود اليه ، وتدعو الى قوة اسلامية متماسكة تقف في وجوه الراصدين ، وتعصف بمفتريات الآفكين ممن يسرهم أن يقع بأس المسلمين بينهم ، فتحارب الدولة المسلمة أختها في الدين ، وكم شاهدنا من أمثلة ذلك في القديم والحديث مما تنشق له المرائر وتنفطر الاكباد .

واذا كان لي أن أخالف الكاتب ، في هذه المقدمة التي لاأعتبرها اطراء مقرظا ، بل أضيف اليه ماأجده موضع اختلاف النظر بين الباحث والباحث ، فاني كنت أفضل أن يناقش الدكتور محمد رجب البيومي آراء

المستشرق الانجليزي مرجليوث مقرونة بما يحاكيها من آراء الدكتور طه حسين ليتجلى للقاريء مدى التقارب دون تشتيت ، وهذا ماصنعه الاستاذ محمد الخضر حسين في كتابه ولكن الدكتور البيومي قدم مخلصا لآراء المستشرق الانجليزي في فصل متقدم ! وذكر أنه يسردها دون تعقيب ، لأن ما سيرد به على الدكتور طه حسين يتضمن هدمها الكاسح ، وقد هدمها الدكتور البيومي فعلا فيماعارض به آراء الدكتور طه ،ولكن ذلك يتطلب قارئا من نوعية خاصة يتذكر السابق ويقرنه باللاحق ، وكنا نريد أن يكون هذا الكتاب مبسطا لجميع القراء لا لقاريء من نوع خاص ، هذه وجهة نظر ، ولكل وجهة هو موليها .

اني لأغتبط بتقديم هذا الكتاب ، وأعده فاتحة طيبة لجهود أخرى تقدمها سلسلة (البحث العلمي) بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية والتي تنعم برعاية جلالة الملك خالد بنعبد العزيز حفظه الله وولي عهده سمو الامير فهد بن عبد العزيز ومعالي وزير التعليم العالي الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ ومن يقودون زمام المملكة العربية السعودية في سبقها الظافر السعيد ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د / عبد الله بن عبد المحسن التركي
مدير جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
بالرياض

النقـد والناقدون

(من عرف الحق عز عليه أن يراه مظلوما)

كلمة صادقة قرأتها للاستاذ الشيخ محمد عبده رحمه الله ، فتركت صداها القوي في نفسي ، ومازالت تحدث أثرها النافذ لدي اذا رأيت حقا ضائعا وهوى مطاعا ، ومن أثرها القوي مادفعني الى كتابة هذا البحث في عزيمة جادة حين انتقل الى جوار ربه الدكتور طه حسـين رحمه اللـه ، وفاضت الصحف في رثائه وفاء وذكرى ، وذلك حق الاديب الكبير عـلى تلاميذه ومريديه ، وعلى قرائه الكثيرين في العالم العربي دون نزاع ٠

ولكن جماعة ممن كتبوا عن الدكتور ، وأكثرهم ذوو ميول تنحرف عن هوى المخلصين قد تواطئوا على تشويه جهود جماعة مؤمنة من كبـار النقاد ، وعظماء العاملين في الحقل الاسلامي ، والمجال الادبي الملتزم ، اذ ترددت أقوال هؤلاء مجمعة على انتقاص قوم فضلاء أدوا واجبهم أقـوى الاداء حبا في الحق ، ودفاعا عن العقيدة وهتافا بفضائل الامة الاسلامية ، وذودا عن آثار السلف الكريم ، هؤلاء هم الذين ثبتوا في تفنيد ماكتبـه الدكتور عن الشعر الجاهلي في فترة خاصة من حيـاته حين كان متأثـرا بمناهج الاستشراق ومندفعا لتأييد مايقوله في حماسة الشاب وتعجـل المتطلع الطامح ، ولكن نفرا من هذه الجمـاعة المغرضة ممن كتبوا عن الدكتو ربعد رحيله أخذوا يسمون هؤلاء الناقدين بالجمود تارة والعقم تارة ، ثم يزعمون ظالمين أنهم اندفعوا في نقد الدكتور اسـتجابة لهوى الاحزاب السياسية التي اتخذتهم مطايا الى أهداف ذاتية لاتعترف بحرية الرأي ، وضرورة التقدم ، وهذا من أعجب ما يراه العارفون ، وأكـذب مايسمعه الفاقهون ، اذ أن الذين قاموا بحق النقد المخلص فئة مؤمنة من

كرام العلماء ، وقادة الادباء الذين لاتعرفهم السياسة الحزبية ، والذين تسلحوا بحرية الضمير ، وقوة المنطق ، وصلابة العقيدة ، ورأوا الدكتور في اتجاهه المتطرف يردد أقوال قوم وجدوا في البحث الادبي وسيلة الى التبشير والطعن في أسمى مايقدس المؤمنون ! هؤلاء النقدة وقد عرفوا بنزاهتهم الواضحة وظلت أقلامهم تتردد في المجال الادبي نصف قرن لاتتجه غير وجهة الحق ولا تسلك غير سبيل المؤمنين مع أصالة في الفهم ، وحرية في الرأي وتمسك بالدليل ، ونصوع في البيان ، هؤلاء النقدة يجيء من يرميهم بالكسب المادي في هوى الحزبية ، وبالجمود العقلي في دنيا الفكر ، وكأنهم لم يكونوا أحياء تقرأ صحائفهم بيننا كل حين ، ويطالعون القراء بما ينمي الثروة الفكرية الصالحة ويقوي العقيدة الاسلامية الكريمة صباح مساء في الجرائد اليومية والمجلات الاسبوعية ، والكتب المتصلة حتى أدوا دورهم وذهبوا الى ربهم يسعى نورهم بين أيديهم وعن ايمانهم ، ولا يظن القاريء المتسرع أني محب عاطفي أقول عن غيرة رحمية ، لا عن بحث ودليل ، فقد أردت أن أكتب هذا البحث النقدي ليجلو هذه الحقيقة بعيدا عن صخب الهتاف ، وضجيج الخطابة ، فتعقبت اللباب الخالص مما قال الدكتور ، واتبعته بما قال ناقدوه أو بخلاصة الخلاصة مما قال ناقدوه ، معقبا على كل نقد بما أراه ، مستريحا لما أقوله مادمت أعتقد أنه الصواب السديد ، وبهذا العمل الجاد أتقدم لاحقاق الحق في أمن تواطأ عليه الباطل المريب ليصرف الناشئة عن جهود فريق ملتزم ، كان ذا أثر قوي في قيادة الحركة الادبية الجادة وسلوك السبيل الهادف ، ومازالت صحفه مشهورة وكتبه منشورة تدعو الناس الى قراءتها في حيدة ونزاهة بعيدين عن الغرض والخداع .

نعرف أن النقد المعاصر في حاجة ماسة الى تاريخ تحليلي يبين مساره ويحدد اتجاهاته وقد بذلت خطوات موفقة في هذا الطريق ، ولكن مايرجى في هذا المجال لايزال بعيدا عن التحقيق لأن عصرنا الحافل ، من أزهى العصور الحضارية ، حيث ازدهرت الصحافة ونشطت المطبعة ، وتعددت

الجامعات والمدارس ، واختلط الشرق بالغرب ، ووفدت ثمار الحضـــارة الاجنبية ، وطبع تراث السلف من الاجداد والآبــاء ، ولزم ذلـك كله أن يكثر الناقدون ، ويتسع النقد في كل مجال ، على مدى بعيد يكاد يصل الى قرن كامل ، وذلك مايتطلب تاريخا للنقد تتضافر عليه الجهود وتتجمـع القوى ، وفيما ظهر من التسجيل لهذه الحركة النقدية مايدعو الى مواصلة المسعى بجد ، كما يدعو الى الحذر واليقظة ، فقد أخذ جماعة يبتعــدون بالنقد عن أهدافه الواضحة الى تقدير مذاهب سياسية ، وتيارات وافدة ، ولسنا نناهض الصالح المثمر من هذه التيارات ولكننـــا ننكر مايصطنعه الدهاة تلبيسا وتدليسا وندعو للجد الحازم ، والعزم الصريح ، وفيمـا نكتبه اليوم مايجلو شبهات ظالمة ترين على وجه الحقيقة لتبعدها عن الناس كما أخذ نفر من مؤرخي الحركة النقدية يحددونها في فترات زمنيـــة تقريبية فيبحثون تارة عن النقد في القرن الماضى ، وعن النقد في أوائــل هذا القرن تارة أخرى ، ثم عن النقد بين الحربين العالميتين وعن النقــد فيما تلا الحرب الثانية ، وهو اتجاه نافع اذا صحت النظرة ، وشمل النطاق وصدق التعليل ، وفريق آخر شاء أن يتحدث عن المعارك النقدية في كــل اتجاه ، فامتد به البحث الى آفاق ألم بخطوطها الواضحة دون تأمل عميق ، ونحن نبارك كل جهد صادق ، ونشد على يد كل عامل مخلص ، ولكننــــا نرى التحديد أجدى وأنفع ، وقد يكون التحديد زمنيا كما ألمعنا الى ذلك ، وقد يكون موضوعيا بأن يختار الدارس معركة معينة دار حولها الجـدل النقدي فيعكف على تحليلها متابعا خطواتها كما أحاول اليوم أن أصنع في معركة الشعر الجاهلي ، واذا كثر الدارسون وتتابعت بحوث المعـــارك النقدية ، فاننا نقدم الادوات المهيئة لتاريخ نقدي عام بعد أن نكـــون اللبنات المتراصة لنقيم البناء في أصالة واستعداد .

والذين نقدوا الدكتور طه في الصحف والمجـلات حين صـــدور كتابه كثيرون ، لانستطيع أن نرصد آراءهم جميعها ، وفيهم الخطيب المتحمس ، والمفكر المتئد ، ولكل جهده المشكور ومن هؤلاء أساتذتنا الافاضل محمــد

عبد المطلب وعبد ربه مفتاح وشكيب أرسلان ومحمد سليمان عنارة ، ومحمد عرفة ، وعبد المتعال الصعيدي وعبد الله عفيفي ومحمود مصطفى ومحمد حسين والسباعي البيومي وعلي العناني ومحي الدين الخطيب ، وعشرات غيرهم ، وتتبع كلمات هؤلاءمما يعجزنا اليوم ، فالصحف كثيرة ، والطرق شاقة ، ولكننا سنقتصر على من ألفوا كتبا خاصة تنهض بمناقشة القضية ، لان الكتاب الخاص ذو منهج متصل ، وذو تتبع متئد ، وله نتائج حاسمة تغير وجه القضية تغيرا تاما عما كان يراه الدكتور ، وأول من نذكر من هؤلاء الاستاذ الاكبر الشيخ محمد الخضر حسين في كتابه (نقض الشعر الجاهلي) وهو كاتب اسلامي ، وأديب مجمعي ، وقد تصدر للقضاء الشرعي بتونس ثم هاجم الاستعمار الفرنسي في مقالات سيارة فحكم عليه بالاعدام ، وخرج فارا بروحه فجال سويسرا وألمانيا ، وخلص الى دمشق فعين أستاذا بأرقى مدارسها ثم نزح الى القاهرة ليكون أحد علماء الازهر وليخرج خير ثماره الدينية والفكرية والثقافية ومن بينها كتبه الناقدة الصريحة وقد صار شيخا للازهر بعد حياة حافلة خصيبة فكافأه الله في العاجلة ولما عنده في الآجلة خير وأبقى ، ومثله في جهاده وفراره بدينه لن يكون صنيعة حزب سياسى أو لعبة في أيدي مداور يقتنص .

ونذكر تاليا له الاستاذ العلامة محمد فريد وجدي صاحب المؤلفات الموسوعية والكتب العلمية ، والراصد لتيارات الفكر الغربي في عصره ليزنها بميزان الاسلام فقد كتب مؤلفه في نقد الشعر الجاهلي متجها الى الحقائق الاسلامية في تدفق وانسياب ليظهر ماتورط الدكتور في تسطيره خطأ دون تحقيق ، ونصيب الحقائق الدينية في رده أكثر من نصيب الحقائق الادبية المحضة ، لأن الاستاذ فريد وجدي رجل عقيدة ينافح عنها فهي أولى باهتمامه ، على أنه كان مثالي المنهج فقد ناقش الدكتور في عطف وتسامح ولم يشأ أن يضرم نارا تحرق بل أوقد مصباحا يضيء رحمه الله وقد كان من السياسة الحزبية بمكان بعيد .

ثم نثلث بالاستاذ الكبير محمد لطفي جمعة في كتابه الشهاب الراصد حيث كان غيورا صادقا وقد عالج كثيرا من فنون الادب والدين والاجتماع والمؤلف صحفي قدير أسهم في تحرير الجرائد السيارة المناوئة للاستعمار وعكف على اصدار كتب ثقافية في السياسة والادب والتاريخ ثم هو محام كبير وقانوني أصولي له في دنيا المرافعات القضائية صيت بعيد ، وثروته التأليفية تنطق بمقامه الكريم ، وكان اشتراكه في السياسة العامة لا في التطاحن الحزبي فهو حر صريح ، أما الاستاذ الكبير محمد أحمد الغمراوي عميد كلية الصيدلة وأستاذ الكيمياء في كلية الطب فقد درس العلم الاوربي في أرقى معاهده ثم جاء الى مصر ليندد بالانهيار الغربي بعد أن خبر علله ووقف على أسبابه ، وكان أحد الاوائل الذين أنشأوا جمعية الشبان المسلمين لتحمي العقيدة الاسلامية وتدعو الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد رصد قلمه لتتبع عثرات الفكر المعاصر فحارب خصوم الفكرة الاسلامية في حياته الطويلة ، وكتابه النقد التحليلي مرآة لعلمه التحليلي وفكرة المنطقي ، ولم يكن أداة لحزب ، أو مشايعا لهوى بل عاش مثال العالم الملتزم ، وما ولع بالادب العربي الا خدمة لدينه ورعاية لاسلامه ، اذ أن الادب من تخصصه العلمي غير قريب .

فاذا جئنا الى الكاتب الاشهر مصطفى صادق الرافعي فلن نجده يحتاج الى تعريف ، وكتابه تحت راية القرآن اسهام في تفنيد الافكار التي جاءت في كتاب الدكتور ، ومما أخذ على الرافعي رحمه الله في كتابه لهجته الحادة وعنفه الصاخب ، ولعل مرد ذلك أنه كتب كتابه مقالات في الصحف ثم جمعها دون تنقيح ! ولو كان متخلصا من جو الصحافة ماشتط في القسوة لأن النقاش الهادىء أحرى وأنفع .

وللاستاذ الكبير محمد الخضري كتيب لطيف كان محاضرة في أصله ، ثم قامت الحوائل دون القائها فطبعها الكاتب المؤرخ العلامة ، وهي ذات

هدوء علمي متزن ، وصاحبها باحث منقب ، وقد اهتدى الى حق كثير ، فوجب أن ننوه به خير تنويه ٠

على أننا بعد دراسة ما قاله هؤلاء الافذاذ لم نقف عند حدهم المعلوم ولكنا استعنا بالله في ايضاح جوانب جديـدة ، فالبحث الذي بين يـدي القاريء يناقش قضية الشعر الجاهلي مكتملة متقنة ، ويرسم اتجـاه الناقدين في حيدة ثم يضيف ما اجتهد كاتبه في تحقيقه ، وهو جهد نقدي لا أدعي أنه يقف مع جهود هؤلاء الافذاذ ، فانا منهم في موقف التلميذ دون نزاع ، ولكن أقول انني قد بذلت غاية ما أستطيع ٠

ومن الانصاف للدكتور طه حسين أن نقول أنه عدل عن كثـير من آرائه فيما كتب بعد الشعر الجاهلي كما عدل عن نهجه الاستشراقي حين أدركه حزم الكهولة وعقل الشيوخ ، وهذا ما سجله ناقدوه في صراحة ، بل هذا ما لحظه المستشرقون أنفسهم فقالوا عن منهجه الجديد ما يشى بعدم ارتياحهم بعد أن عدوه ممثلا لوجهة نظرهم ، وها هو الاستاذ جورجيـو ديللافيد أستاذ الحضارة الاسلامية في جامعة نابلي بايطاليا ، يكتب عن طه حسين ليقول انه انتهى في حياته الى تأييد ما يقوله المؤرخون المسلمون من أهل السنة (١) (فهو يخص أبطال تاريخ الاسـلام الديني باجـلاله واحترامه وبالرغم من أنه يعترف بما وقع من بعضهم من تقصير فقـد حاول أن يبرر ما وقع منهم من أخطاء أو على الاقل أن يفرض فيهم صدق الايمان وسلامة النية حتى انتهى به الامر الى الموافقة كل الموافقة عـلى آراء المؤرخين المسلمين من أهل السنة) وهذا في حد ذاته كسب كبير ٠

واذا كان كتاب (الشعر الجاهلي) قد صدر وسط نقاش كبير بين المجددين والمحافظين عرف بمعركة القديم والحديث فقد رأيت أن أبدأ

---

(١) طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ص ١٠٢ دار الهلال ط أولى

بالحديث عن هذه المعركة مبينا تيارها المتميز وموضحا سلسلة التنازع بين القديم والجديد على ممر الاجيال ، مع ردها الى سببها الاجتمـــاعي والطبيعي ، فاذا انتهيت من ذلك عرضت لقضيـــة الانتحـــال في الشعر الجاهلي كما وضحها قدماء الباحثين ، لأثبت أن النصوص التي يتحدث عنها المتشككون لم تكن مجهولة عند القدماء بل ان هؤلاء القدماء كانوا السبب في تدوينها ، وعنهم وجدت وامتدت ، أما أنصار القـــديم ممن يوسمون ظلما بالتخلف والجمود فقد كانوا على معرفة بكل هذه الشكوك ولم يفاجئهم المستشرقون بجديد حين بالغـوا في تدوينهـــا ، واذا كان الاستاذ مصطفى صادق الرافعي هو نصير القدماء فقد رأيت أن أوضح ما قاله في هذا الصدد قبل خمسة عشر عاما من تأليف الشعر الجاهلي ، وفي ذلك تحديد واضح لأصول المسألة كما دونها الباحثون ، وقد انتهيت من ذلك لأعرض آراء الاستشراق التي قلدها الدكتور طه حسين ، ولـــم أرد عليها في هذا الفصل لأن حديث الدكتور فيما بعد سيتضمنها مجوفة مكبرة ، والرد عليه حين ذاك رد على شكوك الاستشراق فلا داعي لتكرار يسئم و لايفيد ٠

فاذا فرغت من ذلك كله عرضت للباب الخالص من كلام الدكتـــور مقسما الى أبواب متتابعة تتجه وفق ماانتحاه في التأليف ، وفي كل فصل خلاصة موجزة دقيقة لرأيه مع المناقشة له مبرزا جهود نقدته المخلصين في الرد عليه ، لتنطق الحقائق المحايدة بما كان لهم من جهد علمي خالص ، لاسبيل الى اتهامه ، وقد قورنت النصوص بالنصوص ، واتصلت الادلة بالادلة ، وضاق المجال عن كـــل شغب يدعو للتطـــاحن الحزبي والهـــوى السياسي كما حاول المنتهزون أن يفسروه على غير وجهه ، صدا للناشئة عن تتبع آثار فكرية رائعة جاهد أصحابها في تسجيلها ، فقاموا بواجب النقد الحيادي ، ووضعوا مسألة الشعر الجاهلي موضعهـــا المطمئن دون شطط أو جموح ٠

واذا كان البحث عن الشعر الجاهلي لاينتهـــي بانتهـــاء معركة من

معاركه ، بل سيظل ملكا للاجيال المقبلة فاننا في سبيل الـذود عن هـذا التراث العربي الخالد ، نقوم بهذا البحثالنقدي الموازن لنسهم في تبديد الشكوك وازالة الاراجيف وليمضي معنا القاريء في رحلة علمية تتصاول فيها الآراء ، وتصطرع بها البراهين ، وفي كل خطوة من خطوات الرحلة ثمر شهي ، وجني مستطاب ، وذلك ليس بالقليل ٠

قدمــاء ومحدثون

الحديث عن القديم والحديث مما يتردد بين الحين والحين في كــل زمان ، اذ لابد أن يتطور الادب باضافة الجديد وأن يوجــد من يعارض هذا الجديد ، ومن يؤيده ، ومن يقف موقفا وسطا بين المعارضة والتأييد ومن يقرأ تاريخ الادب العربي يشاهد تأكيد ذلك فيما قام من الصراع النقدي حول من عرفوا بالتجديد ، وقد كان العصر الحاضر عصر انتقال وتجدد فلا بد أن تصطرع فيه الآراء ، وأن تتشاجر المذاهب ، ثم يأتي من يميز الطيب من الخبيث بعد أن تهدأ العاصفة ، وينكشف الغبار ٠

هذه حقيقة لاتخفى على أحد ، وقد تحدث عنها الدكتور طه حسين بجلاء قبل أن يؤلف كتابه عن الشعر الجاهلي بأربعة أعوام ، حيث كتب فصلا شائقا بجريدة السيــاسة اليومية بتــاريخ (١٧ من ربيع الثاني عام ١٣٤١ هـ ٦ سبتمبر عام ١٩٢٢ م) تحــدث فيه عن هــذه الظاهرة حديث العارف البصير وقد بدأ حديثه بقوله (١)

(لم يخل عصر أدبي في حياة الامم التي كان لها نصيب من الادب ، وحظ في اتقان القول واجادته من هذه المسألة (مسألة القدماء والمحدثين) ولم تظهر هذه المسألة في عصر من العصــور أو عنــد أمة من الامــم الا أحدثت خلافا عظيما ، وجدلا عنيفا ، وقسمت الادباءعلى اختلاف فنونهم الادبية أقساما ثلاثة ، قسم يؤيد القدماء تأييدا لا احتياط فيه ، وقسم يظاهر المحدثين مظاهرة لاتعرف اللــين ، وقســم يتوســط بين أولئــك

---

(١) حديث الاربعاء جـ ٢ ص ٣ ط دار المعارف ١٩٥٧

وهؤلاء ، ويحاول أن يحفظ الصلة بين قديم السنة الادبية وحديثها ، وأن يستفيد من خلاصة ماترك القدماء ويضيف اليها ماابتكرت عقول المحدثين ، من ثمرات أنتجها الرقي ، وأثمرها تغير الاحوال وتبدل الظروف)

ثم مضى الكاتب في مقاله الطويل فتحدث عن الشعور ببقاء القديم والحاجة اليه عند قوم ، والشعور بالتطور والحاجة الية عند قوم آخرين وعن شدة الخلاف بين الفريقين حتى يشعر به أوساط الناس وجماعاتهم المختلة ، لأن الخلاف بين القديم والحديث أصل من أصول الحياة ، وقد كان القدماء والمحدثون أيام بني أمية يختلفون في اللفظ اختلافا ظاهرا ، وكانوا يتخذون اللظ مقياسا لجودة الشعر ، فكلما قرب هذا اللفظ من البداوة وكلما كان رصينا يملأ الفم ويهز السمع كان الشعر جيدا ، ثم ظهر هذا الخلاف بعينه في أول العصر العباسي فاختلف الشعراء العباسيون واختلف معهم الادباء واللغويون في أي الشعرين أجمل وأوفي وأحسن ، الشعر الذي يحتذى شعراء الجاهلية والاسلام في متانة اللفظ ورصانته وبداوته ، أم الشعر الذي يتخير الالفاظ السهلة العذبة التي ألفها الناس عامة لاعلماء اللغة خاصة ، ثم ظهر الى جانب هذا خلاف آخر في المعنى ، فاختلف الشعراء في معاني الشعر ، أتبقى كما كانت بدوية أعرابية ، أم تتحضر كما تحضر الناس ؟ أتصف الاطلال والخيام والصحراء والابل والخيل والسلاح أم تعدل عن هذا كله الى القصور والانهار والرياض ، ثم أتتناول الشعور الانساني فتصفه لا كما يشعر به الناس في بغداد ودمشق والبصرة والكوفة ومصر ، بل كما يشعر به الاعراب في باديتهم وصحرائهم ، أم تتناول هذه المستحدثات الحضرية ، والمستطرفات التي لم يعدها الاعراب ، وعلى الجملة أيعيش الشعراء عصرهم الذي هم فيه ، أم يعيشون عصور الآباء والاجداد (١)

---

(١) حديث الاربعاء ج ٢ ص ٨

هذا بعض ماقاله الدكتور طه حسين وردده في مقالات كثيرة ، وهو من البداهة والوضوح بحيث لايتحمل الترداد والتكرار ، وكان المظنون بمن يعرف هذا القول ، ويكرره ، ويقرره ألا يعنف بمخالفيه ، وألا يثير عليهم الثوائر ، ما دام الخلاف أمرا طبيعيا ، وما دام النزاع بين القديم والحديث لايفتأ يتجدد على تناسل العصور ، ولكن الدكتور طه قد افتتح حديثه عن الشعر الجاهلي بضجة صاخبة حول القدماء ومن يذودون عن آرائهم ، واتخذهم له خصوما يشحذ لهم أشد الأسنة فتكا واستئصالا ، وهو يعلم أن خصومة الرأي شيء طبيعي ، وأن كتابه لايجد صداه القوي الا اذا نوقش وعورض وطرح على بساط النظر والتحليل لقد كتب المؤلف كتابه عن الشعر الجاهلي ليبدي وجهة نظر يراها جديدة ويراها خصومه منقولة منتحلة ليست له ، فكان من الطبيعي أن يترك التحرش بالخصوم ، ويتجه الى لباب الموضوع ، فالكاتب جامعي منهجي ، وهو يخط كتابا علميا درسه للطلاب في الجامعة ولايكتب في صحيفة يومية عن مسألة سياسية ، فليس له أن يبدأ بانتقاص من يعشقون القديم ، وليس له أن يعدهم خصومه باديء ذي بدء فقد يقبلون الصحيح من آرائه في تشجيع ، ويعارضون غير الصحيح في رفق ، ولكن الدكتور طه حسين قد شاء أن يدفعهم الى الغيظ الناقم حين يجدونه يستخف بهم دون داع، ويعتبرهم مثلا للجمود والتحجر ، ان الكتاب كتاب علمي واذا احتاج البحث العلمي الى مقدمات كاشفة فهي التى تتصل بجوهر الموضوع اتصال الحلقات المتراصة في السلسلة الممتدة ، وليست هذه التي تتحرش بالناس وتستخف بهم مهما سلكوا سبيل المعارضة ، ان أول مايأخذه النظر الثاقب على المؤلف ، هو هذا الهجوم الشديد في مطلع كتابه وفي خلال أبوابه ، وكأنه يقصد اليه قصدا ، وتلك غير سبيل الباحثين من المنصفين .

بدأ الدكتور طه حسين حديثه بقوله (١)

(هذا نحو من البحث عن تاريخ الجاهليين ولغتهم وأدبهم جديد ، لم يألفه الناس عندنا من قبل وأكاد أثق أن فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه ، وبأن فريقا سيزورون عنه ازورارا ولكني على سخط أولئك ، وازورار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث ، فقد أذعته قبل اليوم حين تحدثت به الى طلابي في الجامعة وليس سرا ما تتحدث به الى أكثر من مائتين ، ولقد اقتنعت بنتائج هذا البحث اقتناعا ماأعرف أني شعرت بمثله في تلك المواقف المختلفة التي وقفتها من تاريخ الادب العربي ، وهذا الاقتناع القوى هو الذي يحملني على تقييد هذا البحث ونشره في هذه الفصول ، غير حافل بسخط الساخط ، ولا مكترث بازورار المزور ، وأنا مطمئن الى أن هذا البحث ، وان أسخط قوما وشق على آخرين ، فسيرضى هذه الطائفة القليلة من المستنرين الذين هم في حقيقة الامر عدة المستقبل وقوام النهضة وذخر الادب الجديد)

وهذه النغمة الهازئة غير العابئة تتردد دون موجب في كثير من صفحات الكتاب ، وقد فات المؤلف أن بحثه الذي أذاعه على مائتين من الطلاب قبل أن ينشره على الناس لو اقتصر على المسائل الادبية وحدها ماأعترضه أحد من أنصار القديم أو الحديث فالمسائل الادبية ذات دفع وجذب دائمين ، ولا يضج أحد لنتائجها مهما نأت عن الصواب ، ولكن بحث الدكتور قد تعرض للتشكيك في أصول دينية ثابتة ، وهذا مالا يجوز أن يدفع به الى ناشئة صغار قد تركوامقاعدهم في المدارس الثانوية قريبا دون أن يسلحوا بما يرد على الخطأ ، ولم نر في جامعة من جامعات أوربا التي يحتذيها الدكتور من ناقش في مسائل دينية تهاجم أصول المسيحية ، لأن الجامعات لاتتحمل تبعات الاستنتاج الشخصى المخالف ،

---

(١) في الادب الجاهلي ط ١٠ ص ٦١

وقد رأينا في انجلترا من يثور على رواية أدبية تتضمن سطورا تنقد المسيحية ، وجدنا من طلاب أوربا من يهاجم تدريس الرواية باعتبارها نصا أدبيا ، ووجدنا من يستجيب الى الطلاب فترفع الرواية من المحيط الجامعي اذ تضمنت سطرا أو سطرين يناقضان العقيدة الذائعة ، فكيف جاز للدكتور أن يتحدث لمائتين من الطلاب حديثا يمس أصلا رئيسيا من أصول الاسلام وهو لايجد بينهم من يستطيع أن يرده الى الحق ! ثم ان المؤلف أستاذ أدب يحاضر في جامعة وليس خطيبا يحدث العامة فما باله في مطلع بحثه العلمي يلجأ الى الاسلوب الخطابي في مقدمات تسيء ولاتسر ! لماذا لايناقش الموضوع بعيدا عن الاستخفاف بمن يتوقع ازوراره ، ولم هذا التحدى العاجل ، والعمل على اغضاب النفوس دون مبرر ، وماذا يصنع الدكتور لو اقتدى به أحد طلابه ، فألقى على الناس بحثا يقول فيه انه غير عابيء برأيه ، ومزور عن تهجماته ، أيرى هذا الطالب يسلك مسلكا موضوعيا أم يراه مراهقا لايتقيد بآداب البحث وقواعد النقاش ، هب أن فريقا من الناس قد دأبوا على التأني والتمحيص بحيث لايشكون الا في حذر ، ولا ينتقدون الا مع التأكد الصريح فلماذا يضيق بهم الرجل ويعدهم آلات متحركة حين يقول (١) :

(نعم يجب أن نلغي عقولنا وأن نلغي وجودنا الشخصي وأن نستحيل الى كتب متحركة هذا يحفظ الكامل لايعدوه فيصبح نسخة من كتاب الكامل ، تمشى على رجلين ، وتنطق بلسان ، وهذا يحفظ كتاب البيان والتبيين فيصبح نسخة منه ، وهذا يحفظ أخلاطا من هذه الكتب فيصبح مزاجا غريبا ، يتكلم مرة بلسان الجاحظ ، وأخرى بلسان المبرد وثالثة بلسان ثعلب ورابعة بلسان ابن سلام ، لأنصار القديم أن يرضوا لأنفسهم بهذا النحو من أنحاء الحياة العلمية أما نحن فنأبي كل الاباء أن نكون أدوات حاكية أو كتبا متحركة ولا نرضى الا أن تكون لنا عقول

---

(١) في الادب الجاهلي ص ١٧٧

نفهم بها ونستعين بها على النقد والتمحيص في غير تحكم ولا طغيان ، وهذه العقول تضطرنا كما اضطرت غيرنا من قبل الى أن ننظر الى القدماء كما ننظر الى المحدثين دون أن ننسى الظروف التي تحيط بأولئك وهؤلاء ، فأنا لاأقدس أحدا من الذين يعاصرونني ولا أبرئه من الكذب والنحل ، ولا أعصمه من الخطأ والاضطراب)

والذي يقرأ هذا الكلام يظن معارضي الدكتور كتبا متحركة تحفظ الكامل والبيان والتبيين وما اليهما فحسب ، ولكن الواقع غير ذلك فقد ناقشوا الرجل وبينوا مزالق قلمه في قوة وأروه مافتح الله عليهم به من صواب النظر ، وعمق الاستدلال ، وقوة الاستنباط ، كما يقف على ذلك من قرأ هذه الردود في حيدة وانصاف ، ولكن الدكتور يفترض فيهم افتراضات لاندري أيتحققها فيما بينه وبين نفسه ، أم يتخيلها واهما دون تحقيق ، وقد وصفهم بما ليس فيهم حين قال (١) :

(بين أيدينا مسألة الشعر الجاهلي نريد أن ندرسها وننتهي فيها الى الحق ، فأما أنصار القديم فالطريق أمامهم واضحة معبدة ، والامر عليهم سهل يسير ، أليس قد أجمع القدماء من علماء الامصار في العراق والشام وفارس والاندلس على أن طائفة كثيرة من الشعراء قد عاشت قبل الاسلام ، وقالت كثيرا من الشعر أليس قد أجمع هؤلاء العلماء أنفسهم على أن لهؤلاء الشعراء أسماء معروفة محفوظة يتناقلها الناس ، ولايكادون يختلفون فيها ، أليس قد أجمع هؤلاء العلماء على أن لهؤلاء الشعراء مقدارا من القصائد والمقطوعات حفظه عنهم رواتهم وتناقله عنهم الناس ، حتى جاء التدوين فدون في الكتب ، وبقي منه ماشاء الله أن يبقى الى أيامنا ، واذا كان العلماء قد أجمعوا على هذا كله ، فرووا لنا أسماء الشعراء وضبطوها ، ونقلوا لنا آثار الشعراء وفسروها ، فلم

(١) في الادب الجاهلي ص ٦٢

يبق الا أن نأخذ عنهم ماقالوا ، راضين به ، مطمئنين اليه ، فاذا لم يكن لأحد بد من أن يبحث وينقد ويحقق ، فهو يستطيع هذا دون أن يجاوز مذهب أنصار القديم ، فالعلماء قد اختلفوا في الرواية بعض الاختلاف وتفاوتوا في الضبط بعض التفاوت ،فلنوازن بينهم ، ولنرجح رواية على رواية ، ولنؤثر ضبطا علىضبطولنقل أصابالبصريون وأخطأ الكوفيون أو وفق المبرد ولم يوفق ثعلب ٠٠ هم لم يغيروا في الادب شيئا ، وما كان لهم أن يغيروا فيه شيئا وقد أخذوا أنفسهم بالاطمئنانالى ما قال القدماء، وأغلقوا على أنفسهم بابالاجتهاد كما أغلقه الفقهاء في الفقه والمتكلمون في الكلام)

ولوكتب هذا القول باحث غير الدكتور طه حسين لساورنا الشك في اطلاعه على التراث العربي ولظننننا أن الرجل يتحدث عما يجهل ، ولكن الدكتور طه حسين باحث مطلع ، وهو يعلم أن القدماء لم يدونوا الأخبار والأشعار والتواريخ اعتباطا دون نظر وفحص ، ففي كل فرع من فروع التراث العربي والاسلامي وجد النظر الفاحص ، والدرس المنقب ، واختلفت الآراء أحيانا وأتفقت أحيانا أخرى ، فقدماء الفقهاء قد اختلفوا واتفقوا ، اختلفوا في كثير من المسائل حتي تنوعت المذاهب وتعددت الفتاوى ، وقدماء المحدثين قد وضعوا الآصول الثابتة لدراسة الحديث ووصفوا الآثار أوصافا تحدد مكانة المتن ، وتناقش تسلسل السند حتي صار مصطلح الحديث علما عقليا يضع الميزان الدقيق للجرح والتعليل أما علماء الكلام فما أكثر ما طال جدالهم المنطقي وتفسيرهم العقلي ، وما أكثر ما صال عقل على عقل واصطدم دليل بدليل ، ورجال التاريخ قد أكثروا من الروايات المتشعبة واتبعوا مبدئيا طريقة المحدثين في الاسناد ، واذا أجازوا لأنفسهم روايات كثير من الأخبار الضعيفة فلأنمنهج الشمول المتسع لكل رواية يتيح لصاحبه أن ينقل كل ماقيل ، ليترك لأهل الاختصاص مهمة المناقشة والتصحيح

فاذا جئنــا الى كتب الأدب العربي وهي ماعناه الدكتور بالبحث فأننــا لانجد اجماعا على جميع الأقوال والآراء كما حسب الباحث.ولكننا نرى أمهات المصادر الأدبية تحفل بالمناقشة والمراجعة وتؤيد رواية وتضعف أخرى ، وتنفي الشعر عن مصدر لتلحقة بمصدر آخر ، بدليل أن أدلة الدكتور فيما اتجه اليه من قضــايا الانتحال مأخوذة من كتب القدماء ، وقد نشرها الدكتور على نحو فسيح ممتد يتســـع لأكثر مما تتحمل ، وجعل حبلها مديدا منبسطا ليشمل مالا ينبغي أن يضم اليه ، واذا كان أبن سلام أسبق من وصلت الينا كتبهم في النقد فأن ماحققه هذا الرجل في موضوع الانتحال قد ألقي الضوء الواضــح على أشعار كثيرة نسبت الى غير قائليها ، ولم يجد المؤلف مايدفعة الى تصحيح نسبتها نفاها في هدوء وارتياح ، وتوالت كتب الأدب من بعده لتعالج الأمر على ضوئه فامتلأت كتب النقد والرواية بما يقوى من شكوك الوضع ، ونظرة الى الأغاني والموشح والبيان والتبيين والحيوان وغيرها من عشرات المصادر تريك أثر ابن سلام ومن نهج نهجه في تصحيح النسبة وتحقيق الأشعار ، واذا كان القدماء قد أجمعوا على أن هناك شعراء قد عاشوا قبل الاســـلام وقد نظموا الشعر وتناقله الناس فهم لم يجمعوا على أن كل مانسب الى هؤلاء صحيح لامرية فيه ، بل ذكروا أسباب الوضع ، وميزوا الشـــعر المنحول بأمارات واضحة ، وجعلوا من الأحـــداث المشتهرة ، والصياغة المتعالمة ، والاستنباط العاقل مايدفع نسبة شـــعر معين لشـــاعر معين ومازالت كتب الأدب تتوالى ناقلة ماصح من الشعر ، وموضحة شكوكها فيما لم تصدق نسبتة حتي عصرنا الراهن ! وهاهو ذا الدكتور قد أعلن أنه شك فيما يقرأ من الشعر الجاهلي فاتسع بالقضية اتساعا يجعلهـا أشبه بالدعاية وأقرب الى التحدى وكان له في ذلك سلف من المستشرقين لم يشأ أن ينقل عنهم مصرحا ولكنه ساق القول وكأنه من عنده بل أعلن أنه لايستطيع صبرا على كتمانه مما سنوضحه بالتفصيل الكاشف فيما سيجيء ثم رمي الأقدمين وأنصارهم من المحدثين بماهم منه براء ، فماذا

عسى أن يقول ، وكل أدلته قد انتقاها من كتب هؤلاء الذين يزعم أنهم جمعوا القول دون تمحيص ، غير أنهم قد أصابوا الحق حين شكوا فيما ثبت لديهم وضعه من الشعر ، وهو قليل جدا بالنسبة الى الشعر الصحيح أما الباحث الجامعي فقد أخطأ حين زعم الشعر الجاهلي كله منحولا تارة وأكثره الكثير تارة أخرى دون أن يأتي بأدلة قوية يدافع بها في هذه الجبهة الممتدة العريضة التي ابتعد بمساحتها الى حيث كبا به جواده في أول الطريق ، ولعله اقتنع بماساقه الاستاذ محمد الخضر حسين في هذا الصدد ردا عليه حيث قال (١)

لانعرف في الأدب مذهبا يضع الباحث في قيد ، فللمؤلف عند ترجيح رواية على رواية ، وايثار ضبط على ضبط ، والحكم للبصرين على الكوفيين ، والانتصار للمبرد على ثعلبى وله أن يقول : كلتا الروايتين مصطنعه ، وكلا الضبطين تحريف ، والبصريون والكوفيون جميعا في عماية ، والمبرد وثعلب ، كلاهما محروم من التوفيق وله أن يقطع الصلة بين كل شعر وقائله ، وان ينفي الشعراء قاطبة من الأرض ، وليس عليه الا أن يأتي البحث من طرقه المعقوله ، ولاينسى حكمة القرآن في قوله (وفوق كل ذى علم عليم)

ثم قال رحمه الله ص ١٣

(لأنصار الجديد أن يتجاهلوا ما أجمع عليه القدماء ، أو يتساءلوا عن أنباء الشعر الجاهلي حتي يصوغوا من حلقات أسئلتهم سلسلة لايأتي النظر على آخرها ، ولابدع في الأسئلة فانها معان يقرب مأخذها ، وألفاظ يسهل النطق بها ، وانما فضل الكاتب أن يتفقه في المسائل ويمتعك بالجواب عنها ، حتي تطمئن وترضى ، ونحن لم نرا لمؤلف ـ

(١) نقض (الشعر الجاهلي) ص ٩ وما بعدها من فقرات متقاربة ط ١ عام ١٣٤٥ هـ

وهو اللهج بالمذهب الجديد • قد حل شيئا من هـــذه الأسئلة ، ماخلا السؤال الأول ، وهو قولهم أهناك شعر جاهلي به فانه حـرر في بعض الفصول التالية أن للجاهلية شعرا يتلي ولم يبحث في سائر المسائل فيرينا السبيل الى معرفة الشعر الجاهلي ، أو يشرح حقيقتة أو يفصل مقداره أو يأتي على مميزاته ، وكأنه رأى الطريق ملتوية فأنكر هــذا الشــعر الجاهلي حتي لايجهد نفسه في حل هــذه الأسئلة ويشقي)

وفي سبيل ايضاح موقف القدماء من الانتحال ، وموقف من يدعوهم الدكتور أنصار القدماء لابد أن نتابع في ايجاز بذرة هــذه القضية حين أنشقت عنها الأرض عودا أخضر في أول كتــاب نقدى بين أيدينا اليوم وهو كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، حيث ألح مؤلفه الدقيق على تجلية هذه الناحية في صفحات عدة ممابقي بأيدينا من كتابه الجهير وطه حسين يعرف تماما أثر هـــذا الكتـــاب فيما وليهمن كتب النقد العربي على مد العصور المتتابعة ، ويلمس بحصافتة الدقيقة ملامحـــه الواضـــحة فيما كتب الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وابن المعتز بل فيما كتب قـــدامة وعلى بن عبد العزيز الجرجاني والآمـــدى وأبوالفرج الأصفهاني والثعالبي وابن رشيق والخفاجي وابن الأثير وابن خلدون حتي نصل الى من يعنيهم الدكتور حين يتحدث عن أنصار القديم في هذا العصر وفي طليعتهم المغفور له الأستاذ مصطفي صــادق الرافعي حيث بسط الحديث عن الانتحال بسطا معتــدلا كان فيه المقنع كل المقنع لمن يلتمس وجه الأنصاف بعيدا عن الفرقعة الصاخبة ، والضجيج المدوى في غير طائل ! ثم نعرج على موقف الاستشراق من هذه النــاحية فنوجز خلاصة دقيقة لماسبق صاحب الشعر الجاهلي من آراء وافقهــا الدكتور كل الموافقة ولم يزد عليها في أصولها الواضحة غير فروع تمتد على هذه الأصول ، وتعود اليها دون أن تبسط الظل على أرض جديدة ، وفي ذلك كله مايساعد على جلاء الغامض وايضــــاح المبهم وانها لقضية قمينة بما بذل فيها من جهد ، حيث حفظت تراثا وأكدت حقائق ، وكشــفت زيفا ، ثم دعت الى الحذر البالغ والحرص الشديد •

ابن سلام والانتحال

وعدنا أن نتحدث عن اهتمام محمد بن سلام الجمحي بقضية الانتحال · لنرى كيف جمع من أقوال أساتذتة الكثير مما يدل على الشك في نسبة بعض الأبيات والقصائد الى من نسبت اليهم ، ولنرى فيما بعد كيف استغل كلام ابن سلام في مجال غير مجاله ، فاتسع به بعض الدارسين الى حد لايمكن أن يصل اليه ، وصار في رأي بعضهم دليلا على انتحال الشعر الجاهلي كله تارة وعلى انتحال الكثرة الكاثرة منه تارة أخرى ، مع أن الأمر لايجاوز حده المعقول مهما اجتهدت القرائح في التحليل والاستنتاج ·

والانتحال أمرطبيعي لايخلو منه عصر المطبعة التي تحتفظ بالقول كما رواه كاتبه في صفحات معلومة يتناقلها آلاف القارئين ، نحن الآن في عصرالمطبعة نجد من ينقل النص المدون المطبوع من مصدره فيحذف منه مايخل بمضمونه الكلي أو يضيف اليه ماينقل معناه من وضع الى وضع حتى يجيىءالناقد فيرد المؤلف الىصوابهويقف بهعلى أمانةالعلمفيالتزام ماقيل دون تصرف بحذف يسيء أو زيادة تعطى ما لم يقل ، فاذا تركنا الكتب الى أحاديث الخاصة والى المحاضرات التي لم تدون فان مجال الزيادة والنقص والاختلاق أفسح وأرحب وتلك هنات من هنات الانسان لم يخل منها عصر من العصور ، ولكن الأغيار على الحقيقة من حماة العلم يتتبعون كل قول ويقفون عند كل شبهه ، ويميزون الأصيل من الدخيل ، وذلك حق تدفع اليه الغيرة الصادقة ، وتوجبه الحمية الحميدة ، انما الباطل أن نأخذ روايات من

هنا ، وروايات من هناك تتعلق بالشك في بعض القصائد والابيات ثم نقول ان الشعر الجاهلي جميعه منحول ، أو منتحل وأنه حمل على غير قائلية ثم نمعن في التخريج الى أقصى مايمتد به القول فاذا نشط قوم لتصحيح الاخطاء لم نصغ في اعتدال الى مايقولون ، وتمسكنا بما ظهر زيفه الصريح ٠

لم يكن ابن سلام أول من فطن الى الانتحال ، ولكن سابقيه من أمثال أبي عمرو بن العلاء وأبي عبيدة والاصمعي وغيرهم قد بينوا كثيرا مما انتحل ، ووقفوا عنده وقفات تسجلها كتب الادب المتداولة ، ووقفوا عند البيت ، والمقطوعة والقصيدة وأبدوا أحكامهم في صراحة وصدق ، ووجدوا من وافقهم ونقل عنهم ، ومن ناقشهم ليخالف مرة ويوافق أخرى متمسكا بالدليل ، وجاء ابن سلام لينقل ذلك ، وليضيف اليه الكثير ، وكيلا نقذف بالقول في مهامه شاسعة دون تحديد ، فاننا سنتبع في هذا الفصل ما جاء في الطبعة الاخيرة من كتاب (طبقات فحول الشعراء) (١) خاصا بالانتحال لنقدمه في حيدة صريحة حتى نعرف أساس الاقوال التي فهمت على غير وجهها ، ونحصرها في حجمها الطبيعي الذي لاتتعداه ، وهي وحدها شاهد اليقظة الحريصة لدى قوم يعرفون الزائف من الصحيح ، ثم هي دليل حاسم يقف في وجوه من يتزيدون دون تبرير ٠

قال ابن سلام ص ٤ ج ١

١ ــ وفي الشعر مصنوع مفتعل ، وموضوع كثير لاخير فيه ، ولا حجة في عربية ، ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب ، ولا نسيب مستطرف ، وقد تداوله قوم من كتاب الى كتاب لم يأخذوه عن أهل

---

(١) طبقات فحول الشعراء ، الطبعة الثانية ١٩٧٤ في جزءين تحقيق محمود محمد شاكر ــ مطبعة المدني

البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد اذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على ابطال شيء منه أن يقبل من صحيفة ، ولا يروى عن صحفي ، وقد اختلفت العلماء بعد في بعض الشعر كما اختلفت في سائر الاشياء ، فأما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه)

فهذا نص كتبه محمد بن سلام الجمحي في مقدمة كتابه بل بعد ستة أسطر من بدء المقدمة وفيه يقرر بما لالبس فيه ولا التواء أن من الشعر الصحيح والزائف ، وأن الناصحين الفاقهين من العلماءقد مازوا الصحيح من الزائف ، واتفقوا على صحة شعر كثير ، واختلفوا أيضا في بعض الشعر ، وليس لأحد أن يشك فيما أجمع عليه أهل الرواية الصحيحة من العلماء ، واذن فهناك رواية زائفة يدفع لها الغرض الجائر ، وروايات صحيحة يؤيدها بحث العالم ونظر الدارس ، وفي الكتب أشعار رويت عن هوى ، ونحلت نحلا فعزيت الى غير قائليها ، في الشعر مصنوع مفتعل ، وموضوع كثير لاخير فيه وقد أخذه الناس دون تنقيب ولم يعرضوه على أهل العلم والرواية الصحيحة ! ومعنى ذلك كله أن العلماء الاثبات هم المرجع الاصدق ، وما اطمأنوا اليه كان صحيحا ثابت النسب ، وما زيفوه لايلتفت اليه ، وهو بعد ثابت تتداوله الصف دون تحقيق .

٢ ـ وقال ابن سلام ص ٧ ج ١

(وكان ممن أفسد الشعر وهجنه ، وحمل كل غثاء منه ، محمد بن اسحاق بن يسار ، مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسير قال الزهري : لايزال في الناس علم مابقي مولى آل مخرمة ، وكان أكثر علمه بالمغازى والسير وغير ذلك ، فقبل الناس عنه الاشعار ، وكان يعتذر منها ، ويقول : لاعلم لي بالشعر أوتي به فاحمله، ولم يكن ذلك عذرا ، فكتب في السيرة أشعار الرجال الذين لم يقولوا

شعرا قط ، وأشعار النساء فضلا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عـــاد وثمود ، فكتب لهم أشعارا كثيرة ، وليس بشعر انما هو كلام مؤلف معقود بقواف ، أفلا يرجع الى نفسه فيقول : من حمل هذا الشـعر ؟ ومن أداه منذ آلاف السنين ، والله تبارك وتعالى يقول (فقطع دابر القـوم الذين ظلموا (سورة الانعام : ٤٥) أي لابقية لهم ، وقال أيضا (وأنه أهلك عادا الاولى ، وثمود فما أبقى) (سورة النجم : ٥٠ ـ ٥١) وقال في عاد : (فهل ترى لهم من باقية (سورة الحاقة : ٨) وقال (وقرونا بين ذلـك كثيرا) (سورة الفرقان : ٣٨) وقال (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ، قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعـدهم لايعلمهم الا الله (ســـورة ابراهيم : ٩)

فهذا نص تال في المقدمة أيضا يضرب المثل الواضح بعد القول المطلق في النص الاول ، يضرب المثل بابن اسحاق اذ أفسد الشعر وهجنه وحمل عليه كل غثاء بما أسند من شعر لرجال لم يقولوه ولنساء لم يقلنه وكان يعرف فساد النسبة ويعتذر عنها ويقول لاعلم لي بالشعر ، واذن فهـو غير حجة في الرواية الشعرية ولا يعتمد عليه فيها وقد بلغ من التساهل أن ينسب شعرا لعاد وثمود لأنه سمع كلاما معزوا اليهم فحكاه كما سمع دون أن يرجع الى نفسه فيسأل عمن حمل الشعر ، ومن أداه منـذ آلاف السنين ، ودون أن يستمع الى قول القرآن في عاد وثمود ! واذا كان ابن اسحق قد تورط في ذلك فليس لنا أن نتابعه فيما تورط فيه ، وقد تعقبه ابن هشام فيما صنع ، فأبان عن زيف النسبة وآثر تصحيح الكثير وقال في ذلك (١) عن نفسه (وأترك بعض ماذكره ابن اسحق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر ، ولا نزل من القرآن فيه شيء وليس سببا لشيء من هذا الكتاب ، ولا تفسيرا له ولا شاهدا عليه لما ذكرت من الاختصار ، واشعارا ذكرها ، لم أر أحدا من أهل العـــلم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٤ تحقيق السقا وآخرين عام ١٩٣٦

بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضا يشنع الحديث له ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره) ولذلك نجد ابن سلام (٢) ينقل في الرد على ابن اسحق قول أبي عمرو بن العلاء : ما لسان حمير ، وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا ، ثم يقول اثر ذلك (فكيف بما على عهد عاد وثمود مع تداعيه ووهيه ، فلو كان الشعر مثل ماوضع لابن اسحاق ، ومثل ماروى الصحفيون ، ما كانت اليه حاجة ، ولا فيه دليل على علم)

٣ـ ويقول ابن اسلام ص ٢٦ ج ١

(ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه ، قلة مابقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد ، اللذين صح لهما قصائد بقدر عشر ، وان لم يكن لهما غيرهن ، فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة ، وان كان مايروى من الغثاء لهما ، فليس يستحقان مكانهما على أفواه الرواة ، ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير أن الذي نالهما من ذلك أكثر ، وكانا أقدم الفحول ، فلعل ذلك لذاك ، فلما قل كلامهما حمل عليهما حمل كثير)

فابن سلام يقف هنا أمام مشكلة أدبية تتعلق بالشاعرين الجاهليين الكبيرين طرفة بن العبد ، وعبيد بن الابرص فيقرر من جهة أولى أن لهما سيرورة في الذكر وذيوعا في أفواه الرواة ثم ان مايروى لهما عند المصححين الاثبات عشر قصائد فحسب ! فكيف تتأتى هذه الشهرة الذائعة مع هذا القليل الضئيل مما يرويه عنهما المصححون الاثبات ؟ لقد اهتدى الرجل في الاجابة عن ذلك الى أن أكثر شعرهما الذي سبب لهما هذه الشهرة الذائعة قد ضاع وفقد ، وحين وجد بعض من يتظاهرون برواية الشعر قلة مايتردد لهما من القصائد عمدوا الى وضع الغثاء مما لايليق بمكانتهما ونسبوه الى الشاعرين ! فأصبحنا نجد لمثل طرفة شعرا في

---

(٢) الطبقات ج ١ ص ١١

القمة ، وآخر في الحضيض ، والاول صحيح والثاني مكذوب ! هذا ماا هتدى اليه ابن سلام في الاجابة عن سؤاله الدقيق، وهو اتهام مباشرلمن يلفقون القول الهابط ثم ينسبونه الى كبار الشعراء .

٤ ــ وقال ابن سلام ص ٤٦ ج ١

(فلما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم فأرادوا بأن يلحقوا بمن له الوقائع والاشعار فقالوا على ألسنة شعرائهم ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الاشعار التي قيلت ، وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولاماوضعوا ، ولا ما وضع المولدون وانما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الاشكال .

قال ابن سلام : أخبرني أبو عبيدة أن داود بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض مايقدم له البدوي من الجلب والميرة ، فنزل النحيت ، فأتيته أنا وابن نوح العطاردي فسألنا عن شعر أبيه متمم (يريد جده) وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته ، فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الاشعار ويصنعها لنا ، واذا كلام دون كلام متمم ، واذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله)

فهذا نص آخر يوضح بعض أسباب الانتحال ، فيريك كيف احتاجت بعض العشائر الى التمدح بمناقب الاجداد ، والتباهي بمآثر الآباء ، وهم بين أحد افتراضين اما أن يكون لأسلافهم مآثر خلدها شعر ضاع وفقد ، واما ألايكون لهم من هذه المناقب مايرفع رؤوسهم في ملأ يباهى بعراقة الاصل ووثاقة المحتد فاضطروا في كلا الحالين الى اختلاق الشعر وافتعاله ليثبت مايبغون من عز الاجداد وجاه الآباء ، وجاء من الرواة من حمل

الشعر المفتعل ورواه وزاد فيه ! والعلماء الفاقهون لايعجزهم تمييز الصادق من المفتعل فيما قيل مما ولده الرواة ، وانما يشكل عليهم في بعض الاحيان أن يفطنوا الى شعر صنعه بدوي من ولد الشعراء وعزاه الى غير قائله ، ثم نقل ابن سلام عن أستاذه أبي عبيدة معمر بن المثنى مايثبت افتعال حفيد متمم بن نويرة حيث أخذ يتكسب بأشعار جده حين يذيعها بين الناس فلما نفد مافي وطابه اضطر الى الافتعال فظهر لأبي عبيدة وأمثاله مابين الاصل والدخيل من الفروق ! ولكن ماظهر لأبي عبيدة قد يخفى على من ليس له ممارسته الادبية فيحمل المختلق المصنوع ويضيفه الى الصحيح وتسير به الرواية وتتناقله الكتب والاسفار ٠

ثم يقول ابن سلام ص ٤٨ ح ١ متابعا حديثه :

(وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به وكان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ، ويزيد في الاشعار ، أخبرني أبو عبيدة عن يونس ، قال : قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة ، وهو عليها ، فقال : أما أطرفتني شيئا ، فعاد اليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة في مديح أبي‌موسى قال : ويحك ، يمدح الحطيئة أبا موسى ، ولا أعلم به ، وأنا أروي شعر الحطيئة ، ولكن دعها تذهب في الناس !

قال ابن سلام ، أخبرني أبو عبيدة ، عن عمر بن سعيد بن وهب الثقفي ، قال : كان حماد لي صديقا ملطفا ، فعرض علي ماقبله يوما ، فقلت له ، أمل علي قصيدة لأخوالي بني سعد ابن مالك لطرفة ، فأملى علي :

ان الخليط أجد منتقله ولذاك زمت غدوة ابله
عهدي بهم في النقب قد سندوا تهدى صعاب مطيهم ذلله

وهي لأعشى همدان .

وسمعت يونس يقول : العجب ممن يأخذ عن حماد ، وكان يكذب ويلحن ويكسر .

وبقراءة ما قال ابن سلام نعلم أن العلماء الاثبات من أمثال أبي عبيدة معمر بن المثنى ويونس بن حبيب وابن سلام قد عرفوا حمادا على حقيقته ، فرفضوا منه وقبلوا ، وعلموا أن الافتعال من أخلاقه ! والكلام في حماد يتطلب تفصيلا قد نتعرض له فيما بعد ، ولكننا نريد أن نقول هنا ان توهين حماد لايعني توهين سواهوان الشعر الجاهلي لم يكن رواية حماد وحده حتى نرميه كله أو جله بالافتعال ، وأن اهتداء النقاد من رواة الادب وحملته الى حماد وتريثهم البطيء فيما يأخذون منه ويتركون ، يدل دلالة ساطعة على أن الشعر قد تعرض لغربلة دقيقة ، وأن الذين أخلصوا له من الرواة قد عرفوا بسيماهم بين الناس ، كما أن من تزيدوا فيه بالافتعال ، قد لحقهم الريبة فكانوا موضع الاتهام ، أما قصة حماد مع بلال بن أبي بردة فقد ذكرها ابن‌سلام على مارأيت ، ولكن أبا الفرج الاصبهاني يقول (١) (وذكر المدائني أن الحطيئة قال هذه القصيدة في أبي موسى وأنها صحيحة قالها وقد جمع جيشا للغزو فوصله أبو موسى) واذا شك ابن سلام فيها نقلا عن أبي عبيدة عن يونس بن حبيب فقد ارتضاها فريق آخر منهم ابن الاعرابي وأبو عمرو الشيباني وأبو سعيد السكرى الذي شرح ديوان الحطيئة (٢) وكأنهم قد رأوا في صياغة القصيدة مايقوي نسبها للحطيئة ، ولكل وجهة هو موليها .

وابن سلام لايحجم أن يخطيء ذوي المكانة والشهرة لدى العلماء اذا نسب اليهم مالا ترجح لديه نسبته فالشعبي وناهيك بالشعبي والمفضل

---

(١) الاغاني جـ ٢ ص ١٧٦ ط دار الكتب

(٢) ديوان الحطيئة ص ٣٤ مطبعة التقدم

ومن كالمفضل ؟ وأمثالهما لايتحرج ابن سلام في أن ينسب اليهم الغلط اذا رووا مالايطمئن اليه وعنده احتمال أن تكون الرواية عنهم كاذبة فيذكر الاحتمال غير ممانع أن يكون الخطأ منهم ، لأن كل انسان كائنا من كان يخطيء ويصيب ، ودونك فاستمع قوله ٠

(ويروى عن الشعبي ، عن ربعي بن حراش ، أن عمر بن الخطاب قال : أي شعر الذي يقول (فألفيت الامانة لم تخنها كذلك كان نوح لايخون

وهذا غلط على الشعبي ، أو من الشعبي ، أو من ابن حراش ، أجمع أهل العلم أن النابغة لم يقل هذا ، ولم يسمعه عمر ، ولكنهم غلطوا بغيره من شعر النابغة ، فانه ذكر لي أن عمر بن الخطاب سأل عن بيت النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب

وحري أن يكون هذا البيت أو البيت الاول (١) ، ووجدنا رواة العلم يغلطون في الشعر ولا يضبط الشعر الا أهله ، وقد تروي العامة أن الشعبي كان ذا علم بالشعر وأيام العرب وقد روي عنه هذا البيت وهو فاسد ، وروي عنه شيء يحمل على لبيبه

باتت تشكي الى النفس مجهدة   وقد حملتك سبعا بعد سبعين
فان تعيشي ثلاثا تبلغي أملا   وفي الثلاث وفاء للثمانين

ولا اختلاف في أن هذا مصنوع تكثر به الاحاديث ، ويستعان به على السهر عند الملوك والملوك لاتستقصى (٢)

---

(١) يريد بالبيت الاول قول النابغة :

ولست بمستبق اخا لاتلمه   على شعث اي الرجال المهذب

في رواية تتحدث عن عمر ذكرها ابن سلام ص ٥٦ ، وذا ماقرره الاستاذ محمود شاكر محقق الطبقات مستندا الى العقد الفريد ٠

(٢) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٦١

فالبيت الذي رواه الشعبي هنا عن عمر لايرتفع الى منزلة الاهتمام ، وابن سلام يرى ذلك فلا يتحرج أن يقول (وجدنا رواة العلم يغلطون في الشعر ولا يضبط الشعر الا أهله ، وقد ترى العامة أن الشعبي كان ذا علم بالشعر وأيـــام العرب ، ومعنى ذلك أن أهل العـــلم من الفقهاء يضبطون ماتخصصوا فيه فقط ، أما الشعر فله رجال ليس منهم الشعبي الفقيه ، واذا كنا نعرف أن الشعبي كان يسامر عبد الملك بن مروان ويطرفه بكثير من الشعر الجاهلي فابن سلام قد عناه ولا شك حين قال في خاتمة قوله : (ولا اختلاف في أن هذا مصنـــوع تكثـــر به الاحاديث ، ويستعان به على السهر عند الملوك والملوك لاتستقصى أما المفضل راوية الشعر الموثوق فيه ، وامام أهل الكوفة ، فقد يخطىء على امامته والثقة فيه ، اذ روى شعرا منحولا لعدى بن زيد فخلط فيه وأكثر (١) وقد قال ابن سلام عنه في حديثه عن الاسود ابن يعفر (٢)

وذكر بعض أصحابنا أنه سمع المفضل يقول : له ثلاثون ومئة قصيدة ونحن لانعرف له ذلك ولا قريبا منه ، وقد علمت أن أهل الكوفة يروون أكثر مما نروي ، ويتجوزون في ذلك بأكثر من تجوزنا ، وأسمعني بعض أهل الكوفة شعرا زعم أنه أخذه عن خالد بن كلثوم ، يرثي به حاجب بن زراة ، فقلت له : كيف يروي خالد مثل هذا ؟ وهو من أهل العلم ، وهذا شعر متداع خبيث ، فقال : أخذناه من الثقات ، ونحن لانعرف هـــذا ولا نقبله ٠

فابن سلام لايكتفي أن يروي عن الثقات اذا رووا شعرا متداعيـــا خبيثا ، ولكنـــه يرفض مالا يجد صـــناعته متفقة مع مايعلم من منحي الاسلوب الجاهلي رقة أو جزالة ، وهي نظرة نقدية لاتجعـــل لرواية الثقات مكانا فوق الاشتباه والرد ، بل لم يتحرج ابن سلام حـــين رفض

---

(١) الطبقات ج ١ ص ١٤٠

(٢) الطبقات ج ١ ص ١٤٨

كثيرا من شعر حسان على ذيوعه وسيرورته وترداده على الافواه وقد قال (انه حمل عليه مالم يحمل على أحد ، لما تعاضهت قريش ، واستبت وضعوا عليه أشعارا كثيرة لاتنقى (٣) ، ثم فصل في قصيدة أبي طالب عن رسول الله التي يقول فيها :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للارامل

فقال (٤) قد زيد فيها وطولت ولا أدري منتهاها ، وسألني الاصمعي عنها فقلت صحيحة جيدة ، قال : أتدري أين منتهاها ؟ قلت لا ! وأشعار قريش أشعار فيها لين فتشكل بعض الاشكال .

ولاهتمام ابن سلام بقضية الانتحال نجده يتهم الكبار بالسطو دون تحرز ، فقد ذكر عن أستاذه أبي عبيدة معمر بن المثنى أن قراد بن حنش من شعراء غطفان كان قليل الشعر جيده ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه ومنهم زهير بن أبي سلمى ادعى هذه الابيات :

ان الرزية لارزية مثلها ماتبتغي غطفان يوم أضلت
ان الركاب لتبتغي ذا مرة بجنوب نخل اذا الشهور أحلت
ولنعم حشو الدرع أنت لنا اذا نهلت من العلق الرماح وعلت
ينعون خير الناس عند كريهة عظمت مصيبتهم هناك وجلت(١)

وبعيد كل البعد أن يسطو زهير بقوله في رثاء والد ممدوحه هرم بن سنان ، فزهير كان ذا حصانة خلقية ، وذا اقتدار يمنعه أن يغير ، وقد كان الفرزدق يغير مع اقتداره ، ولكن ليست له حصانة زهير وترفعه ثم استحياؤه أن ينكشف أمره أمام هرم بن سنان حين يعلم أنه رثى أباه

---

(٣) جـ ١ ص ٢١٥
(٤) جـ ١ ص ٢٤٤
(١) طبقات فحول الشعراء جـ ٢ ص ٧٣٣

بشعر لسواه ، وأين غطفان اذن وهي تناوىء زهيرا لأنه مزني ، أفتسكت عنه حين يتصدر المحافل ويترأس الشعراء ثم يلجمهم بأبيات سرقها من قراد !

هذه آراء ابن سلام وقد تناهبتها كتب الادب من بعده ، فلا تكاد تجد متحدثا عن الشعر والشعراء لم ينقل عنها مؤيدا ، واذن فالقدماء كانوا على علم بالانتحال ، وقد قالوا مايقوله نقاد اليوم ولكنهم لم يتطرفوا مشتطين ، ليعصفوا بالشعر الجاهلي حتى مايروى منه بيت ، والذين تصدروا للرد على كتاب (في الشعر الجاهلي) لم تفتهم هذه الحقائق ، فقد وقفوا عند ابن سلام ، ووضحوا كيف اعتدل في رأيه وتجاوز سواه الحد ، بل وجدوا أن شبهات المنكرين قد ارتكنت جميعها الى ابن سلام ، ونتقل هنا من كلام الاستاذ الجليل محمد أحمد الغمراوي مايكشف ذلك دون عناء ، قال رحمه الله (٢)

(لكنا اذا تركنا حكم صاحب الكتاب جانبا ،وقارنا بينه وبين القدماء تبين أن هؤلاء القدماء الذين يصفهم صاحب الكتاب بالعجز عن القليل تارة ، وبالقدرة على الكثير أخرى ، وبالفطنة الى الخفي تارة ، وبالغفلة عن الظاهر أخرى ، هم الذين فتحوا لصاحب الكتاب ولغيره باب القول وعنهم أخذ كل مافي كتابه من نقد صواب ، ونحن لانبالغ حين نقول ان مافي الكتاب من نقد حسن انما هو لابن سلام ، وأن الجمهرة العظمى من الشواهد التي استشهد بها فأساء الاستشهاد مأخوذة من كتاب (طبقات الشعراء) وأنك اذا أخذت الكتاب وعريته عن المنقول من ابن سلام عريته عن أثمن جزء فيه ، فلا يبقى منه الا عبارات عامة لاتغني شيئا ولا تقنع أحدا استنتجها من ابن سلام عن طريق التعميم فأخطأ الاستنتاج)

---

(٢) النقد التحليلي للاستاذ الغمراوي ص ٢٦٧

واذا حاولت أن تحصى المواطن التي أخذ فيها عن ابن ســلام صعب عليك العد لكثرتها ووجدتها منبثة في الكتاب خصوصا في كتاب (أسباب انتحال الشعر) الذي تهكم فيه كثيرا بالقدماء ، وليست تلك المواطــن كلها منسوبة لابن سلام فكثير منها مغفل أو منسوب الى مبهم ، كأن يقول (لك والرواة يحدثوننا ، والرواة مجمعون ، أو ماشابه ذلك من تعبير)

هذا موقف القدماء في الماضى كما صوره ابن سلام ، أما موقف أنصار القدماء في الحاضر فسنجلوه في البحث التالي ، لنرى أن حديث الدكتور طه حسين عن القدماء وأنصار القديم وموقفهم من الشعر الجاهلي لــم ينته الى قول صحيح .

الرافعي والانتحـــال

اذا كان ابن سلام قد بسط الحديث في قضية الانتحال بما يجلو كل شبهة تعرض ، وبما يضع القضية موضعهاالذي لالبس فيه ، فان مصطفى صادق الرافعي رحمه الله قد جاء في هذا العصر ليلقي نظرة شاملةمحيطة تعيد ماقال ابن سلام في صورة ثانية يقبلها المنطق المعاصر ، وكأن الله قد ألهمه قبل خمسة عشر عاما من فتنة الشعر الجاهلي أنه سيأتي من ينكر هذا الشعر ، ويبسط القول في توهينه بلسان حاد صارم ، فكتب ماكتب ليقول لذوي الافكار اننا نعرف كل ماتعرفون ، ولكننا نقف عندما نعرف فلا نسرف في الانتاج اسرافا ينتهي بالحق الى الباطل وبالصحيح الى الخطـــأ وبالاعتدال الى الشطط والجموح ٠

واذا كان سدنة الاستشراق ممن واطأهم الدكتور طه حسين في هــذه القضية ، لايحبون أن يذكروا غيرهم من باحثي العربية الاصلاء الا اذا سار في ركبهم ، وحطب في حبالهم فانهم قد قرءوا ماكتب الاستاذ الرافعي لأن مكانه في العربية في عصره يدل عليه بحيث ينكر كل باحث نفسه اذا أغفل ماكتب الرافعي في تاريخ الادب حين يحيد عما كتب فلا يلقي اليه نظرة الفحص والتقليب ، اذا كان سدنة الاستشراق يتعمدون اغفـــال المصادر العربية عن عمد فان الدكتور طه حسين لم يستطع أن ينكر صنيع الرافعي على مابين الرجلين من خصام صريح فأشار اليه اشارة التحبيذ والتأييد حين قال في كتابه (١) في صدد الحديث عن القصص وانتحـــال الشعر ٠

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ١٤٨

(وهذا الفن الادبي تناول الحياة العربية والاسلامية كلها من ناحية خيالية لم يقدرها الذين درسوا تاريخ الآداب العربية قدرها ، لاأكاد أستثني منهم الا الاستاذ مصطفى صادق الرافعي فهو قد فطن لما يمكن أن يكون من تأثير القصص في نحل الشعر واضافته الى القدماء كما فطن لأشياء أخرى قيمة ، وأحاط بها احاطة حسنة في الجزء الاول من كتاب (تاريخ آداب العرب) .

وهي حقيقة بلقاء لاحظها كل من تعرض بالنقد لكتاب الدكتور طه حسين ، فآخذوا على المؤلف موقفه ممن يزعمهم أنصار القديم حين رماهم بالجمود والغفلة عن الاجتهاد ، مع أنهم مجتهدون في دائرة البحث الحقيقي دون اعتساف ، يقول العلامة الموسوعي الاستاذ محمد فريد وجدي في رده القوي على الدكتور طه حسين (١)

(ونآخذ على الدكتور طه حسين أيضا تحامله على الطائفة التي سماها بأنصار القديم ، وذهابه الى أنهم مطمئنون الى ماقاله القدماء ، وأنهم أغلقوا على أنفسهم باب الاجتهاد في الادب ، فان كان يقصد بهذا القول أنهم لايجرءون على أن يفعلوا فعله في نقد الشعر وتمحيصه ، فقد وجب علينا أن نرده الى الصواب فيه ، ولا نجد أن أفعل في اقناعه من نقل ماكتبه الاديب المشهور الاستاذ مصطفى أفندي صادق الرافعي في كتابه (تاريخ آداب العرب) الذي نشره في ١٩١١ أي قبل خمس عشرة سنة من ص ص ٣٦٦ الى ٣٨٣) فقد جاء فيه قوله ..... ومضى العلامة الاستاذ فريد وجدي يسرد أقوال الرافعي في وضوح وسداد .

أما شيخنا الاستاذ محمد الخضر حسين رحمه الله ،فقد أدرك ماأدرك الاستاذ وجدي ، ولكنه علل ثناء الدكتور طه حسين على الرافعي تعليلا له

---

(١) نقد كتاب الشعر الجاهلي للأستاذ محمد فريد وجدى ص ٧ ط ١٩٢٦

مايبرره ، اذ رأى في محاولة طه ذلك أنه يريد أن يكف الرافعي عنه فلا يتعرض لكتابه بالتوهين فقال بعد أن ذكر ماقال طه حسين عن الرافعي مانصه (١)

(ولكن الاستاذ الرافعي أبي الا أن ينقدكتاب في الشعر الجاهلي ويكف بأسه ، ومن لايدري ما الايمان ولا الاخلاص قد يجيء على باله أن يشتري سكوت المؤمنين المخلصين بكلمة مديح واطراء ، والمؤلف ينظر في فصله هذا الى فصل الاستاذ الرافعي والى ماكتبه جورجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ، وفي كتاب العرب قبل الاسلام ، وسنريكم بعض ما مد اليه عينه كما أريناكم مواقع نظره من كتب أخرى) ومضى الاستاذ الخضر ينقل شذورا من كتاب طه ليردها الى أصلها في كتاب الرافعي ، ليس في باب القصص فحسب ، بل في فصول أخرى من فصول الكتاب والعلامة الخضر حسين باحث متئد دقيق يشعر قارئه أنه مطمئن أتم الاطمئنان في بحثه لايعجله شيء عن التمعن والاستقصاء .

أما الاستاذ مصطفى صادق الرافعي ، فقد عرف سطو الدكتور على كتابه ، وقال في تهكم نعرفه تمام المعرفة في أسلوبه الناقد (قبل أن نخوض في كتاب الاستاذ طه حسين نشكر له ماتفضل به من الثناء علينا في كتابه ، واستثناءه ايانا في بعض المعاني من كل من درسوا تاريخ الآداب العربية، ونحن دون هذا في أنفسنا ، ودون ماأبلغنا اياه مع بعض أصدقائنا ، وان كنا نعرف من صنيع الاستاذ الفاضل أنه لاينصفنا مرة الا بعد أن يظلمنا مرارا ، وأنه اتخذ الوقيعة فينا مذهبا عرف به وغلب عليه حتى لايكاد يقول أنصار القديم أو يكتب أنصار القديم ، أو يذم أنصار القديم الا توجه ذلك عنده الينا خالصا من دون المؤمنين (٢)

---

(١) نقض الشعر الجاهلي ص ٢٢٧

(٢) كتاب تحت راية القرآن للرافعي ص ١٤١ ط اولى ١٩٢٦

وقد تعمدنا اثبات هذه النقول لنعفي على أقوال عدة نشرت فيما بعد ، تثبت أن الرافعي رحمه الله لم يزد شيئا عما قال ابن سلام وانما جمع ورتب فقط ، والحقيقة أن الرافعي قد جاوز ابن سلام الى شيء كثير بسطه بسطا ووفاه قسطه من الايضاح والتوجيه ، ولو كان القائل واحدا لعذرناه ولكن جماعة ينقل بعضها عن بعض دون تثبيت ، وهم بعد فضلاء باحثون عرفوا بالنباهة والاتقان ، ونذكر منهم الدكتور ناصر الدين الاسد حين قال عن الرافعي (١)

(غير أنه — أي الاستاذ الرافعي — كان يحكي ماأورده المؤلفون القدماء ، يجمع ماتفرق من هذا الحديث في الكتب الكثيرة أو في مواطن شتى من الكتاب الواحد ثم يرتب ماتجمع له في فصول ينتظم كل فصل منها عنوان يدل عليه ، ولكنه على هذا الجهد العظيم الذي تكلفه اكتفى في أكثر حديثه بالسرد المجرد ، والحكاية عمن مضى ، ولم يتجاوز ذلك الى البحث في هذه الاخبار والروايات بحثا علميا ولا الى نقدها نقدا يميز زائفها من صحيحها الا في القليل النادر ، وحتى في هذا القليل النادر كان يتعجل المضي فلا يكاد يقف عند خبر أو رواية حتى يدعها وينتقل الى غيرها)

وقاريء هذا الكلام يظن الرافعي ناقلا فحسب ! والحقيقة أن الرافعي قد ناقش مايعتقد أنه مدخول واهن ، ومر على مايعتقد صوابه دون نقاش ، فلم يكن من دأبه التباهي بتشقيق القول ومحاولة الالتواء به ليظهر على غير وجهه كما فعل سواه ، وسطوة الرافعي في النقاش لاينكرها عارفوه ولكنها السطوة التي تتلمس موضعها الصحيح دون اعتساف ، ولعل الدكتور ناصر الاسد قد راجع نفسه بعض الشيء حين قال في خاتمة حديثه عن الرافعي رحمه الله (٢)

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الأسد ص ٣٧٧ ط ٣ ١٩٦٦ م

(٢) ص ٣٧٩

(وهكذا نرى أن الرافعي قد دار مع القدماء من العرب في فلكهم ، وسرد ماروه من الاخبار وما انبث في كتبهم من الاحاديث وحصر الموضوع في الدائرة نفسها التي حصره فيها القدماء ، لم يحمل نصا أكثر مما يحتمل ، ولم يعتسف الطريق اعتسافا الى الاستنتاج والاستنباط ولا الى الظن والافتراض ، ولم يجعل من الخبر الواحد قاعدة عامة ، ولا من الحالات الفردية نظرية شاملة)

وبقراءة هذه الكلمات التي كتبها الدكتور الاسد تتضح لنا حقيقة بدهية ، هي أن كل الشكوك التي جوفها خصوم الشعر الجاهلي تنطق النصوص بما لاتتحمله ، وأن كل مااستندوا اليه من الاقوال لا يعصف بالشعر الجاهلي ولكنه ينفي ماعلق به من الزيادات التي تنادي على نفسها بالافتعال ، وكتاب الاستاذ الرافعي قد تتبع هذه النصوص تتبعا جيدا ، ليضعها موضعها الصحيح من الدلالة على صحة الاصل ، وفساد ماألحق به ، ولم يكن الرافعي ومن نحا نحوه من الغفلة بحيث يطبقون عيونهم غافلين عن هذه الزيادات ، ولكنهم سلطوا عليها أنظارهم الثاقبة فكشفوا كل ضباب ترسله هذه الزيادات ، ووطنوا أنفسهم على اكتساحها وافتضاحها ، وقد قال الاستاذ الرافعي في الصفحات الاولى من كتابه (١)

(وكذلك ضربنا صفحا عن الروايات الضعيفة ، والمبالغات السخيفة ، وما اعترضنا من التكاذيب والتهاويل الى مايدخل في تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وبالغنا في التثبت والتحقيق ، وتصفح الآراء وتجريح النقلة والرواية مقتصدين في الثقة بهم ، معتدلين في التهمة لهم ، لانتجاوز مقدار الصواب حتى نقبل مالا يعقل ، ولا مقدار الوهن حتى نلحق مايقبل بما لايعقل)

---

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٧

وهو مذهب حدده المؤلف بوضوح ، وسار على هديه على بصيرة ، ونحن هنا متابعوه لنرى كيف بلغ الشاطىء في حرص وأمان ٠

أفرد الرافعي جزءا هاما من كتابه للحديث عن وضع الشعر ، فذكر باديء ذي بدء أن الجاهليين لم يجدوا من الاسباب مايبعث لديهم على وضع الشعر لأن شعراءهم متوافرون ولأنهم لايطلبون بالشعر الا المحامد والمعاير ، وقصارى تزيدهم أن يبالغوا في معاني الشجاعة والمروءة والكرم ليصوروا أنفسهم تصويرا نابها كريما ، ثم جاء الاسلام فتشاغلت العرب بالجهاد والفتوح وضاع كثير مما حفظه الرواة فصنعت بعض القبائل من الشعر ماتتكثر به وتعتاض مما فقدته ، والرافعي في ذلك متابع لابن سلام مسترسل في ذكر أمثلة مما خطه في طبقات الفحول ، غير أنه عبر ذلك الى تحديد دقيق لبواعث الوضع في الشعر ، فذكر شعر الشواهد أول ماذكر موضحا الفروق بين شواهد القرآن وشواهد النحو منتهيا الى أن الكوفيين أكثر وضعا للاشعار التي يستشهد بها لضعف مذاهبهم ، وتعلقهم على الشواذ ، واعتبارهم منها أصولا يقاس عليها مجاراة لما فيهم من الميل الطبيعي الى ماشذ ، بخلاف البصريين ، ومن أجل هذا وأمثاله كان البصريون يغتمزون على الكوفيين فيقولون نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع يريدون بهم أعراب البادية من الجفاة الذين لم تلن ألسنتهم بمخالطة المتحضرين ، أما الكوفيون فيأخذونها عن أكلة الشواريز والكواميخ يريدون بهم من تحضر من البداة فخالطته العجمة ، ثم اعتدل الرافعي في حكمه حين قال : على أن البصريين وان تثبتوا في أشعار الشواهد فقد وقع لهم أشياء من الموضوع جازت عليهم ، وضرب الامثلة ببعض مافي كتاب سيبويه من المصنوع ٠

فاذا ترك شواهد النحو انتقل الى شواهد المتكلمين من المعتزلة فذكر ماصنع من أبيات تدل على مايريد هؤلاء ، ونقل عن الجاحظ في الحيوان وابن قتيبة في التأويل ٠

وخلص الرافعي من أبيات الشواهد ليتحدث عن الرواة والاخباريين فقال : ان علوم هؤلاء كانت تدور على الخبر والشعر ، وليس في ذلك عندهم أكثر من الاستمتاع باللفظ الحسن ، والمعنى الطريف مما لايبنى عليه دين ، ولا يدخل الناس منه في جرح ، ولا يكون فيه من بعد الا افساد التاريخ العربي ، وأهون بذلك ـ يريد تاريخ الجاهلية ـ مادام هذا التاريخ قائما بالتأويلات والمفاخرات والمناشدات ، وبكل مانسخه الاسلام أو أنساه ، أو جاء بخير منه ، وليست الغاية من أكثره الا ضربا من السمر ونوعا من لهو الحديث ، وقد تزيد فيه العرب أنفسهم وهم مصدر الرواية ، وهذا هو السبب في أنك لاتكاد تجد للجاهلية تاريخا صحيحا ، ولا ترى فيما تتصحفه الا الاكاذيب والمبالغات .

ثم نتج عن هذا النوع بعض مايستشهد به على التفسير والحديث وعلى كل ما قامت به الرواية في الصدر الاول حتى قر في أوهام الناس أن مالا شاهد له من كلام العرب لاثقة به كائنا ماكان علما أو خبرا وكانت الامة لاتزال على ارث الفطرة العربية في اعتبار الشعر وتمجيده والاهتزاز له ، ثم كان ذلك عاما في سواد الناس من الخلفاء فمن دونهم فلما كثر القصاصون وأهل الاخبار اضطروا من أجل ذلك أن يصنعوا الشعر ، لما يلفقونه من الاساطير حتى يلائموا بين رقعتي الكلام ، وليحدروا تلك الاساطير من أقرب الطرق الى أفئدة العوام فوضعوا من الشعر على آدم ومن دونه ، وتطرق الكاتب الى ابن اسحق وأضرابه بما نعلم مما استفاض خبره ، وما دام الرافعي يتحدث عن غرائب القصاص فلا بد أن يلم بشعر الجن وما ورد عنهم من القصص وما قيل على لسانهم من المقطوعات ، موضحا مانقله الجاحظ عن النظام وهو من الشهرة الآن بحيث تكفي الاشارة اليه دون اسهاب ، وقال الرافعي تعقيبا عليه : ان أخبار الجن لاتعرف الا عن رجل من الاعراب أو رجل من الرواة الذين يقصون للعامة وأشباه العامة ، وقد يأتي القليل من ذلك عن الراوية الثقة يريد به الاغراب في حديث ان جاء به ، وشعر ان أنشده ، ليدير

الكلام على روعة تؤكد معناه وتجعله ظريفا غريبا فكـأنه يستعـين على بياض غرضه بضرب من التخييل كما يستعين الكاتب أو اشاعر بمثل من المجاز (تأمل هـذا)

ولقد أفرط الرواة ــ كما يرى الرافعي ــ في سزاعمهم عن الجن ، وما استفاض ذلك في الاسلام الا بعد ماذكـره جهـلة المفسـرين وأهـل القصص ممن تكلموا في تفسير ماورد في القرآن الكريم من الاشـارة الى الجن ، أو ما جاء في الحديث الشريف ، ولا بد لكل كلام عندهم من شعر يستشهد به على ماعرفت ، ولا أبلغ في ذلك ولا أدعى الى الرضى من شعـر الجن أنفسهم ، وقد سبقهم الى بعضه الأعراب ، فلم يبق الا أن ينفوا عنه تلك اللوثة الاعرابية ، ويرققـوا حواشيه ويلائمـوا بينه وبين ماهـم بسبيله من العلوم القديمة التي ادعى غيرهم من أهل الكتاب ، أن بعضها الهي نزل من السماء ، وادعوا هم أن سائرها شيطاني خرج من الارض ٠

وقد فطن الرافعي الى الكوامن النفسية في سرائر بعض الرواة ممن يتباهون بالمعرفة العريضة لكل ماقيل من الشعر ، ويريدون أن يستطيلوا على زملائهم بالوقوف على مايحفظون فيلجئون الى افتعال القصائد يعزونها للجاهليين ، كيدا لخصومهم واظهارهم في صورة الغافل عن الكثير مما قيل ويروي الرافعي رأي المفضل الضبي في حماد ، وهو مشهور متعالم وكأني به يوافقه دون نقاش مع أن المنافسة بين المتعاصرين قد تحمل المفضل على المبالغة في أمر غريمه ، وبخاصة اذا تعدت هذه المنافسة الحامية شخصيتي الرجلين الى أنصارهما ممن يتحزبون لكل راوية ويحاولون انتقـاص خصمه ان حقا وان باطلا ، وقـد ذهب الرافعي الى اتهام حمـاد بوضع قصيدة الحطيئة التي نسبها اليه في امتداح أبي موسى جد بلال بن أبي برده محتجا بأن البصير بالشعر ومذاهبه اذا قرأ شعر الحطيئة أخرج منه هذه القصيدة اذ هي في رأيه تقليد ومقاربة ، وقد فات الرافعي أن شعر المـديح بنوع خاص يغلب عليه التقليد وكثيرا ماينحط فيه الشاعر الى

أسفل من طبقته حيث أكد ذهنه دون عاطفة تسـمح بالجيد الرفيع ، فالاحتكام الى الصنعة وحدها قد يجوز في أبواب كثـيرة ليس من بينها المديح ، وأنت تطبيقا لذلك تقرأ للفحول من أمثال البحتري وأبي تمام والمتنبي من هزيل المدائح ما لايرتفع الى كثير مما قالوه ، ولا يدفعنا ذلك الى انكار الهزيل لأن لكل شاعر مرتفعاته العالية وانحداراته الهاوية ، أما خلف فقد كرر الرافعي ماقيل في افتعاله وأكثره قد وضع حسدا دون حق ، وقد قام من باحثي الادباء من وضع حمادا وخلفا موضعهما الصحيح ونفى عنهما كثيرا مما التصق بهما ، ولعل الدكتور ناصر الاسد كان أحد هؤلاء فقد ناقش في كتابه (مصادر الشعر الجاهلي) وضع الرواة مناقشة جادة منصفة ، وأزال كثيرا من الغبار العالق بهم ازالة لايعوزها الدليل ، والاحتكام الى أمثال الاصمعي في أمر خلف أو سواه يحتاج الى تدقيـق ، يزيل مايرين على المعاصرة من حجاب ، اننا بعد ذلك كله نرى أن الرافعي قد احتاط فأكثر الاحتياط ، بحيث كان أمينا على ماقرأ ، ثم سار في مذهب أمانته سيرا طبيعيا فلم يشتط في اعتساف النتائج النهائية كما اعتسف مخالفوه ، أما نسبة الوضع الى أبي عمرو بن العلاء حـين ادعت الرواية أنه اعترف بنظمه قول الاعشى :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت   من الحوادث الا الشيب والصلعا

فلا أدري كيف قال الرافعي بها ، وأبو عمرو هو أبو عمرو ، منطقه في الرواية وسيرته في الحياة مما يمنع أن يصر على وضع بيت واحد ، واذا كان الوضع في هذا البيت قد نسب مرة لأبي عمرو في رواية أبي الطيب اللغوي ثم نسب الى حماد في رواية العقد الفريد فما أحرى أن يكون هذا الاختلاف سبيلا الى تبرئة حجة متأله مثل أبي عمرو ، وقد عجبت للرافعي حين يقول ص ٢٨٤ ان رواية أبي الطيب أوثق مع أنها تالية لرواية ابن عبد ربه ومتأخرة عنها ، ولأن ينسب الوضـع الى انسـان اشتبه في أمره أقرب الى أن ينسب لامام متحرز لم يشك أحد في صدقه ، وهذا مأراه .

ثم انتقل صاحب تاريخ آداب العرب انتقالا آخر فذكر أنه لما فشا أمر الصنعة في الشعر جعل المتأخرون يضعون القصيد والرجز وينسبونه لمن اشتهروا بالوضع من المتقدمين كخلف ، أو لمن اتسعت عنهم الرواية كالاصمعي ، ثم ذكر فنونا طريفة من الوضع كمن ينظم الشعر ثم ينسبه بدءا الى سواه ليرى حكم الناس عليه ، ومن يضع الابيات الحديثة على مجلدات الكتب فيأتي من يعدها قديمة ويلحقها بالاصل ، ثم هذه الشوارد السائرة التي لاتعزى الى قائل وهي ذات نفاسة تغري بتداولها ، وقد تضمن حكمة فذة أو تجربة صادقة تسير بها على الافواه ، هذا كله قد فطن اليه الرافعي ودل عليه ، كما وقف وقفة مستأنية عند اختلاف الروايات في الشعر معللا سببه بالاعتماد على الذاكرة تارة وهي كثيرا ماتنسى فتبدل لفظا مكان لفظ ، وبتعمد التبديل تارة ثانية حين يكون فيه حجة في مسألة نحوية أو لغوية ، ومعروف أن الكوفيين منهم من يروي أبياتا على غير وجهها لتنهض بحجة يفتقر اليها ، ومنهم من ينشىء البيت ليكون شاهدا على قاعدة يؤمن بصحتها ، ثم يجيء من يروي الاصل ومن يروي البدل فيقع القاريء في حيرة حين يجد الاختلاف الصريح ، وقد فهمت البواعث وعرفت الاسباب ٠

أما التزيد في الاخبار فمن أوسع أبواب الوضع ، واذا كان الخبر في ذاته موضوعا فان مايؤيده من الشعر موضوع كذلك ، وكلام الرافعي عن الاخباريين من أنفس ماقيل دقة وتعليلا واستنباطا ، كذلك حديثه عن القصاص فقد كان أبدع ماقيل في بابه ، وقد أثنى عليه الدكتور طه في كتابه كما تقدم ، ثم ذكر في الطبعات الاخيرة من الادب الجاهلي أن الدكتور أحمد أمين رحمه الله قد تحدث عن القصاص في فجر الاسلام بما أتم به النقص ، وحديث الدكتور أحمد أمين في فجر الاسلام قد جاء بعد حديث الرافعي بأكثر من عشرين عاما فأحر به أن يكمل الناقص ويتمه معتمدا على خطوات الرافعي التي مهدت الطريق ، وقد ظهرت كتب لابن تيمية والحافظ العراقي وجلال الدين السيوطي تتحدث عن القصاص

ومبالغاتهم وتذكر ماقيل في السنة من تحذير الاختــلاق والوضـــع على رسول الله ، ولكن هذه الكتب شيء ومافتح الله به على الرافعي شيء آخر حيث تتبع نشأة القصاص في العصر الاموى اذ يتقدمون المحاربين ليقصوا عليهم أخبار الجهاد وحب الاستشهاد ، موضحا أول من قص بمكة المكرمة من التابعين وأول من قص بالمدينة مقتفيا أثر القصاص من سابقيه ، اذ لم يكن القصص في القرن الاول مرذولا ولا كانوا يرون به بأسا ، وكان مصدر أكثره أهل الكتاب من اليهود والنصارى من أمثال عبـــد الله بن سلام ووهب بن منبه وكعب الاحبار ، أما في القرن الثاني فقد كان مبدأ الاغراق في القصص واستهواء العامة بها بعد موت الحسن البصري ١١٠ رحمه الله ، وظهور طبقة تولع بالغرائب والاعاجيب ، وللجـاحظ في المعتدلين من هؤلاء والمتطرفين أحاديث خاطفة ساق الرافعي بعضها متمثلا بموسى بن سيار وأبي علي الاسواري والقاسم بن يحيى ، وصالح المري حتى جاء القرن الثالث وظهرت المؤلفات في شتى الفنون ، فأحدثت من الاستنارة ماحصر رسالة القصاص في حيز ضئيل ٠

وقد ختم الرافعي الجزء الاول من كتابه بفصل قيم عن الـــرواة ، وهو أشمل وأوفى بحيث لم يقتصر على رواة الشعر وحده بل تحدث عن طبقات النحاة من البصريين والكوفيين مما لايتصل اتصالا كبيرا بقضية الانتحال وانما هو أقرب الى تاريخ العلوم وتدوينهـــا ، واذا كان هــذا التاريخ قد اكتمل بوضوح في هذه الايام بعد أن تعددت الرسائل الجامعية وتنوعت الدراسات الاكاديمية فان ماكتبه الرافعي عام ١٩١١ كان صيحة مفردة في صحراء مبهمة المعالم ولكنها لم تذهب هباء بل حددت كثيرا من أعلام الطريق ولا نغالي اذا قلنا أن ريادة مصطفى صادق الرافعي في هذا المجال قد هيأت الطريق لمن سلكـــوه من المستشرقين ثم لمن تصـــدروا الدراسات الجامعية عن كفاءة واخــلاص وفي طليعتهم الباحث العــلامة الدكتور أحمد أمين مؤرخ العقلية العربية في فجر الاسلام وضحاه وظهره على نحو كان مبعث الفخر والاعجاب بحيث شهد الرافعي رحمه الله لمـــا

ظهر في عهده من كتب أحمد أمين بالجودة والنضوج والاستبصار وهكذا أخذ الرافعي يتحدث في ايجاز لامح عن مدينتي البصرة والكوفة وعناية الخلفاء من بني أمية وبني العباس بالرواية والرواة وعن علوم هـؤلاء المجتهدين من النسابين والاخباريين حتى وصل الى الشعر فتحدث عن روايتة وما انصرف اليه الرواة من الاهتمام والتحري وعن طبقات رواة الشعر موضحا مزايا كل راوية على حدة ممن اشتهروا في هذا المجال وعن أولية العربية في البصرة والكوفة بحيث ينتهي الكتاب وقد خرج القارىء دارسا لأهم قضايا التاريخ الادبي للعرب وواضعا يده على مواضع اليقين ومواطن الشكوك ، فلم يكن كتاب الرافعي حامي القديم وناصر القدماء ترديدا لأقوال القدماء دون فحص ، ولكنه كان معاناة شاقة في يبـداء طامسة تتطلب الحذر والريبة حتييقتلها السالك خبرة بالدروب ،وفطنة للعواثير وكان عجبا كل العجب أن تكون أدلة المستشرقين ومن تابعهم من دارسي العرب في انتحال الشعر موضع انتباه الرافعي وموضع رده البصير لأن الفرق بينهم وبينه ، أنه تقدم الى تأريخ الادب العربي دون أن يعتنق رأيا معينا يتلمس له الادلة ، ويجوف الشبهـات ، ليضع يده عـلى شيء ولكنه تقدم للبحث خالي الذهن منكل المقررات ، فاعترضته شكوك وقف أمامها مخلصا غير مغرض ، ومحايدا غير متحيز ، فانجـلى له الحـق عن أشياء تلحق الشعر حينا وتتصل بالرواة حينا آخر ، وكان في طوقه أن يغمض العين عن بعض مااعترضه من الشبه ، ولكنه باحث ذو رسالة ، صابر وثابر حتى عرف وجه الحق فيما تصدر له من بحوث ، عرف الحق في قضية الانتحال ، فحصرها في نطاقها المحدود ، وعرف الحـق في رواة الشعر فأدان قوما وبرأ قوما آخرين ، وفرض على قارئه أن يقرن كتابه بما جاء بعده من الكتب ، فيجده ردا منطقيا سبق زمنه الطبيعي ، حيث خطه مؤلفه دون أن يعلم ماسيفاجئه به الغد من ادعاء يقوم على شكوك عرف هو حقيقتها ولم يكتمها عن الناس ٠

ولعنا بعد أن أوضحنا رأي ابن سلام في قضية الانتحال ، وهو الناقد

القديم الذي بسط القضية دون التواء ثم ألمنا بخلاصة كــلام الرافعي وهو نصير القدماء في عهد التجديد والمجددين ، لعلنا بعد أن أوضحنــا حديث الاديبين الكبيرين نستقبل ماجاء بعدهما من الشكوك لنرى أكانت جديدة حقا ؟ أم هي بعض ماتناولاه في حيدة واخلاص عاريا عن التجويف المغرض ، والادعاء العريض ٠

دعوى الاستشراق

يحار الانسان فيما يصنع أمام المغرضين من ذوي الاستشراق ، فاننا نجد نفرا منهم يدعون البحث في مسائل الادب ليتجهوا بها الى الاسلام ، وقد يكون الموضوع الادبي بعيدا كل البعد عن شيء يتصل بأصول الاسلام ولكن احتيال هؤلاء يدفعهم الى الخوض في شبه مريضة تلصق بالاسلام الصاقا مقصودا ، ومن الغرائب أن تستمع الى داعي النصفة في نفسك فتنهض مخلصا الى تبديد الشبه الآفكه فترمي أنت بالتعصب ، وينقلب الامر الى صورة مضحكة حين تجد الطاعن في دينك دون مبرر منصفا عند نفسه ، وأنت عنده متعصب لأنك تريه وجه الحق •

مازلت أذكر حملات أذنابهم على أستاذنا العالم الحجة الامام الأكبر محمد الخضر حسين رضى الله عنه لأنه هاجم مفتريات مرجليوث ودفعها بالحجة والدليل ، ولم يتورع هؤلاء أن يكتبوا عنه يوم انتقل الى جوار ربه أنه كان جامدا متعصبا يقف في وجه البحث الطليق وشيخنا الخضر رأى مستشرقا يهاجم القرآن بالباطل فأراه وجه الحق بالدليل فهو عندهم جامد متعصب ، أما المهاجم الحاقد فحر بحاثه ضليع •

واذا كان الشك في بعض مانسب الى الجاهليين مما ردده الباحثون في القديم والحديث من نقاد المسلمين كما أسلفنا شواهد ذلك فيما سبق من الحديث فان عوامل هذا الشك قد صارت لدى بعض المغرضين عوامل شك في القرآن نفسه ، وكان الشعر الجاهلي مشجبهم الذى يعلقون عليه مفترياتهم الرخيصة ، ونحن نجد البذرة الاولى لدى مستشرق متقدم ، يقذف بها في باطن الارض عالما أن من تلاميذه من سيأتي ليتعهدها بالري

وليمد لها في أساليب النماء ثم يقفوه ثالث تكون مهمته اقتطاف الثمرة المريضة وتصديرها للناس ، واذا كنا نحكم على هؤلاء بالغرض الفاضح فان نفرا من أحرارهم قد عرفوا حدود البحث النزيه فالتزموها وقاموا بالرد على من يجعلون بحوث الادب مزالق للتبشير ، وهؤلاء الاحرار في موضع الاحترام من نفوس المنصفين ، ولكن يكون أمرنا معهم كما قال المتنبي :

وجرم جره سفهاء قوم فحل بغير جارمه العقاب

بل الحيدة الحيدة ، والانصاف الانصاف ٠

ويطول البحث حتى لتضيق به الصفحات اذا أردنا أن نتابع بذرة الشكوك مرحلة مرحلة فلذلك كتاب برأسه يكشف ماستكن في السراديب المظلمة من عقارب قاتلة ، ولكننا سنحاول هنا أن نكسر الكلام على الشعر الجاهلي وحده دون ما ينطوي خلفه من حيل تبشيرية لها موضع آخر في غير هذا المجال ، اذ نؤثر أن نحصر قضية الشك في هذا الشعر في أضيق نطاق ممكن ، حين نذكر تلخيصا مبدئيا لتاريخ هذه الشكوك ننقله ببعض التصرف عن الدكتور (ريجيس بلاشير) في الجزء الاول من كتابه تاريخ الادب العربي اذ لخص تاريخ الشك الاستشراقي في الشعر الجاهلي تلخيصا مناسبا فقال (١)

(ان البحث عن صحة الشعر الجاهلي قديم قدم الشعر نفسه ، ولا يزال يستأثر في عصرنا هذا كما في الماضى باهتمام العرب ، وقد جهد علماء العراق أثناء أدوار التدوين في التنقيب عن صحة هذا الشعر ، ففي القرن الثالث للهجرة اعترف بعض العلماء بعجزهم في هذا السبيل ، حتى اذا جاء القرن التاسع عشر للميلاد ، عاود العلماء المشارقة

---

(١) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) بلا شير ترجمة ابراهيم كيلاني ص ١٧٦ ط دار الفكر

والمستشرقون البحث ، ويظهر من تباين المواقف التي وقفوها ازاء الموضوع الى أي حد كانت الحلول المقترحة ذاتية وجديرة بالنقاش ٠

وفي عام ١٨٦٤ تناول المستشرق نولدكه أول مرة الموضوع بمجموعه مشيرا الى الشكوك التي يثيرها مظهر الشعر الجاهلي ، وبعد ثماني سنين تناول المستشرق آهلوا رد المسألة بدوره دون أي تجديد فيها ، وعرضها بدقة لم يتوصل اليها سلفه ، فبعد أن أعاد للاذهان باختصار الشروط القيمة التي انتشر بها الشعر الجاهلي قبل التدوين وضع المستشرق المذكور المبدأ الآتي :

ان القصائد المروية غير موثوق بصحتها ، من ناحية المؤلف أوظروف النظم وترتيب الابيات ، فمن الواجب اخضاع كل أثر من القرن السادس أو القرن السابع لفحص دقيق قبل قبوله ، فهل لدينا معطيات موثوقة تجيز لنا اجراء هذا البحث ؟ يقول آهلوا رد بالايجاب لوثوقه بالنقد الادبي الذي يمتاز عن نقد علماء العراق ، ولا شك أنه لايمكن الوصول الى درجة الوثوق التام ، واذا استطعنا في بعض الحالات تمييز الصحيح من الموضوع ، ففي حالات أخرى يجب الاذعان للجهل ، ويكفينا للحصول على البرهان أن ننخل دواوين الشعراء الجاهليين الستة ، فتكون النتيجة كما يأتي ان عددا من القصائد صحيح ، ولكن الشك يدوم فيما يعود الى ترتيب الابيات ، وشكل كل واحد منها ، أما بقية الآثار فان الشك فيها محتوم لامناص منه ٠

وتابع العلماء أمثال موير ، وباسيه ، وليال ، (١)وبروكلمان طوال ثلاثين سنة المستشرقين نولدكه وآهلوارد في موقفهما الحذر ، على أنا نلحظ عند ليال ، شكا متصاعدا في قيمة المعطيات الاخبارية ومن ثم في

---

(١) ليال كان من المدافعين عن الشعر الجاهلي كما سيجيء فيما بعد فكيف عده بلا شيء مع معارضيه ؟!

أهمية النصوص المعترف بجاهليتها ، ويظهر الموقف ذاته حوالي عام ١٩٠٤ عند كليمان هوار وظلت الحالة على ماهي عليه الى اليوم الذي هبت فيه عاصفة هوجاء من انجلترا ، عكرت صفاء هذه البحيرة فقد أعاد المستشرق مرجليوث البحث عن قضية الشعر الجاهلي بكتاب نشره عام ١٩٢٥ عنوانه (منشأ الشعر العربي) فبعد أن ذكر مرغليوث وضع القرآن (تأمل هذا) وبالتالي موقف الاسلام من الشعر أشار الى تفاوت المعطيات التي أظهرها العلم العربي عن منشأ هذا الشعر ، وزاد على ذلك الافكار التي أوحتها رواية تلك الاخبار) •

واذن فهناك بذرة وضعها نولدكه وتوالى على العناية بها آهلوارد ومور ، وباسيه وبروكلمان حتى جاء مرجليوث ليلقي ثمارها على الناس واذا كان كتاب مرجليوث السبب المباشر لتأليف كتاب الدكتور طه اذ تضمن كل البذور التي حاول الدكتور طه حسين أن يغرسها في أرض جديدة لتصبح أشجارا أخرى ، فاننا في هذا الصدد لابد أن نوجز أقوال مرجليوث دون خلل وأن نقرنها بآراء من ناواها من المستشرقين لنعرف كيف أتم صاحب الشعر الجاهلي سلسلة سابقيه حين أضاف بكتابه حلقة جديدة كانت أكثر الحلقات عنفا وأثرا في محيطنا العربي •

واذا كنت لاأقرأ الانجليزية لأرد مورد مرجليوث مباشرة دون حائل ثم لأنقل رأي من عارضه من زملائه المستشرقين فانني أعتمد على التلخيص الدقيق الذي قدمه الاستاذ الدكتور ناصر الدين الاسد في كتابه (مصادر الشعر الجاهلي) اذ كان موضع ارتياح من قرؤوه من عارفي الاصل المكتوب ، وقد أشاد به أستاذه الدكتور شوقي ضيف في كتابه (العصر الجاهلي) (١) بما يضمن له الصحة والصواب ، هذا الى أن الدكتور الاسد قد أسهم اسهاما جادا في توثيق الشعر الجاهلي اذ فتح الله

---

(١) تاريخ الادب العربي (العصر الجاهلي) ص ١٦٦ ط رابعة لشوقي ضيف

عليه بما كان موضـع السداد والتوفيـق ، على أن مقالة مرجليـوث قد اشتهرت في العالم العربي بمجرد صدور كتاب الدكتور طه لأن القائمين على النقد النزيه قد لمسوا بوضوح أثر الرجل في أستاذ الجـامعة أو رأوا من توافق الادلة ، واتحاد المنحي مايدل على أن صاحب كتاب الشعر الجاهلي قد احتذى مرجليوث في كل خطوة ، وقد كان الشيخ الاكبر محمد الخضر حسين أحرص هؤلاء على أن يدل على أثر مرجليوث في شكوك طه حسين ، فكان لايتعرض لتوهين أقوالـه الا ليذكـر بذورها الاولى ، وأذكـر أن الاستاذ محب الدين الخطيب صاحب مجلة الزهراء قد كلف الاستاذ محمود محمد الخضيري أن ينقل مقالة مرجليوث ليشهـدها قراء مجلته ، فقـام بتلخيصها بمجلة الزهراء (عدد ذي الحجة ١٣٤٦) المجلد الرابع ص ٦١٨ وما بعدها ، وقد قدم لها الاستاذ محب الدين الخطيب بقوله :

(هذه خلاصة الفصل الذي فتح للدكتور طه حسين الطريق الى كتابه (في الشعر الجاهلي) لأن موضوعهما واحد ، وغايتهما واحدة ، وتوارد الخواطر فيهما الى هذا الحد يكاد يكون مستحيـلا ، والـذي ذهب اليه الكاتبان ــ المستشرق والشرقي ــ فيه كثير من الحق ، وكثير من الباطل ، أما الحق فقد سبقهما الى بيانه رجال الادب في العصور الاسلامية الماضية وأما الباطل فقد ظن أصحابه أن له جولة ثم مالبثـوا أن رأوه آخـذا في الاضمحـلال)

أما خطوط مقالة مرجليوث فتوجز فيما يلي :

١ ــ ذكر الباحث أن في القـرآن سـورة تسمى الشعـراء ، وقـد أتهم المشركون محمدا بالشاعرية والكهـانة والجنـون مما يرجـح أن الالفاظ الثلاثة تقع على مدلول واحد ، وأن الشعراء في السورة هم الكهان الذين يدعون علم الغيب اذ ربما كان مما تبيحه لنا الشواهد القرآنية أنه كان قبل الاسلام بعض الكهان من العرب الذين يعرفون

باسم الشعراء وكانت لهم لغة غامضة مبهمة كما هو الشأن دائما في الوحي (١)

٢ ـ ان نشأة الشعر العربي غامضة قد اختلف فيها القدماء اختلافا متناقضا ، فبعضهم يروي شعرا ينسبه لآدم ، وبعضهم يروي شعرا يرتفع به الى عهد اسماعيل بن ابراهيم ، والرأي السائد يميل الى أن الشعر الجاهلي قد ثبت في صورته الراهنة قبيل ظهور الاسلام بأجيال قليلة ، حيث تعزى أولية القصائد الى المهلهل في بعض الروايات ، وقد كثر مقلدوه كثرة جعلتنا نجد كثيرا من الدواوين لكثير من الشعراء ، ولهم قصائد جمعت في مجموعات تدل على أن أصحابها كانوا مجتمعا أدبيا عالميا ، لم يصل الى مثله مجتمع الاغريق .

٣ ـ ولو فرض أن هذا الشعر الجاهلي حقيقي : فكيف حفظ ؟ اذا اتبعنا من يقول بالحفظ عن طريق الرواية ، فلا يمكن أن يتم ذلك الا عن طريق أناس متخصصين ، وليس لدينا مايدل على وجود هذا التخصص المحترف ، ثم ان الاعمال التي تخلدها هذه القصائد عادة هي انتصارات القبائل ، وتنافسها على القيادة والمجادة ، وقد جاء الاسلام ليمحو كل تنافس قبلي ، وليدعوا الى نسيان كل مايسبب الاثارة والهيجان ، فلا بد أن تمحي هذه القصائد فلا يتناقلها الرواة .

٤ ـ اذا أبطل الاسلام رواية هذا الشعر فلا بلا أن تكون الكتابة سبيل حفظه ، ووجود أدب جاهلي مكتوب يبدو مناقضا لما جاء في القرآن عن أمية العرب اذ يسأل أهل مكة فيقول (أم لكم كتاب فيه

---

(١) نذكر هنا أقوال مرجليوث دون الرد عليها لان ذلك مما سيتتابع في فصول الكتاب

تدرسون) سورة القلم آية ٣ ، ولم يكن للوثنيين كتاب مقروء ولو كتب الشعر الجاهلي لديهم لكتبوا سواه ، فالكتابة ممتنعة اذن ٠

٥ ـ ان مجرى التطور يوحي بالانتقال من السهل الى المقعد ، وأسلوب القرآن نثرى سهل وأسلوب الشعر يتطلب الوزن فلا بد أن يكون تاليا لأسلوب القرآن وأن يكون مانسب الى الجاهليين قد اخترع بعد نزول القرآن ثم عزى اليهم ٠

٦ ـ ان من يذكرونهم من رواة الشعر في القرنين الثاني والثالث من الهجرة أمثال حماد وجناد وخلف الاحمر وأبي عمرو بن العلاء ، والاصمعي وأبي عمرو الشيباني وابن اسحق قد حيكت حولهم التهم ، ورمى بعضهم بعضا بالانتحال ، ولم يكن أحدهم يوثق الآخر في شيء ، وقد نقبل أن بعضهم كانوا يشكون وينتقدون فلم يضعوا ولم ينحلوا ، ولكن بقي أن نسأل عن مصادرهم ، أين هي ؟ ورسالة الاسلام قد جبت كل أثر جاهلي ولم يكن الاسلام متسامحا مع الوثنية القديمة بل كان يناصبها العداء كل العداء فاذا كان شعراء الجاهلية هم ألسنة الوثنية الناطقةفمن هؤلاء الذينرووا أشعارهم وحفظوها في صدورهم الى عهود التدوين ؟

٧ ـ فيما نقرأ من الشعر المنسوب الى الجاهلية اشارات الى قصص ديني ورد في القرآن والى كلمات اسلامية مثل الحياة الدنيا والحساب والقيامة وبعض صفات الله ،ولكننا لانجد اشاراتالى آلهة الوثنيين ومعتقداتهم ، فلو كان الشعر الجاهلي صادق النسبة لكان مسجلا مايعتقدون ويعبدون ، ولكن أبياتا جاهلية تذكر من ألفاظ الاسلام مايدل على وضعها ، بل انهاتظهر شعراء الجاهلية ، وكأنهم موحدون متمسكون بالوحدانية ! ففي شعر عنترة نجد استخدام ألفاظ كالمحشر والركوع والسجود والجحيم حتى كأنه مسلم تقي ٠

٨ ـ ان اللغة العربية تدل على افتعال الشعر الجاهلي من ناحيتين ، ناحية الالفاظ نفسها وناحية اللهجات ، فقد كان الاختلاف صريحا بين اللغة الحميرية في الجنوب واللغة الحجازية والنجدية في الشمال ، ومن الصعب أن نتصور أنه كانت ثمة لغة مشتركة تختلف عن لغة النقوش ، وليس بين أيدينا دليل يشير الى أنه كان في جنوب بلاد العرب شعراء ، ومع ذلك فاذا كان ثمة شعراء فلا بد أنهم نظموا باحدى اللهجات العربية الجنوبية ، وقد كشفت النقوش الاثرية عن اختلاف اللهجات أيضا ، وما بأيدينا من الشعر الجاهلي لايدل على اختلاف في اللغات أو اللهجات ، وليس بين أيدينا مايجعلنا نفترض أن هناك لغة أدبية مشتركة وجدت قبل نزول القرآن ، ثم ينتهي مرجليوث الى قوله : وكما أن وجود الافكار الاسلامية في الآثار المقطوع بجاهليتها دليل على وضعها وزيفها فان استخدام لهجة جعلها القرآن لغة فصحى أمر يدعونا الى أن نشك فيها طويلا ويبدو أن المسلمين الذين جمعوا قصائد من جميع أنحاء شبه الجزيرة بلغة واحدة كان عملهم هذا متمشيا مع عملهم في جعل كثير من هؤلاء الشعراء ، بل أكثرهم يعبدون الله ولا يشركون به لأنهم يسحبون على الماضى ظواهر مايعتقدون في الحاضر ٠

٩ ـ ان اتفاق القصائد الجاهلية في التعرض الى موضوعات واحدة متكررة تبتدىء بالنسيب ثم تمضي الى وصف الرحلة وما يرون من مظاهر البادية ، هذا الاتفاق يدل على أن للوضع سبيلا مرتادا لايحوج الى كد ٠

١٠ ـ ان الشعر الاموي لم يكن يحاذي الجاهلي ، لأنه افتعل في هذا العصر ونسب الى الجاهلية فجاء مشابها لما يقول شعراء العصر الاموي ، واذا كانت الموسيقى من مستحدثات العصر الاموي فهي مفقودة منطقيا في العصر الجاهلي وما جاء من الشعر الجاهلي

ملتزما الوزن الموسيقي يؤكد بموسيقاه الجديدة أنه موضوع منحول واذا كانت الممالك الجاهليةالتي نعرفها عن طريق النقوش الاثرية ذات حضارة باسقة ، لم تترك شعرا يروى ، فهل نصدق أن الاعراب غير المتحضرين كان لهم شعر في مثل هذه الصورة المركبة كما يصدق ذلك القدماء من علماء المسلمين ؟

١١ ـ رأى مرجليوث بعد أن بذر كل هذه الشكوه أن يظهر في صورة المعتدل المطمئن فقال ان من الحكمة ألا نطلق حكما على مشكلة النظم العربي أيرجع الى عهد قريم جدا أم هو حادث بعد القرآن وكأن الافتراضين يتعادلان في الميزان ، وهو يعلم أن تلاميذه سيأتون من بعده ليفصحوا عن كل مايريد ٠

ونترك تفنيد آراء المستر مرجليوث هذه ، حتى يحين حديثنا عن كتاب الدكتور طه حسين ، لأنه قد اعتمد عليها دون أن يفرط في شيء منها ، فالرد على طه رد على مرجليوث ، وقد اعترف مؤلف الشعر الجاهلي في جوابه عن أسئلة النائب العام أنه يوافق بعض المستشرقين في بعض مايراه ، فهو اذن قد قرأ ما قالوه من لدن نولدكه الى مرجليوث ، وما كان لمثله أن يجهل ما قالوه ، ولكن من هؤلاء أنفسهم مندحضوا كلام مرجليوث وأظهروا وهنه ، فليت شعري لم سكت الدكتور طه عن مناقشتهم ؟ ولم لم يظهر خطأهم اذا اعتقد صواب مرجليوث ، وكيلا نعتسف الرأي دون دليل ، فاننا سنلخص ما رد به الاستاذ شارلس جيمس ليال على صاحبه بالجزء الثاني من المفضليات ص ١٦ حيث وجد المناسبة داعية لتوهين مادعاه بشأن الرواة خاصة اذ تشمل المفضليات قصائد كثيرة من الشعر الجاهلي الذي أتهم بالزيف وتلفيق الرواة ولا بد أن يرد لها اعتبارها الصحيح ٠

١ ـ بدأ ليال حديثه عن سابقات مرجليوث في هذه القضية حيث كانت شغله الشاغل منذ زمن بعيد اذ ألمع اليها في حديثه عن مادة محمد

(ص) في معلمة الدين والاخلاق ثم في كتابه (محمد وظهور الاسلام) المنشور عام ١٩٠٥ ، وما برح يحتشد ويستجمع حتى نشر شكوكه بمجلة الجمعية الملكية الآسيوية عام ١٩١٦ بعد أحد عشر عاما ، وهي المقالة التي واجهها شارلس جيمس ليال بالنقد في مقدمة المفضليات والتي نلخص عناصرها الآن ، ثم أعاد الكرة الاخيرة في مجلة الجمعية الآسيوية عام ١٩٢٥ تحت عنوان (أصول الشعر العربي) وذلك كله قبل أن ينشر الدكتور طه حسين كتابه ، ولم يشأ مرجليوث أن يعرج على نقد زميله ليال مع أنه نشره قبل بحثه الاخير بسبعة أعوام ، وهذا من المستغرب المنكر في دنيا البحث اذ أن من يتبنى قضية من القضايا في مدى متطاول يصل الى ربع قرن بحيث يعيد الحديث عنها مثنى وثلاث ورباع ، لابد أن يستمع الى آراء مناقشيه ، وأن يفندها بالحجة اذا لم توافق موضع قبوله ، أما أن يسكت عن معارض يريه وجهة معقولة في بعض مادعاه فهو اصرار عجيب ٠

٢ ــ تعرض ليال لتوضيح مكانة حماد الرواية فناقش ماعزى الى المفضل الضبي في تجريحه ، فذكر أن أبا الفرج الاصبهاني راوى الخبر قد نقله عن رواة ثلاثة متتابعين وقد يزيد أحدهم في روايته بعض مالم يقله المفضل ، على أن المفضل وحمادا كانا متعاصرين فاذا زاد حماد شيئا فسيناقش ويرد ، ولو سلمنا أن حمادا قدوضع شعرا على ألسنة الجاهليين فانه حينئذ سيحتذي شعرا جاهليا له ذيوعه وانتشاره ، فتكذيبه لايعصف بالشعر الجاهلي في شيء ولكنه يعصف بما تجرأ على زيادته حماد فحسب ٠

٣ ــ يأتي ليال بمخلص الحادثة التي تشير الى اجتماع حماد والمفضل عند المهدي في قصره بعيساباد وتوثيق المهدي للمفضل دون حماد ، فيعلن أن الواقع التاريخي ينفي ذلك لأن وفاة حماد كانت عام ١٥٥

وقد بنى المهدي قصره عام ١٥٨ ، ثم ان القصة تشير الى زيادة بيتين اثنين فقط ، فهل كان لهما من الخطورة مايدفع الى اسقاط حماد ٠

٤ ـ يتحدث ليال عن خلف الاحمر وما رمى به من الوضع فيذكر أنه مولى كحماد ، ولم يكونا وحدهما رواة الشعر حتى يزيدا فيه مالم يقل ، بل كانت هناك كثرة من رواة الاعراب لاتتزيد وعنها حمل الشعر الجاهلي ، واذا ثبتت زيادة بعض الابيات فلن تكون غير محاكاة للثابت الصحيح ٠

٥ ـ ان سلسلة الرواية لم تنقطع فقد كانت الطبقة الاخيرة من الرواة على قيد الحياة حين كان العلماء يدأبون في جمع الشعر وتدوينه ، وقد دأبوا على كتابة مايسمعون دون أن يكون حماد وخلف مصدرهما الوحيد ٠

هذا بعض مارد به ليال على مرجليوث ، وطبيعي أنه يرد على ماأذاعه قبل عام ١٩١٨ حين صدرت المفضليات بعنايته وتحقيقه ، ولو أتيح له أن يقرأ ماذكره عقب ذلك في عام ١٩٢٥ لصمد الى شكوكه دون نكول ، على أنه أعاد الحديث في قضية الانتحال مرة ثانية في مقدمة ديوان (عبيد بن الابرص) اذ قام بنشره وتحقيقه وأضاف الجديد في توثيق الشعر الجاهلى بما ينحصر في هذه النقاط :

١ ـ من الطبيعي أن يفترض المرء أن هذه القصائد الجاهلية قد اعتراها بعض التغيير حين تنوقلت على أفواه الرواة اذ من الممكن أن توضع كلمة مكان كلمة ، أو يغير ترتيب الابيات ، أو يسقط بعضها ويروى البعض الآخر ، وهي ظواهر تشيع في كل مكان ولكن ذلك لايدفعنا الى القول بانتحال هذه القصائد ، وارتفاع نسبتها الى أصحابها على أننا نجد فيها من الشخصية الفردية مايكفي للاستدلال على أن

القصائد في معظمها من نظم الشعراء الذين تنسب اليهم اذ تركت شخصيات امرىء القيس وزهير ولبيد والنـابغة والاعشى طابعهـا الخاص على ماينسب اليهم ومن جمـوح الخيـال الظن بأن معظم القصائد المعزوة اليهم مصنوعة في عصر متأخر صنعها علماء عاشوا في بيئة مغايرة ٠

٢ ـ ان شعر القرن الاول الهجري يتضمن وجـود هـذا الشعر الجاهلي ويفترض سبقه عليه فقداستمر الاخطل وجرير والفرزدقوأمثالهم يتبعون تقاليد الجاهليين دون أن تكون بينهم فجوة ، وقد ذكروهم في أشعارهم صراحة مما يدل على اقتناعهم بوجودهم ٠

٣ ـ ان الشعر الجاهلي القديم مملوء بألفاظ عدت غريبة على علمـاء العصر الاموي وماوليـه اذ كانت تنتمي الى مرحلة لغوية أقـدم من عصرهم ، وقد اختلف شراحهم في تفسيرها اختلافا واضحا ، فكيف تكون القصائد مصنوعة في عصرهم ٠

هذه وجهات جادة وضحها شارلس ليال بحيث تؤيد ماسبق أن أدلى به في مقدمة المفضليات لأن دفاعه هناك قد اقتصر على تحقيق ماجاء بشـأن الرواة فقط ، أما ماكتبه في مقدمة ديوان عبد بن الابرص فقد كان أوسع وأشمل وكان على من عارضوه صامتين أن يفصحوا عن وجه المعارضة ، أما أن يصروا على شبههم دون مراجعة فذلك مالا ندري مأتاه ٠ ٠

واذا كانت الجامعة المصرية قد رددت شبه مرجليوث وأتباعه عـلى لسان الدكتور طه حسين فان هذه الجامعـة قد تعرضت لدحض هـذا الشبه قبل أن ينافح عنها الدكتور طه حسين بأكثر من سبع سنوات ، حين أخذ الدكتور أحمد ضيف يلقي على الطلاب محاضراته التي جمعهـا في كتابه (مقدمة لدراسة بلاغة العرب) المطبوع بمطبعة السفور بالقاهرة عام ١٩٢١ حيث كتب فصلا قيما عن الشعر الجاهلي أتى فيه بايجاز على

شبه المتشككين في نسبة هذا الشعر من ذوي الاستشراق ورد هذا الشبه في منطق محايد لايعرف الصخب المدوي ثم انتهى الى قوله (١)

(ان من المستحيل أن تكون كل هذه الاشعار أو أكثرها مختـــرعة أو منسوبة الى غير قائلها بدون سبب ولا داع الى ذلك ، واذا كذب الرواة أو دسوا على بعض الشعراء شيئا فان ذلـك لايمكن أن يصـــل الى مقدار مانعرفه من الشعر الجاهلي وكيف يمكن اختراع هذا الشعر الكثير ، وبه من العبارات والاساليب مايدل على أنه بدوي صرف ، وأي انسان يمكنه أن يحصل على هذه القدرة ليشغل وقته بذلك ، وينسبه الى غيره ، وكان أولى به أن يذكره لنفسه ليفخر به ، وأي فائدة لأي معتوه أن يتعب في التأليف ويقول : هو لفلان ، أنرمى كل الرواة وعلمـــاء اللغة والادب بالكذب أو نتهمهم بعدم الثقة لأن حمادا وغيره كذب مرة أو مرتين ، وهل يصح أن نحكم على البلد أجمع بالمرض لأن بها انسانا مريضا)

هذه خلاصة الشكوك التي صاغ منها مرجليوث أدلته الجريئة وكان لابد أن نحيط بها ، لنرى كيف اتكأ عليها الدكتور طه حسين ثم امتد بها الى حيث كانت مثار معركة نقدية ذات جلبة وضجيج ٠

(١) مقدمة لدراسة بلاغة العربي ص (٦١) للدكتور احمد ضيف ط ١٩٢١ م

منهـــج البحث

قبل أن يعالج الدكتور طه قضية الانتحال ، مهد للحديث بذكـــره منهجه الذي يحتذيه ، فقال مانصه (١) ٠٠ (أحب أن أكون واضحا جليا وأن أقول للناس ماأريد أن أقـــول دون أن أضطرهم الى أن يتأولـــوا ويتحملوا ، ويذهبوا مذاهب مختلفة في النقد والتفسير ، والكشف عن الاغراض التي أرمي اليها ، أريد أن أريح الناس من هذا اللون من ألوان التعب ، وأن أريح نفسي من الرد والدفع والمنـــاقشة فيما لايحتـــاج الى مناقشة ، أريد أن أقول اني سأسلك في هذا النحـــو من البحث مسلـــك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة أريد أن أصطنع في الادب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكـــارت للبحث عن حقائق الاشياء في أول هذا العصر الحديث ، والناس جميعـــا يعلمون أن القاعدة الاساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما ، والناس يعلمون أن هذا المنهـــج الـــذي سخط عليه أنصار القديم في الدين والفلسفة يوم ظهر ، قد كان من أخصب المناهج وأقواها وأحسنها أثرا وأنه قد جدد في العلم والفلسفة تجديدا ، وأنـــه قد غير مذاهب الادباء في أدبهم ، والفنانين في فنونهم ، وأنه هو الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث)

هذا اعلان عن المنهج الذي يرتضيه الدكتور طه حسين ، ونلاحظ قبل كل شيء أن المؤلف لم يذكر شيئا ذا بال عن منهجه المرتضى ، فكـــل ماقال عنه أن القاعدة الاساسية له أن يتجرد الباحث من كل شيء كان

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ٦٧

يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما ، وهذا الشيء القصير المبتسر الذي حدد به الدكتور منهج ديكارت لايضيف شيئا الى مايعرفه بفطرته كل انسان ، فأي رجل عادي اذا حكمته في موضوع ما ، وكان بعيدا عن الغرض الشخصي استمع الى قولك في حيدة ثم الى قول غريمك فيحيدة ، ثم أصدر رأيهبعد أن يطمئن الى سلامته دون تأثر بفكرة معينة مادام بعيدا عن الغرض ، فاذا كان كل مايقال عن منهج ديكارت أنه يوجب أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه ، فالرجل حينئذ لم يأت بمنهج وانما هو عاقل طبيعي وافق ملايين العقلاء دون امتياز حيث أتى بما تأتي به الفطرة الانسانية البسيطة ، الفطرة الانسانية التي لم تتخمها ثقافة ولم تعمقها قوانين المنطق وقضايا الجدل والمناظرة ، ثم ان الدكتور قد خانه التعبير في قوله (أن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما) لأن الباحث في مسائل العلم والادب والفلسفة لا يتجه الى موضوع ما ليبحثه الا اذا شغله ولأى فيه عددا من الثغرات يجب أن تملأ ، ووجوها من الرأي يجب أن تصحح ، فكيف يكون خالي الذهن خلوا تاما مما قيل فيه ، وهو لم يعمد اليه الا ليعدل فيما قيل ، أكان الدكتور قبل بحثه خالي الذهن تماما لايعرف شيئا عن زهير وامرئ القيس وقبائل العرب ولهجاتهم وأغراض القرآن ثم عن له أن يبحث عن كل ذلك وهو خالي الذهن عنه خلوا تاما ، أم أنه عرف الكثير عن هؤلاء الاشخاص وهذه الموضوعات ثم رأى فيما عرفه مالايوافق على صحته فتقدم غير خالي الذهن ليبحث ويناقش ، كأني بالدكتور يريد أن يقول عن الباحث ، انه يجب أن يتجرد من الغرض تجردا تاما فيما سيعالج من البحث ، فقال في تسرع (يجب أن يستقبل بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما) ، واذا خلا الذهن مما قيل فلا تصويب ولا تصحيح ، وأين اذن مكان المعارضة أو موضع التأييد ٠

هذه مقدمة أعقب بها على الدكتور قبل أن أتجه الى توضيح ماقاله

معارضوه والحق أن المتتبع لكل ماقيل بصدد المنهج الذي اختارهالدكتور لبحثه يرى من تعدد المزايا العقلية ، واختلاف الخواطر النفسية ، وتشعب المناحي الجدلية ما يدل على أن الانسانية تزخر بأشياء ثمينة في مجال التفكير ، لأن هؤلاء الاعلام حين يتصدرون لمناقشة مسألة معينة من المسائل ثم يأتي كل ناقد بما لم يتح لسواه ، وهم جميعا متفقون على غاية واحدة ، ان هؤلاء الذين تختلف اتجاهات خواطرهم ومناحي تفكيرهم مع وحدة الهدف ليدلون على أن العقل البشري يحتاج في كل مسألة من المسائل الى تجمع وتعاون لتتضح الوجهات المتشعبة في كل مسألة مهما كانت محدودة في حيز صغير ، لقد أدلى كل ناقد بدلوه في الدلاء فأتى بخير كثير ٠

تعرض الاستاذ محمد لطفي جمعة في مناقشة هذا المنهج الى الحديث عن النقد الفرنسى في عهد النهضة ليذكر طائفة من أعلامه محددا مناحي اتجاهاتهم النقدية حتى اذا خلص الى ديكارت الذي تترس به الدكتور طه حسين ، ذكر في وضوح (١) أنه (لم يكن أديبا ولا ناقدا ولا فنانا ولا شاعرا ، بل كان عالما رياضيا طبيعيا ، ولم يضع قاعدة للانتقاد الادبي ولكن فلسفته تسربت الى الادب ، وكان مذهبه يقتضى التجرد من كل المعلومات السابقة والبناء من جديد (ليلاحظ القاريء أن التجرد من المعلومات بعد معرفتها شيء وما يقوله الدكتور عن خلو الذهن شيء آخر) وكان يبدأ بالشك في الوجود ثم انتهى لليقين لقوله (ان آلة الشك هي الفكر ، فالفكر اذن موجود ، والمفكر موجود ، أنا أفكر اذن فأنا موجود) وخلاصة فلسفته التي تسربت الى الادب هي الاهتمام بالافكار دون الصياغة اللفظية فجعل للفكر المنزلة الاولى ٠

ثم مضى الاستاذ محمد لطفي جمعة يتحدث عن تيارات النقد الادبي

---

(١) الشهاب الراصد للأستاذ محمد لطفي جمعه ص ١٢

في فرنسا ليضع ديكارت موضعه الصحيح موضحا مدى أثره ومركزا على نقطة هامة هي أن الدكتور طه حسن قد اختار ديكارت لظنه أن هـذا المفكر كان مشغوفا بالشك لذاته ، لا باعتباره أول وسائل اليقين ، مع أن ديكارت يقدم الشك لينتهي منه الى مالا شك فيه ، وهـذا ماأوضحه مؤلف الشهاب الراصد حين قال (١)

(ان الشك المطلق الذي يمجده مؤلف الشعر الجاهلي ويتلـذذ به وبما يورثه من اضطراب وقلق لايمكن أن يكون وسيلة دائمة لتفكـير الحكيم ، بل يجوز أن يكون الشك سلما للوصول الى حكم تعييني ، كما كانت حال ديكارت ، لأن غاية كل عالـم ومفـكر وباحث هي الوصـول للحقيقة ، والحقيقة لاتظهر الا في ثوب اليقين ، فالحكيم الصادق لايمكن أن يتلذذ بالشك الدائم ، لأن الشك حالة سلبيـة ، والعقـل السليـم لايستقر الا على حال ايجابية ولو كانت جحودا أو انكارا مطلقا لرأي من الآراء ، لأن الجحود هو كاليقين المطلق حالة ايجابية بالنسبه للشك)

واذن فقد نادى ديكارت بالشك فشك ، وبحث حتى تيقن ، ولكن الدكتور طه أعلن أنه يطبق مبدأ ديكارت فشك ثم نص على أنه انتهى الى شك ، فهو عن اتجاه صاحبه بعيد ٠

أما الاستاذ محمد الخضر حسين فقد تناول الرد من ناحية أخرى فقال في وضوح (٢)

(اذا كان منهج ديكارت يرجع الى أن الشك أساس الفلسفة وتعرف الحقائق ، وألا يسلم بشيء الا بعد أن يفحصه العقل ، فان هذا المنهج ليس بالغريب عند علماء الشرق ، فالذين يدخلون في المباحث النظرية

---

(١) الشهاب الراصد ص ١٨

(٢) نقض الشعر الجاهلي ص ٢٦ للأستاذ الخضر حسين

لايستعملون الا عقولهم غير قليل ، وممن صرح بهذا المسلك أبو حامد الغزالي حيث قال في المنقذ من الضلال (ان اختلاف الخلق في الاديان والملل ، ثم اختلاف الامة في المذاهب ، وكثرة الفرق ، بحر عميق غرق فيه الاكثرون ، ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ الى الآن وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة هذا البحر ، وأتفحص عقيدة كل فرقة وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محل ومبطل ومستن ومبتدع .. وقد كان العطش الى درك الحقائق دأبي وديدني حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت عني العقائد الموروثة)

ثم ثنى الاستاذ بنقول عن ابن خلدون في المقدمة تدعو الى حسن النظر والتثبت من العقل ومناقشة الاخبار المنقولة في ضوء قواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ، وقياس الغائب بالشاهد ، والحاضر بالذاهب ، مع التحذير من الاحتطاب والجمع دون مناقشة ، وتعليل المتفق من الأحداث والمختلف وما يفرضه اختلاف الامم والبقاع والامصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب .

وينتهي الاستاذ الى أثر القرآن الكريم في حرية البحث وانطلاقة الفكر فيقول (١)

(ولابدع أن ينبت الشرق رجالا لايستقبلون المطالب العلمية الا بعقولهم ، فان من يتلو القرآن ولو بغير تدبر ، يعرف أن مقاصد الاسلام بعث العقول من مراقد الخمول ، وتحريرها من أسر التقليد فتراه يدعو بالبرهان ، وبيان الحكمة غير مقتصر على الموعظة والمعجزات المشهودة .. والآيات المتضافرة في هذا المعنى قد نفخت في العقول روح التفكير ، وانطلقت بها تخوض في كل علم ، وتبحث في كل واقعة ،

---

(١) نقض الشعر الجاهلي ص ٢٧

فالمذهب الذي يرى للباحث أن يستقبل موضوعه خالي الذهن مما قيل فيه لايسخط عليه رجال الدين الذي كان بالعقل حفيا وانما مما قيل من يحسب أن تصور هذا المذهب يكفي وسيلة الى التهجم على كل علم فيمشي في غير سبيل ، ويدلج بغير دليل ثم يزعم بملء فمه أنه أحاط بما لم يحط به أحد قبله)

وقد ظهر كتاب الاستاذ محمد الخضر حسين في الوقت الذي ظهر فيه كتاب الاستاذ محمد فريد وجدي بحيث لم يطلع أحدهما على ماكتب الآخر ، فكان اتفاقهما في كثير من الاراء اتفاق العقل الذي يلتزم الجادة وينأى عن الشطط والاسراف ، أما الاستاذان محمد لطفي جمعة ومحمد أحمد الغمراوي فقد نشرا فصولا من كتابيهما في الجرائد اليومية عند ظهور الكتاب المنقود مباشرة ، ومعنى ذلك أن الفرصة كانت أمامهما واسعة عند صدور الكتابين للتعديل والتنقيح والاستفادة مما أتخمت به الجرائد من فصول ، أقول ذلك لأن توارد الخواطر بين الاستاذ الخضر حسين والاستاذ محمد فريد وجدي في نقاط كثيرة يؤيد اتفاق الخط الواحد لدى السالكين تحت رايةالقرآن ، ويدل على أنالمشاعر الوجدانية تؤاخي المنازع التفكيرية تمامالدى هذاالفريق الجاد ، وليستمعالقاريء الى ماذكره الاستاذ محمد فريد وجدي في رده على تشبث صاحب الشعر الجاهلي بمذهب ديكارت حيث قال (١) :

(ان كلام الدكتور (عن حرية الفكر) ثمين ، ولا أغالي ان قلت أنه أعرق في الاسلام من كل كلام قرأته قبل هذا ، ولا يعيبه الا شيء واحد ، هو أنه مفرغ في قالب الخروج على الجماعة على حين أنه مذهب القرآن الذي هو دستور هذه الجماعة ٠٠ لقد أصبح يعز على المعاصرين أن يجعلوا للدين أو مايتصل بالدين سلطانا على مناهجهم العلمية ،

(١) نقد كتاب في الشعر الجاهلي للأستاذ فريد وجدى ص ١١

وأضحى من لايكون على أقصى حد من حدود الحرية الفكرية غير جدير بالثقة لتقيده بآراء يعدها مقدسة ، ويحاول أن يخضع كل حقيقة لسلطانها ، ونحن نعذرهم في هذا الشعور لأنهم لايعرفون الاسلام ولا يدرون أنه سن منهاجا للبحث عن الحقائق ليس وراءه مرمى ، فان كان المانع الأنفة من الاتباع ، فالاتباع حاصل لديكارت ، فهل من مرجح للأنفة من اتباع محمد (ص) وعدم الانفة من اتباع ديكارت وهل فرق في التبعية بين أن يقول : هذا قرآني وهذا ديكارتي ٠

أما أنا فلا أجد محلا للأنفة من اتباع المذاهب الاصلاحية على الاطلاق وان كنت أجد فرقا بين الاعلان بتبعيتي لمذهب ديكارت ، وبتبعيتي لمذهب القرآن ، وهذا الفرق هو أن ديكارت رجل فرنسى ليس بيني وبينه أية علاقة من جنس أو لغة أو صلةمن أي نوع كانت ، وأما القرآن فهو كتاب الامة التي أنا منها ، وبيني وبينه كل أنواع الصلات المعنوية التي تربط الانسان بشيء من الاشياء ، وقد سبق ديكارت بعشرة قرون وأسلوبه أدق من أسلوبه وأجمع لوجوه الاحتياط منه)

واذا كان الاستاذ محمد الخضر حسين ذكر سبق الغزالي في (المنقذ من الضلال) لديكارت وأتباعه فان الاستاذ مصطفى صادق الرافعي قد ذكر في كتابه (تحت راية القرآن) ما نصه :

(للكاتب الفرنسى شارل سومان مقال أثبت فيه أن ديكارت قد أخذ المباديء التي بنى عليها مذهبه من الامام الغزالي ، وقابل الكاتب بين ما في كتاب المنقذ من الضلال للغزالي ومافيرسالة الاسلوب والتأملات لديكارت ، وتكاد العبارات تكون واحدة ، والغزالي قبل ديكارت بخمسة قرون ونيف (١)) وكأني بالاستاذ أحمد أمين قد فطن لذلك حين نشر

---

(١) تحت راية القرآن للرافعي ص ٢٥١ ط أولى

في الجزء السابع من فيض الخاطر (١) نصوصا من كتاب المنقذ للغزالي مع نصوص من كتاب ديكارت حول الشك العلمي ليدل على أن الثاني يمتح من بئر الاول ، أو لايفضله على أقل تقدير ، ففيم المباهاة بما قال؟ وكأنه مستحدث وظريف ؟

أما الاستاذ محمد أحمد الغمراوي فقد برز في تجلية معنى الشك عند ديكارت بما لم يسبقه سابق ، لأن تحليله العلمي قد سلط الشعاع على كل متعرج يلتوي فأزال قتاما كثيرا ، وقد وافق زملاءه في بعض ما قال ، وسبق في البعض الآخر الى قفزات واثبة حقا ، فمما وافق فيه الاستاذ محمد لطفي جمعه مضمونا لا متابعة قوله (٢)

(أما أن ديكارت كان يشك وكان يغلو في الشك ، فهذا مالاننكره ، ومالا نجادل صاحب الكتاب فيه ، ولكننا ننكر أن يكون شكه ذلك أكبر من أن يخضع في العلم لما يخضع له كل شك من القيود وننكر أن تكون مكانة ديكارت العلمية راجعة الى أنه يشك ، أو كان يغلو في الشك ، فان الشك موجود على الارض منذ وجد العقل ، وليس الغلو في الشك في ذاته بمحمدة ، فيذكرها العلم والتاريخ لأحد ، لا ، لم تكن عظمة ديكارت راجعة الى أنه شك ، ولكن الى أنه تطلب مخرجا من الشك ، واهتدى الى طريقة في البحث وخرج بها الى بحبوحة اليقين ، ثم ترجع الى أنه طبق تلك الطريقة في نواح مختلفة فأثمرت معه ثمرا حسنا في بعض النواحي ولم تثمر معه في بعض ، أثمرت في الرياضة ولم تثمر في الفلسفة والطبيعة الا قليلا)

ومما انفرد به الغمراوي قوله عن مسألة اهمال القديم والشك فيه قوله (٣)

---

(١) فيض الخاطر ج٧ ص (٧٤ ـ ٨٤) ط اولى ١٩٤٧
(٢) النقد التحليلي للأستاذ الغمراوى ص ١١٥
(٣) النقد التحليلي للأستاذ الغمراوى ص ١١٣

(لو كان كل باحث حديث يهمل نتائج أبحاث غيره ، ويستقبل بحثه خلوا من كل ماقيل فيه مما يتعلق به ، بالمعنى الذي يقول صاحب الكتاب ان ديكارت يعنيه ، توقف العلم عن التقدم بل لما كان هناك علم منظم محدود ، تصور أن كل باحث في علم ما ، في الطبيعة أو الكيمياء مثلا ، شك في كل من عداه من العلماء ، شك كما شك الدكتور طه في أمانة القادرين ، وفي مقدرة الامناء ، وشك طبعا في النتائج التي وصلوا اليها وتصور أن الشك ألح عليه كما ألح على الدكتور ، وأنه أخذ بمنهج ديكارت ذلك ، وطفق يعيد تلك الابحاث من جديد ، قل لي : هل يتسع عمره لهذه الابحاث كلها أو لأغلبها ، وهي قد استنفدت أعمار الاجيال من قبله ، أم هل يستطيع كل متشكك أن يعبد الصعب من أبحاث من عداه من العلماء ؟ ان التفرغ لفرع ما من علم يكسب المتفرغ مقدرة خاصة في ذلك الفرع غير المقدرة الخاصة التي يكتسبها شخص آخر ، تفرغ لفرع آخر ، وان شئت فقل لموضوع آخر .. فهل من الممكن أن تنشأ تلك المقدرات الخاصة في كل باحث شكاك حين يريد ، أم هل من الممكن أن تجتمع كلها لانسان واحد ، طبيعيا كان أو كيماويا أو لغويا ؟)

ثم قال الاستاذ الغمراوي ص ١١٦

وعلى أن ديكارت حين أخذ الشك يساوره كان غلاما ناشئا يتربى في احدى كليات الجزويت ، وكان حين غلا في الشك فأطرح كل شيء ، وشك في كل شيء مما تلقاه في تلك الكلية شابا لم يكد يتجاوز العشرين ، ولم يكد يغادر باب الكلية الى ميدان الحياة ، فشكه في ذلك كان شك الفتى الغرير لا العالم الخبير ، ومن الظلم أن يحتج به أو نشتد في محاسبة صاحبه ، غير أنه لم يكن يكن هناك بد بالطبع من أن تتفرع حياة ديكارت الكهل عن حياة ديكارت الشاب وأن يكون في تلك الرسالة الصغيرة التي أخرجها للناس حوالي الاربعين صدى للشك الذي استحوذ عليه حوالي العشرين ، والذي أدى الى تلك الطريقة المعروفة بطريقة ديكارت ،

ولكن الدكتور طه خلط بين الشك وبين المخرج من الشك فجعل الشك القاعدة الاساسية للمنهج الذي ابتغى ديكارت أن يتخلص به من الشك)

ثم بعد أن ذكر الدكتور طه تمسكه بمذهب ديكارت ، وأيده بما يملك من بيان نجده غلا غلوا عجيبا حين استفز أحاسيس الناس استفزازا لا منطق له في مضمار البحث العلمي ، الا أن تكون الاثارة وحدها ميدان التفوق وسر الامتياز ، فقد اندفع الى تحدي العواطف المخلصة حين قال في عناد (١)

(يجب حين نستقبل البحث عن الادب العربي وتاريخه أن ننسى عواطفنا القومية ، وكل مشخصاتها وأن ننسى عواطفنا الدينية ، وكل مايتصل بها ، وأن ننسى مايضاد هذه العواطف القومية والدينية يجب ألا نتقيد بشيء ، ولا نذعن لشيء الا مناهج البحث العلمي الصحيح ، ذلك أنا اذا لم ننس هذه العواطف وما يتصل بها ، سنضطر الى المحاباة وارضاء العواطف ، وسنغل عقولنا بما يلائمها ، وهل فعل القدماء غير هذا ؟ وهل أفسد علم القدماء شيء غير هذا ؟ كان القدماء عربا يتعصبون للعرب ، أو كانوا عجما يتعصبون على العرب ، فلم يبرأ علمهم من الفساد ، لأن المتعصبين للعرب غلوا في تمجيدهم واكبارهم فأسرفوا على أنفسهم وعلى العلم ، ولأن المتعصبين على العرب غلوا في تحقيرهم واصغارهم فأسرفوا على أنفسهم وعلى العلم أيضا)

وقد كان الدكتور في مأمن من أن يتورط في مثل هذه الاساءة الواضحة لعواطف قارئيه وسامعيه فلو أراد أن يبحث في هدوء العالم فعليه أن يبحث دون ضجيج ، ليس لمن على شاكلته أن يتقيد بعواطف قومه الدينية ، مادام قد فقد الحرص على هذه العواطف بينه وبين نفسه

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ٦٨

فعليه أن يبحث ويمضي في طريقه وسيكبو فتصحح أخطاؤه وتنقد عثراته أما الحرص على اذاعة أنه لا يتقيد بعواطف قومه الدينية فمعناه أن هذه العواطف لاتنحو نحوا صائبا ، وقل في أثر هذا اللغو في نفوس طلاب الجامعة ، ماذا عسى أن يظنوا بهذه العواطف وهم يرون أستاذهم يحتقرها دون مبرر ، وليس فيهم من يستطيع أن يرد عليه وهم في أول الطريق ، ان التعالي بهذه الاستفزازات صخب يبرأ منه العلم النزيه ، ولو تقيد الرجل بحرية البحث حقا لولج الى الصميم في موضوعه دون تحد واستفزاز .

ولم يسكت معارضوه عن استفزازه ، فكلهم قد كشف عن عواره الواضح ، فيهم من احتدت عاطفته فسب واشتط ، وفيهم من كبت مشاعره فواجه الضجيج بالمنطق والصياح بالتؤدة كالاستاذ محمد لطفي جمعة حين احتكم الى علم النفس فيما يقوله المؤلف فقال في تعجب (١) :

(وهذا من أعجب الامور ، لأنه بعد التجرد من الشخصية والقومية والعواطف الموروثة فماذا يبقى من العقل ، هل قال أحد علماء النفس ان العقل أداة ميكانيكية مستقلة عن القلب والنفس والشعور ، وهل العقل الا ثمرة الخلق والفطنة والاحساس) .

أما الرد المنطقي الصائب في وضوحه وقوته فهو ماذكره الاستاذ الغمراوي حين قال تحت عنوان (التدين الصحيح والبحث) مانصه (٢)

(انه ذهب الى أن نسيان القومية والدين شرط أساسي من شروط البحث العلمي ، فان كان أراد بذلك أن على الباحث ألا يخفي بعض الحق أو يتراخى في استيفاء الدليل العلمي محاباة لقومه أو ارضاء

---

(١) الشهاب الراصد ص ٢٨
(٢) النقد التحليلي

لعاطفته الدينية فقد أصاب ، أما اذا أراد أن الانسان لايستطيع أن يكون ذا عاطفة قومية أو دينية قوية من غير أن يحابي أو يداجي في العلم فقد أخطأ ولم يصب لأن الانسان يستطيع أن يراعي الدقة العلمية التامة في البحث وهو متذكر دينه كل التذكر ، ومعتقد صحته كل الاعتقاد ، بل ان التدين الصحيح يزيد الباحث المخلص ان أمكن حرصا على الحق واستمساكا به اذا وصل اليه ، ان الباحث المتدين بين محببين في الحق ، دينه وعلمه ، مبغضين في الباطل دينه وعلمه كذلك ، فهو يحب الحق مرتين ، مرة لدينه ، ومرة لعلمه ، ولا خوف عليه مطلقا أن يخفي بعض الحق أو يدلس في البحث محاباة لدينه اذ لايخاف الحق على دينه ولكن يخاف الباطل) .

ثم استطرد الاستاذ الغمراوي في اشباع هذه الناحية اشباعا رائعا لأنه عالم عامل ، عالم درس حقائق الكون في الطبيعة والكيمياء والاحياء ودرس الادب العربي في مصادره غير متحيز ، وعامل في نشر دينه والرد على مخالفيه بالمنطق الفصل والحجة البالغة ، أما القول بأن القدماء بين متحيز للعرب ومتحيز عليهم فمما يستطاع دحضه بسهولة وقد تواطأ الناقدون جميعا على تهجينه في وضوح كاشف لالبس فيه ، ونقتصر على ماقاله الاستاذ الخضر في هذا الصدد اذ أعلن (١)

(في القدماء عرب يتعصبون للحقيقة أكثر مما يتعصبون لقوميتهم وفي القدماء عجم يتعصبون على الزور والبهتان أكثر مما يتعصبون على العرب ، وهذان الفريقان لم يسرفوا على أنفسهم أو على العلم ، ولم يغلوا في تمجيد العرب ، وما هموا بتحقيرهم ، وهم معظم من قاموا ببحث العلوم وتدوينها .

درس القدماء من المسلمين علوما شتى ولم يتلقوها كما يتلقى

---

(١) نقض الشعر الجاهلي ص ٣١

الامعة من الرجال بمتابعة وتقليد فخاضوا غمارها وسابقوا واضعيها في الوقوف على أسرارها ، وأبصروا فيها حقا وباطلا ، ولم يقتصروا في علمهم بالحق حقا على دليل موافقته للدين ، ولا في معرفتهم للباطل باطلا على دليل مخالفته ، بل كانوا يترسمون في ذلك منهج المنطق الصادق ، ويقرعون الحجة النظرية بمثلها ، وعدم ارتدادهم عن الاسلام لايدل على أنهم أخضعوا له كل شيء وانما هو الدين القيم الذي يخضع له الحق بنفسه ، ولا يحوم الباطل في ناحيته)

لعلنا بعد استعراض مادار من نقاش حول منهج البحث لدى الدكتور وبعدما استطعنا أن نعقب به حول هذا النقاش نخلص الى أن مؤلف الشعر الجاهلي قد أخطأ في مقدمة حديثه عن المنهج حين استهله استهلالا خطابيا لاعلميا ، وهو يبحث بحثا جامعيا لا انفعال يهيجه ، ولا حماسة تلهبه — كما هو المتبع المفروض — كما أنه أخطأ حين فهم أن الشك لدى ديكارت مقصود لذاته وليس طريقا لليقين ، وحين ظن أن ديكارت قد ابتكر مذهبه دون سابق يقتفيه ، كما أخطأ في تطبيق هذا المنهج ، وهو خطأ لم يظهر وضوحه بجلاء فيما تقدم ، بل سنرى في الفصول القادمة كيف حاد عما أعلنه دون تمسك والتزام .

الشعر والحياة الجاهلية

مهد الدكتور طه حسين لحديثه عن الانتحـــال في الشعر الجاهلي بفصل يتحدث عن الحياة الجاهلية ، وما لاح في زعمه من قصور الشعر الجاهلي الذائع بيننا عن تصويرها كمـــا كانت ، ذاهبـــا الى أن القرآن الكريم هو المرآة الناطقة بأحوال الجاهليين ، وقد كتب في ذلك صفحات نضطر الى تلخيصها لنعقب عليها بما نراه وبما ذكره ناقدوه ٠

ذكر الدكتور أنه لاينكر وجود الحياة الجاهلية ، ولكن ينكـــر أن يكون الشعر الجاهلي المتداول هو مرآتها الصحيحة ، لأن الحياة الجاهلية قد رسمت على وجهها الصحيح في القرآن ، وهي حياة جاهليـــة مشـــرقة ممتعة ، مخالفة كل المخالفة لهذه الحياة التي توجد في مطولات الشعراء من أمثال أمرىء القيس وزهير وطرفة ، فالقرآن في رأي الدكتور أصدق مرآة للعصر الجاهلي وليس القرآن وحده ، بل يضاف اليه في تصويـــر هذه الحياة ، ماروي من شعر في عصر النبوة والعصر الامـــوي ، فحيـــاة الجاهليين أصدق وصفا فيما قال الفرزدق وجرير والأخطل ، وليس من اليسير في منطق المؤلف أن نفهم أنالناس قد أعجبوا بالقرآن الا أن تكون بينهم وبينه صلة ، هي الصلة التي توجد بين الاثر الفني البديع ، وبين الذين يعجبون به حين يسمعونه أو ينظرون اليه ، وليس من اليسير أن نفهم أن العرب قد قاوموا القرآن وجادلوا فيه ، الا أن يكونوا قد فهموه، ووقفوا على أسراره ودقائقه ، وفي القرآن ردود على الطوائف المختلفة في الجزيرة العربية من وثنيين وصائبة ويهود ومسيحيين ، اذ عارضته هذه الطوائف معارضة عنيفة ، فرد عليها بقوة والزام ، والقرآن في ذلـــك يتحدث عن أديان العرب ، ونحلهم أما الشعر الجاهلي فلا يلم بشيء من ذلك ، اذ يظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة من الشعور الديني ٠

فالقرآن أصدق تمثيلا للحياة الدينية عند العرب ، من هذا الشعر المنسوب للجاهليين ، والقرآن لايمثل الحياة الدينية وحدها انما يمثل شيئا آخر لانجده في هذا الشعر ، يمثل حياة عقلية للعرب وقدرة على الجدل والخصام ، وقد وصف القرآن شدة جدلهم وقوته ، وبين ماكانوا يتجادلون فيه من مسائل البعث والوجود والوحي والرسالة والمعجزات ؟ وهؤلاء الذين كانوا يتناقشون في هذه المسائل ليسوا من الغباء بالدرجة التي ينطق بها الشعر الجاهلي فالشعر الجاهلي المروي في كتبنا يدل على الغباء والجهل والغلظة ولايتحدث عن قوم كانوا أصحاب علم وذكاء ، وعواطف رقيقة ، وكانوا يعيشون في لين ونعمة وراحة عيش كما أن القرآن يعطينا عن العرب صورة أخرى اذ ينطق بأنهم كانوا على اتصال قوي بمن حولهم من الامم ، أليس القرآن يحدثنا عن الروم ، وما كان بينهم وبين الفرس من حرب انقسمت فيها العرب الى حزبين متعارضين ، أليس القرآن يحدثنا عن اهتمام العرب بحرب الروم والفرس كما يصف اتصالهم الدائم بغيرهم من الامم ، ويتحدث عن رحلتي الشتاء والصيف وذلك مالانجده في الشعر الجاهلي ٠

وسيرة الرسول (ص) تحدثنا أن العرب تجاوزوا بوغاز باب المندب الى بلاد الحبشة اذ سار المهاجرون الاولون الى هذه البلاد كما اتجه المسلمون الى الحيرة وفارس والشام وفلسطين ومصر ، فلم يكن العرب بمعزل عن الامم المجاورة كما يصورهم الشعر الجاهلي ٠

لقد تحدث الدكتور طه حسين عن هذه المعاني فأفاض افاضة طويلة لا سبيل الى حصرها وان كان تلخيصها المعقول لايتجاوز ماألمعنا اليه الآن ، ثم ختم حديثه بعد عشر صفحات من اسهابه ملخصا زبدة ماقال في هذه الاسطر (١) .

---

(١) الأدب الجاهلي ص ٧٩

(واذا كان العرب أصحاب علم ودين ، وأصحاب ثروة وقوة وبأس وأصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة ، متأثرة بهـا مؤثرة فيهـا ، وأصحاب اقتصاد داخلي وخارجي معقـد فما أخلقهم أن يكـونوا أمة متحضرة راقية ، لا أمة جاهلية همجية ، وكيف يستطيع رجل عاقـل أن يصدق أن القرآن قد ظهر في أمة جاهلية همجية ؟ أرأيت أن التمـاس الحياة العربية الجاهلية في القرآن أنفع وأجدى من التماسها في هـذا الأدب العقيم ، الذي يسمونه الأدب الجاهلي ، أرأيت أن هذا النحو من البحث يغير كل التغيير ماتعودنا أن نعرف من أمر الجاهليين)

هذا ملخص مادار به الدكتور طه حـول رأيه الخـاص بالقـرآن الكريم واتخاذه مرآة لأحوال الجاهليين ، ومن يقرأ اسهاب الدكتور في تكلف هذه المسائل يظن أن القرآن شيء غريب عن الناس وعن القدماء الذين هاجمهم الدكتور في عنف فلم يلموا بسوره وآياته ، ولم يعرفوا ماتضمن من الاخبار والأنباء ، مع أن هؤلاء القدماء أنفسهم قد أوسعوا القرآن شرحا وتفسيرا ، ووقفوا على ماتضمن من أخبار ، وفطنوا الى مأشار من أحداث ، بل انهم لم يهتموا بالشعر الجاهلي ولم يتتبعـوا كلام العرب وأحاديث البداة الا ليتفهموا أسرار البيان القـرآني ، اذ نزل بلغة هؤلاء ، فالقرآن الكريم معروف مشتهر ، ولم يكن بحاجة الى أن يظن الدكتور طه أنه يفاجىء الناس حين يشـير الى بعض ماتضمن كتاب الله الحكيم ، ولكن الدكتور طه قد كان بحاجة ماسة لمن يقول له انه لم يقف فيما استنتج واستنبط عند المفهوم من كلام الله ، بل توسع توسعا زائدا الى حيث جعل كلام المفسـرين ، وبعض أحاديث السـيرة المتعلقة بآيات الكتاب قرآنا يتحدث عن أحـوال الجاهليـين وأذكر أن أستاذنا الخضر حسين قد ضرب الأمثلة المتعددة على انطلاق الدكتور في الاستنباط والفهم الى غاية تباعدت عن النص القرآني الحكيم فأنطقه بما لم يقل ، ومثل الدكتور لايجهل أن كلام الله شيء ، وكلام المفسرين

شيء آخر يرد منه ويؤخذ ، يرد منه مالا ينطق به الوجه المعقول ويؤخذ منه ما يدل عليه الفهم المستقيم ·

هذه واحدة ، أما الثانية فهي اعتراف الدكتور كل الاعتراف بما قال المخضرمون من أمثال حسان وابن الزبعري ومن أيد الدعوة الاسلامية في عصر النبوة ومن خاصمها من المناوئين ، على حين ينكر الشعر الجاهلي في كثرته الكثيرة مستثنيا بعض المقطوعات ، مع أن الرواية الشعرية اذا صحت عن هؤلاء المخضرمين في منطق الدكتور فانها لابد أن تصح عمن سبقهم بسنوات مثل زهير والنابغة والاعشي وعنترة ، وليت شعري كيف نقيم القيامة على الشعر الجاهلي ، وأول أدلتنا في هدمه ترجع الى عدم الثقة بالرواة ثم نسلم تسليما واضحا بما قاله الحطيئة وكعب وحسان والخنساء ومنهم من عاش في الجاهلية قدرا غير يسير ، ان الذين حملوا قصائد المخضرمين الى قرن أو بعض قرن ووصلوا بها سليمة صحيحة أو قل وصلوا بأكثرها سليما صحيحا دون افتعال لايعجزهم أن ينقلوا ماقال الأعشى والنابغة وزهير وعنترة وجليلة والمهلهل وأمثاله مادام الشعر العربي ذا أنصار يحرصون على روايته وانشاده ،واذا كان أمثال الاخطل وجرير والفرزدق وعدي بن الرقاع قد احتذوا الشعر الجاهلي في رأي الدكتور بحيث أصبح شعرهم يمثل الجاهليين ؟ فكيف تسنى لهم ذلك الاحتذاء والمحتذى في زعم صاحب الشعر الجاهلي مفقود مجهول ·

هاتان ملاحظتان نذكرهما قبل أن نستعرض ماقاله ناقد والدكتور خاصا بهذا الموضوع واستعراض كل ماقيل مرهق متعب ، اذ أن مانسلكه من الايجاز اللامح في هذه الصفحات يعوق دون الاسترسال ، ولكننا نقصد اللباب الخالص متناسين ماسواه ·

أفاض الاستاذ محمد لطفي جمعة في الرد على هذا الفصل ، فذكر أن المستشرقين الذين يثق بهم مؤلف الشعر الجاهلي يلتمسون الحياة

الجاهلية في هذا الشعر ، وضرب الأمثلة بأمثال نيكلسون وثوربيكه ونولدكه مستشهدا بفقرات من أقوالهم ثم فسح صفحات متوالية للتمثيل بما قاله شعراء الجاهلية مصورا للبيئة الاجتماعية والدينية والسياسية ، والاستاذ لطفي أكثر الناقدين استشهادا بالشعر في هذا المجال ، فقد عثر على نصوص مفحمة جمعها بعد تعب دون شك لأن أكثرها من غير الذائع المتداول ، ولعل الناقد الفاضل كان يقصد توضيح الامر للقراء وحدهم دون الدكتور طه لأن طه حسين يذهب الى افتعال هذا الشعر والصاقه بالجاهليين الصاقا ، ويراه مما عبث الرواة والمغرضون بوضعه فيما بعد الاسلام ، فكل ماساقه الاستاذ لطفي من الشعر لايجد موقع الاقناع من المنقود ، ولكن القراء من الدارسين سيكونون حكما بين الطرفين دون نزاع ، وقد عناهم صاحب الشهاب الراصد حين سطر بحثه الجاد متحدثا عن مصادر وصف الحياة الجاهلية وقد أدرك تناقض الدكتور طه حسين حين وثق بما يروى عن تاريخ الجاهلية فيما دونه عن حياتهم البعيدة ، وجزم بصحته جزما لايتطرق اليه الشك ثم هو في الوقت نفسه يرفض أخبار الشعراء وتاريخ الخطباء والكهان مع أن المصدر متحد ، قال الاستاذ لطفي (١)

(نحن نسأل المؤلف عن المصادر العلمية والتاريخية التي استقى منها هذه المعلومات ثم جزم بصحتها ودونها كأنها قضايا مسلم بها ، فهل هي عين المصادر التي استنبط منها رأيه في الشعر الجاهلي ؟ كيف استطاع أن يصل الى وصف رفاهية العرب ودقة عواطفهم ورقةاحساسهم ولين عيشهم وكيف علم بانتشار اليهود والنصرانية في الجزيرة العربية على حين اعتبر بعض المسائل (مثل تاريخ ابراهيم واسماعيل) (ويوم ذي قار ، وزعامة امرىء القيس) أساطير وخرافات لم يقم عليها دليل تاريخي ، وهل اصطنع مذهب ديكارت عندما تحدث عن ابراهيم

---

(١) الشهاب الراصد للأستاذ محمد لطفي جمعه ص ٦١

واسماعيل ثم طرحه في الصحف الاخرى ، ثم ماسر الاطمئنان الغريب الى نحو معين من الاخبار دون النحو الآخر) وألحق أن الاستشهادات الشعرية التي ذكرها الاستاذ لطفي وحدها تكفي لأن يكون هذا الشعر مرآة صادقة للحياة الجاهلية ، وقد دحض الاستاذ ماذكره المؤلف عن جاهلية الشعر الأموي أو أموية الشعر الجاهلي ، بما نلفت اليه النظر في تحبيذ وتأييد .

أما الاستاذ محمد فريد وجدي فقد خاطب القراء دون الدكتور طه أيضا فيما كتبه عن هذا الفصل اذ نحا منحى تاريخيا ذكر فيه المتعارف من أخبار العرب في الجاهلية كما جاءت في كتب المؤرخين ونطقت بها شواهد الآثار ، ولكن الدكتور طه لايثق في هذه الاخبار التاريخية ويرى حديث العرب البائدة والعرب المستعربة حديث خرافة ، ويستطيع أن يبتسم حين يطالع ماخطه الاستاذ وجدي ثم يقول : اني أشك ولا أتيقن وكأن الشك برهان لايقبل الدفع ويكفي أن يذكره الدكتور دون تدليل وقد ناقش ماتوهمه من قوة الجاهليين في الحجاج الديني نقاشا واضح الافحام ، فأتى في هذه النقطة بما لايدفع من الحجاج ، واستشهد بما يؤكد مذهبه بآيات بينة من كتاب الله ، وقال يدفع ماتوهمه الدكتورمن اشراق الحياة الجاهلية وقوتها وارتقائها (١)

(ان القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية في النقائص الخلقية ، والعيوب الاجتماعية والمنكرات العادية ، لأن القرآن قد عرض عقائد ودافع عنها ، وعرض عقليةالجاهليين وسخر منها ،وعرض اعتراضاتهم على دعوته ودحضها ، وعرض تفصيلات جمة عن أحوالهم الاجتماعية وعاداتهم الزوجية ، ومألوفاتهم البيتية ، ومنازعاتهم السياسية والاقتصادية ، وشنع عليها وعابها ، ولم يدع صغيرة أو كبيرة من

(١) نقد كتاب الشعر الجاهلي للأستاذ فريد وجدى ص ٣١

أخلاقهم الرديئة ، ومعاملاتهم المعيبة الا أتى عليها وأزرى وتهكم بها ، واستنزل سخط العقلاء عليها ، فهو يمثل حياة الجاهليـين من وجهـة نقائصهم وسيئاتهم تمثيلا لايدانيه شعر ولا تاريـخ ، وكيف لايكـون كذلك وهو انما جاء لنقلهم مما هم عليه الى حـال أرقى منه درجـات ، وتهيئتهم لأن يحيوا حياة صالحة تأخذ بهم الى معارج الارتقاء ،وتحفزهم الى تخطي دوائر الجمود التي كانوا فيها ، ولا يبغون عنها تحولا ، وهل يتأتى ذلك الا بالدخول في شؤونهم الحيوية وحكاية ماهم عليه من المنكرات الاجتماعية ثم الكر عليها بالتقبيح والتهجين أو بالتعديل والتقويم)

وقد كان الاستاذ وجدي من دارسي علم الاجتماع وباحثيه ، فجاء كلامه عن الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي عميقا قويا يبهر بوضوحه واقناعه ، وسنتركه الى الاستاذ محمد الخضر حسين حيث بعد عن المقدمات الضافية ، والفصول المستقلة ليناقش الدكتور جملة جملة وعنصـرا وعنصرا وهو بذلك يضـع الاســوار الحائلة دون الانسيـاب خلف الاستطراد ، وحشد الامثلة الشعرية مما تجده لدى الاستـاذين لطفي جمعة وفريد وجدي ، ولن أقول ذلك لأقلل من رديهما ولكني أشخص كل منحى نقدي كما أراه ، لأن حديث الدكتور طه في هذا الباب متدفق مستطرد ويتخلله من الجزيئات مايعصف ببنائه الكلي ، ولا ندري كيف ينعي الدكتور على القدماء تقليدهم لآراء سابقيهم ويقع هو في التقليد حين يأخذ من مرجليوث مايتضح عواره بالنظرة العابرة دون تمهل ، وقد وضح ذلك الاستاذ الخضر فيما ترى اذ قال الدكتور طه (فأما هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي العاطفة الدينية ، المسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية ، والا فأين تجد شيئا من هذا في شعر امرىء القيس أو عنترة أوليس عجيبا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين) (١)

(١) في الأدب الجاهلي ص ٧٣ ط ١٠ لطه حسين

ويقول الاستاذ محمد الخضر حسين نقضا لذلك (١)

(هذه الشبهة مما استلبه المؤلف من مقال مرجليوث حيث يقول : (تجد في هذه الاشعار مايبعث على الدهشة ، فشعراء كل أمة يشرحون دينهم وعقائدهم شرحا واضحا ، والمخطوطات العربية مملوءة بذلك ، ففي كل مخطوطة نجد اسم معبود أو أكثر وأشياء تتعلق بعباداتهم ، وقلما نعثر في هذه الاشعار على شيء يتعلق بالدين الا نادرا)

وقد تعرض جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية الى هذا الشبهة وما يدفعها فقال : أما العرب فيخالفون العبرانيين من حيث الشعر الديني لأنه لم يكن عندهم في الجاهلية كما كان عند العبرانيين ، ولا يعقل أنهم خالفوا اخوانهم فيه ، ولا بد أنهم نظموا الاشعار ، وخاطبوا بها هبل واللات والعزى وغيرها ، واستعطفوها ، وصلوا اليها وتخشعوا لها ، ولكن منظوماتهم في هذا الموضوع ضاعت في ثنايا الاجيال لعدم تدوينها ، ولاشتغالهم عنها بالحماسة والفخر بسبب الحروب التي قامت بينهم قبل الاسلام ، فلما جاء الاسلام أغضى الرواة عنها لأنها وثنية والاسلام يمحو ماقبله ·

ثم نقل الخضر قول الاستاذ (أدور براونلسن) في رده على مرجليوث (لاحظ العلماء أن الشعر الجاهلي قلما دل على شيء من دين العرب قبل الاسلام ، وقد ذكر بعضهم في سبب ذلك أن علماء المسلمين يرفضون من الشعر مايخالف الدين الاسلامي ، ويروون سائره ، وهذا مما يشق الانسان بوقوعه)

وخلاصة الجواب ـ والكلام للخضر ـ أن معظم شعر العرب كان في الفخر والحماسة ، وأن المسلمين صرفوا عنايتهم عن رواية الشعر الذي

---

(١) نقض الشعر الجاهلي ص ٤٧ للأستاذ الخضر حسين

يمثل دينا غير الاسلام ، ولاسيما دين اللات والعزى وعلى الرغم من هذا كله وصلت الينا بقية من الشعر الذي يحمل شيئا من الروح الديني تجده في كتاب الاصنام لابن الكلبي وغيره)

ولي تعليق حول هذا النقاش ، هو أن الدكتور طه حسين قد قرأ كلام مرجليوث كما قرأ رد (ادور براونلسن عليه) قبل أن يؤلف كتابه وهو أيضا قد قرأ كتاب جورجي زيدان حين صدوره وعلق عليه في بعض الصحف فهو اذن يعلم أن المسلمين قد أهملوا تدوين مايتعلق بالوثنية الجاهلية ؟ فلماذا يبدو متجاهلا ذلك حين يوهم قارئه أن الشعراء الجاهليين لم يقولوا شيئا عن هذا الدين ؟ واذا كان يرى أن المسلمين لم يهملوا تدوين مايعارض الاسلام فما دليله ؟ ولم يتحدث وكأنه لايدري شيئا عما قيل عن شبهة ادعاها لنفسه وظهر تقليده لمرجليوث فيها دون دليل .

وأقوى مانسف به الاستاذ الخضر ادعاءات هذا الباب من الكتاب ، مارد به على أن الجاهليين في رأي طه كانوا يمتازون بقوة الجدل اذ يتخاصمون ويتحاورون في الدين وفي كل مايتصل بالدين من هذه المسائل التي ينفق الفلاسفة حياتهم ، دون أن يوفقوا الى حلها ، في البعث والخلق والمعجزة وما الى ذلك ، لأن الذي يقرأ ذلك يظن أن معضلات الفلاسفة كانت مجال نقاش هؤلاء واذن فقد أوتوا من العقل مالاشيء وراءه من البصر والنفاذ ، ولكن الخضر رحمه الله يضع الامر في مكانه الطبيعي اذ يقول (١) (القرآن يصف الجاهليين بشيء من العلم بهذه الحياة (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا) (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا) وهذا العلم يرجع الى بعض شئون الأفراد والجماعات ، ومادخل تحت تجاربهم من السنن الكونية ، ويصفهم مع هذا بسعة العارضة واللدد في الخصومة اللذين هما أثر من آثار المهارة في هذا الفن

(١) نقض الشعر الجاهلي ص ٥٠

وقد يستحق هذا الوصف من يأخذ الشبــه التي تعرض لمن له حــظ من النباهة الفطرية ويلقيها في زخرف من فصاحة ، وحلية من بيان ، حتى اذا طلعت الحجة ذهب الزخرف والحلية وبقي قصــر النظر ، وخطــل الرأي مكشوفا بارزا ، وصف القرآن أولئك الجاهليين المجادلين بشيء من العلم بهذه الحياة والمهارة في فن الجدل ، ونعى عليهم الجهل بأمر البعث والخلق والصلة بين الخالق والمخلوق وضعف بصيرتهم عن ادراك المعجزة وما الى ذلك من مذاهب مطموسة الأثــر وآراء لامنشــأ لها الا الأذواق المعتلة والشهوات الطاغية ، ولمثل هذا تجده لايصفهم بخلابة البيان الا نقم عليهم خطل الآراء فيما لايقع تحت أبصارهم أو تجاربهــم ، ونعى عليهم سفهها في تزين بعض حقائقهم ، وضعفها عن تقويم أهوائهم كما قال تعالى (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على مافي قلبه وهو ألد الخصام ، واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل) وقال (واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم) ففي الجاهليين المجادلين ذكاء وفيهم حذق في صناعة البيان ولكنهم لم يتجــاوزوا بهما ظاهرا من الحياة)

أما الاستاذ محمد أحمد الغمراوي فقد واجه هذه الناحية مواجهة باترة قاطعة حين أعلن أن الحظ الذي أنفقه القرآن في احتجاج والنقاش لايدل على قوة الجاهليين في الرد والافحام كما توهم الدكتور طه ولا على حسن بصرهم بالحجة بل كان ناشئا عن رسوخ العادات وجمود التقاليد ، وان جدال هؤلاء المشركين هو من أحط أنواع الجدل وأبعده عن العقل فكيف يصور حياة عقلية راقية ، وان الباحث لو استقرى مواقف الحجاج مع هؤلاء وجدهم يفرون من الحق قائلين انما يتبعــون ماوجدوا عليه آباءهم فيكون الرد (أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون) ، (أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) كما أن هؤلاء كانوا اذا بهروا بالحجة وصعقوا بالدليل لم يجدوا سبيل الرد الا أن يقــولوا ان

محمدا ساحر أو شاعر تقول الكلام ونسبه لله (فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين ، ثم هم لعجزهم عن مصاولة المنطق القرآني يطالبون الرسول بما لاينفعهم لو وقع من صعود للسماء واتيان بالملائكة (قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا)

ثم عجب أشد العجب من قول الدكتور طه انهم كانوا يتحاورون في الدين بقوة وحجاج وينفقون أوقاتهم في المسائل التي ينفق الفلاسفة أوقاتهم في حلها فقال في تهكم (١)

(وكأن صاحب الكتاب أراد بهذا القول أن يجعل من كانوا يجادلون النبي من مشركي العرب فلاسفة من غير أن يكون لهم من البصر بتلك المواضيع حظ ، بل من غير أن يكون لهم في اختيارها نصيب ، واذا صح منطق الدكتور هذا فما على من يريد أن يكون مستنيرا فيلسوفا الا أن يختار موضوعا أو موضوعات بحثتها أو تبحثها الفلاسفة فيطفق يجادل فيها ، وليس يهم كيف ينظر أو يجادل مادام اسم الموضوع مشتركا بينه وبين الفيلسوف ، والا فأين في الكتاب استعراض ماكانوا يحاجون به في تلك المواضيع ونقده والاستدلال به على أنهم كانوا يصدرون في جدالهم عن عقل وعلم لا عن مكابرة وجهل كما تقتضي بذلك سنة التحقيق في البحث ، انك لن تجد من هذا شيئا في الكتاب) ، ثم أجهز الاستاذ على كل ماقيل عن المؤلفة قلوبهم والمستنيرين وغير المستنيرين من المسلمين والمشركين فأتى باقناع ملزم ، والحق أن كلامه مكمل لكلام الخضر في هذا الصدد فكلا الناقدين قد أصاب سدادا حكيما لايدع مجالا لشبهه تتردد ، وكان من المنتظر ألا يسكت الدكتور عن مثل هذا الافحام البالغ ، فمن حق قرائه عليه أن يعلن رأيه فيه ، ولكن طبعات الكتاب قد توالت ، وما قاله مما ظهر عواره يتردد عشر مرات في عشر

---

(١) النقد التحليلي للأستاذ الغمراوى ص ١٤٩

طبعات ، وكأن ناقديه لم يقولوا شيئا مع أن للقراء أفهاما وعقولا ، وقد هالهم هذا الاصرار العنيد على غير الحق ، وما تلك بسبيل الباحثين واذا كان الدكتور يرى مآخذ فيما قيل بهذا الصدد فلماذا لايتكلم ٠

أما ماحكاه الدكتور عن الحياة الاقتصادية وسكوت الشعر الجاهلي عما حكاه القرآن بشأنها فقد تواطأ الناقدون على ايضاح وجه الحق فيها ، وبددوا ماااتجه اليه صاحب الكتاب في مسألة الكرم والبخل حين زعم أن الشعر الجاهلي يصور العرب أجوادا كرماء فقط ، ولم يتحدث عن بخلهم في شيء وقد وضع الاستاذ الغمراوي الامر في مكانه الطبيعي حين أعلن أن خلو الشعر الجاهلي من حديث الربا ومسائل الاقتصاد أمر طبيعي لأن هذه المسائل لاتذكر في الشعر ولكن في كتاب تشريعي توجيهي أو بحث علمي منهجي ، وهذه الامور لايتحدث عنها الشعراء في عصرنا الراهن فكيف نطالب بها الشعر الجاهلي قال الاستاذ (١)

(فاذا كان الادب الجاهلي قد خلا حقا من ذكر الربا فلن يكون في ذلك دليل على أن الادب الجاهلي موضوع ، ولكن ان دل فهو يدل على أن شعراء الجاهلية وخطباءها لم يكن فيهم من هزت أريحيته التجارة ، أو حرك شاعريته الربا ، لأن ذلك كان كله عاديا مألوفا لايسخطه أحد ، ولا يلتفت الى من سخطه أحد ، لاسيما وقد كان الناس يرون الربا نوعا من البيع ، ولو رأوه نوعا من السلب ماااستغربوه في ذلك العصر الذي كثرت فيه الغارات بين القبائل ، وكثر فيه السلب بين الناس) ٠

واني لأسأل القارىء بعد استعراض هذا الفصل وأشباهه فيما أكتب ، ألا يدل نقاش هؤلاء النقاد على اصابة مقنعة ، وتصحيح قوي ،

---

(١) النقد التحليلي ص ١٥٨

ومواجهة حاسمة ، كيف يضيع فضل هؤلاء لدى من تواطئوا على النيـــل منهم ووصفهم بالجمود حتى ليقول أحد المخدوعين في سذاجة جاهلة ، لقد توالت ردود جامدة على كتاب الدكتور دلت على أن أصحابها لم يفهمـــوا منه شيئا ، أتهون الحقـــائق في دنيا العـــلم الى حد يصـــل الى التوقـــح والبهتــــــان ؟!



اللغة في العصر الجاهلي

أراد مؤلف الشعر الجاهلي أن يبحث في اللغة الجاهلية ، لينتهي الى أن أكثر مايعزى اليها من الشعر الجاهلي لايمثلها في شيء ، وقد تطرق في الطبعة الأولى التي ظهرت تحت عنوان الشعر الجاهلي في هذا الفصل الى أمور دينية شائكة نقلها عن المستشرقين نقلا دون فحص ، مع أنهـا لاتتصل بسبب ما بموضوعه ، ونحن نعلم رغبة نفر من المستشـرقين في التعرض الى مفتريات كاذبة تتجه وجهة الهدم في الاسلام دون أن يكون لهذه المفتريات صلة بالبحث الادبي الخالص ، بل تؤكد الحقائق الواضحة أنهم ماتكلموا في الادب لوجه الادب ، بل لوجه الطعن في الاسلام ، واذا كان هذا هو هدفهم التبشيري ، فماذا حدا بالدكتـور طه وليس مبشـرا يكسب بالطعن في الاسلام ، أن يقلدهم في افكهـم الصـريح ، وهـل من الضروري أن يتحدث عن القرآن وابراهيم واسماعيل والكعبة كما تحدث مرجليوث ومن أطلق على نفسه اسم (هاشم العربي) من هؤلاء المتآمرين في بحث أدبي خالص لايتصل بالمقدسات الدينية الا عن تمحل مفتعل ينطق بزيفه الصريح ، لقد قامت صيحات النقد الغيور ، فأقنعت الدكتور أن يحذف كل ما قلد به هؤلاء المغرضين ، وأن يمحوه محوا حين صودر كتابه الاول ، وظهر كتاب جديد تحت عنوان جديد ، لايتحدث عن مفتـريات المبشرين من قساوسة المستشرقين في هذا الباب بالذات ، وقد علق الاستاذ محمد أحمد الغمراوي على هذا الحذف الاضطراري بتساؤل عن موقف الدكتور حين حذف دون أن يبين اقتناعه المسبب بهذا الحذف ، لقد كان الاجدر به في منطق الاستاذ الغمراوي أن يعترف بما فعل مظهرا دوافعه العلمية ، ولكنه سكت سكوت من يريد أن يقول للناس انه مضطر لامختار

وكان عليه اذا تشبث بهذه المفتريات أن يرد على نقـد معارضيه ، وأن يفند ماأتوا به من الحجج الدامغة في هذا المجال ، شأن كل صاحب رأي يعتقد صحته ، ويهتف به في تثبت واعتداد ، ومهما يكن من شيء فقـد كفانا صنيع الدكتور أن نرد على ما قاله ثم حذفه اذ أن ذلك لايعني غـير ترديد شبهات باطلة صاغها أعداء ، وكررها أستاذ جامعي يفاخر بالمنهج الحديث ، ويتعالى على مخالفيه ثم ينقل كلام سواه ٠

بدأ الدكتور بحثه في لغة العصر الجاهلي فأطنب اطنـابا يضطرنا الى ايجازه الواضح في هذه العبارات ٠

(اذا كان الفصل السابق قد انتهى الى أن الشعر الجاهلي لايمثـل الحياة الدينية والاقتصادية والسياسية والعقلية للعرب الجاهليين (وهو ماناقشناه في الفصل السابق) فان هذا الشعر في رأي المؤلف بعيد كـل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي زعم الرواة أنه قد قيـل فيه ، فهؤلاء الرواة يتفقون على أن العـرب ينقسمـون الى قسمـين ، قحطانية منازلهم الاولى في اليمن ، وعدنانية منازلهم الاولى في الحجـاز وهم متفقون على أن القحطانية عرب منذ خلقهم الله فطروا على العربية فهم العرب العاربة ، وعلى أن العدنانية قد اكتسبوا العربية اكتسابا اذ كانوا يتكلمون لغة أخرى ثم تعلموا لغة العرب العاربة ، وهم متفقون على أن هذه العدنانية المستعربة ، انما يتصـل نسبهـا باسمـاعيل بن ابراهيم ٠

ويتفق الرواة ــ ومازلنا في تلخيص كلام الدكتور ــ على أن هنـاك خلافا قويا بين لغة حمير وهي لغة العرب العاربة ، ولغة عدنان ، وهـي لغة العرب المستعربة ، واذا كان أبناء اسماعيل قد تعلموا العربيـة من أولئك العرب العاربة ، فكيف بعد ما بين اللغة التي كان يصطنعها العرب المستعربة ، واللغة التي كان يصطنعها العرب العاربة ، حتى استطاع أبو عمر وبن العلاء أن يقول أنهما لغتان متمايزتان ، وواضح جدا لكل من

له المام بالبحث التاريي عامة ، وبدرس الاساطير خاصة أن هذه النظرية متكلفة مصطنعة في عصور متأخرة دعت اليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية ٠

واتجه الدكتور للحديث عن التوراة والقرآن وما قالاه عن الكعبة وابراهيم واسماعيل ، ولغالغواظهر عواره واضطرالى اسقاطه فليس لنا أن نسيء الى القاريء بتلخيصه ، حتى وصل الى مايريده من النتائج الادبية فقال (١)

(ليس هناك سبيل اذن الى أن نفهم أن القحطانية قد اتخذت لغة عدنان أداة لاظهار آثارها الادبية ، فكيف شعر شعراء قحطان وسجع كهانها وتكلم خطباؤها بلغة القرآن ، انما فعلوا ذلك لأن ما يضاف اليهم من الشعر والنثر والسجع قد حمل عليهم بعد الاسلام حملا ٠

سيقولون ولكنك تنسى أن فريقا من هذه القحطانية قد هاجر الى شمال البلاد العربية واستقر فيه وبعد عهده بموطنه القديم فما الذي يمنع أن يكون هذا الفريق قد نسى لغته الاولى وتعلم لغة الشمال ؟ ثم يجيب عن ذلك بما يلجأ اليه حين يعوزه الدليل فيقول : ومن الذي يستطيع أن يثبت لنا أن هذه الهجرة حق لاشك فيه ، فهي من أحاديث القصاص حتى تقوم عليها الادلة العلمية ٠

ثم ختم الدكتور حديثه بقوله (نحن اذن بازاء لغتين احداهما كانت قائمة في الشمال وهي التي نريد أن نؤرخ آدابها ، والاخرى كانت قائمة في الجنوب وهي التي تمثلها النصوص الحميرية والسبئية والمعينية ونحن لانسرف ولا نشتط حين ننكر مايضاف الى أهل الجنوب من شعر وسجع ونثر قيل بلغة أهل الشمال قبل الاسلام)

---

(١) الأدب الجاهلي ص ٩٠ ط ١٠

هذا ملخص ماذكره الدكتور تحت هذا العنوان ، وبتأمل هذا الفصل وما سبقه من الفصول نجد أن هذا الموضوع (اللغة والشعر الجاهلي) أول بحث جوهري في موضوع الكتاب لأن ماسبقه مقدمات ترسم الاطار العام ، ولكن الحديث عن لغة الشعر حديث في صميم الصميم من القضية وكان من المنتظر أن يحشد المؤلف عدته لايضاح مايذهب اليه ، ولكن حديثه قد طال في الحواشي والاطراف دون أن يعمد الى الخالص من اللباب وقد فاجأ الدكتور ناقديه بصنيعه اذ هالهم أن يحوم الدكتور على ينابيع لاتمتد مياهها الى غرسه ، ثم يحاول أن يستقي منها مع بعد الشقة وتعذر الوصول ، وقد أوضح الاستاذ الخضر أن دليل طه مأخوذ عن مرجليوث فهو ترديد لاتجديد ، ونحن لانمنع الترديد اذا كان تأكيدا لحق مع التصريح بابتكار صاحبه الاول ، ولكن الترديد هنا تأكيد لخطأ من ناحية وتجاهل لمن أتى بالرأي أو قل اختلاس منه ان شرف باحث باختلاس الشطط والادعاء ٠

أبان الاستاذ الخضر حسين عن سطو المؤلف على مقالة (ذيل مقال في الاسلام) فيما تحدث به افتراء على الاسلام ، وصاحب مقالة الذيل مستشرق شاء له خداعه أن يتسمى باسم (هاشم العربي) ليوهم القراء أنه عربي مسلم ليكون الطعن الكاذب من عربي يدين بالاسلام أو اذا كان الدكتور قد حذف مااختلسه منه ، فلنتركه الى اختلاسه الثاني من مرجليوث ، اذ كشفه الاستاذ الخضر رحمه الله حين قال (١)

(أخذ المؤلف يذكر الشاهد الاقوى على اصطناع الشعر الجاهلي ، وهو أن اللغة القحطانية غير اللغة العدنانية ، والشعر المنسوب الى بعض شعراء اليمن لايختلف عن شعر العدنانية وهذا مما استشهد به مرجليوث قبله ، وأكاد أثق بأن المؤلف استعاره منه ، قال مرغليوث في مجلة الجامعة

---

(١) نقض الشعر الجاهلي ص ٧٠ للشيخ الخضر حسين

الآسيوية (هنا دليل واضح من هذه الأشعار ، وهو أنها كلها مكتوبة بلهجة القرآن .. واذا فرضنا أن الاسلام أرغم قبائل جزيرة العرب على توحيد لغتهم بتقديمه مثالا أدبيا لايقبل الجدل في جودته وعلو شأنه وهو القرآن فمن الصعب اعتقاد أن توجد قبل هذا العامل الحيوي لغة عامة لقبائل الجزيرة ، تختلف عن لغات المخطوطات الأثرية ، ان لهجة كل قبيلة تمتاز بمفرداتها ونحوها واننا لنجد جميع المخطوطات في هذه الانحاء مرسومة بلغة أخرى غير لغة القرآن)

ونقض هذه الشبهة القائلة باختلاف العدنانية عن القحطانية مما أوضحه كل من عالج الموضوع بيسر سهل لايلقى مجالا للريب ، لأن اللغة القحطانية كانت بعيدة عن العدنانية في العهود الأولى ولكن توالي الزمن وتتابع الرحلة من الجنوب الى الشمال ومن الشمال الى الجنوب في مدى عدة قرون قد أدى الى التقارب شيئا فشيئا حتى كادت تنعدم الفوارق قبل ظهور الاسلام بنحو قرنين ، وهي الفترة التي روى فيها مابقي بأيدينا من الشعر الجاهلي ، فاختلاف اللغتين في المبدأ لايمنع التقارب في النهاية بدوام الرحلة وكثرة الاتصال ، وقد زاد الاستاذ محمد أحمد الغمراوي هذه المسألة توضيحا حين قال (١)

(ان موضوع الفصل كما نرى من عنوانه هو البحث عن صلة مابين هذا الادب الجاهلي المحفوظ الذي صححه أئمة اللغة ، والذي قيل قبل الاسلام بقرن ونصف على الأكثر وبين اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه ، والرواة لم يزعموا الا أن هذا الشعر قيل في تلك الفترة القصيرة قبل الاسلام ، وكثير منه قاله شعراء بعضهم أدرك الاسلام مثل لبيد بن ربيعة والاعشى ، وبعضهم مات قبيل الاسلام مثل عنترة والنابغة وزهير ، فما هي العلاقة بين اللغة في هذا العصر الجاهلي القريب

---

(١) النقد التحليلي للأستاذ الغمراوى ص ١٦٣

الممكن تحقيقه من غير شك ، وأين أصل العرب والعربية في ذلك العصر القديم ، الذي لايكاد يلم به التاريخ ؟ ليكن أصل العرب مايكون ، ليكونوا جميعا من أصل واحد ، أو من أصول متعددة مختلفة لايعيها التاريخ ، فماذا يفيدنا هذا في تحقيق اللغة العربية الفصحى في هذا العصر القريب ؟!)

كنت أشتاق أن أجد للدكتور طه حسين ردودا صريحة على أقوال ناقديه ، ولكن الرجل قد اعتصم بالسكوت المطلق على غير عادته ، وهذا صنيع نحار في تعليله ، لأن صاحب الرأي الجديد الذي يظهره في نبرة عالية تدعو الى الاثارة والتحدي ، والذي يهاجم معارضيه قبل أن يبدءوا بمعارضتهم وينعي عليهم جمودهم عند القديم ، هذا الجريء المهاجم لابد أن يتسمع الى آراء خصومه وأن يذود عن جديده بما يمنعه ويقويه ونحن نعرف أن الدكتور صاحب نقاش وحجاج ، وقد أدار معارك أدبية مع نظرائه من أمثال هيكل والعقاد والرافعي وأحمد أمين والمازني فلماذا لايقول شيئا فيما تتابعت به الجرائد اليومية ، والمجلات الادبية ثم مااستقلت به كتب خاصة تعتمد على الحجة والدليل ٠

أجل كنت أتوق الى أن أسمع تعقيب الدكتور على أدلة مناوئيه ، ولكنه سكت سكوتا تاما حتى اضطر اضطرارا للرد على بعض المسائل في حضرة النائب العام ، فكان رده ضعيفا واهنا لايعتصم بحجة ، ولا يفيء الى يقين ، وكان موضوع (اللغة والشعر الجاهلي) من أبرز الموضوعات التي ناقشها النائب العام مع المؤلف ، اذ يتصل اتصالا مباشرا بما تطرق اليه من الاحاديث الشائكة عن اسماعيل وابراهيم والكعبة ، وكان النائب العام من القوة والنفاذ والاحاطة بحيث خيل لقاريء بيانه أنه رجل أدب لا رجل قانون ، وصاحب الفكر الجاد من أرباب القانون وفقهاء الاصول لايعوزه أن يتبين مواضع الخلل فيما يقرأ من بحوث لاتتصل بتخصصه الواسع الحفيل ، لقد كان الاستاذ محمد طاهر نور بك رئيس نيابة مصر

حين حدث الدوي الهائج حول هذا الكتاب والمستشــار الكبــير بمحكمــة الاستئناف فيما بعد ، هو الذي تولى نقاش الدكتور طه ثم أصدر ماعرف (بقرار النيابة في الشعر الجاهلي) فأتاح لنا أن نعرف جانبا من ردود الدكتور على مخالفيه ، ولمن شاء أن يعرف منطق الاستاذ محمد طاهر نور باشا في الجدل ، وتمكنه من الحجة فليرجع الى ماكتبه المغفور له الاستــاذ الكبير أحمد حسن الزيات في رثائه يوم رحيله (١) ، وتقرير النيابة ذائع متداول (٢) ، وقد آن أن نأخذ منه مانريد ٠

بدأ الاستاذ محمد طاهر نورفلخص موضوعهذاالفصل تلخيصادقيقا ثم أراد أن يبين هل وفق الدكتور في مساقه الفكري بحيث تهدى مقدماته الى نتائجها الطبيعية أو تعسفت به خطواته فضل الطريق فقال الاستاذ عن المؤلف (١)

هو يريد أن يدلل على أن الشعر الجاهلي بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيــل فيــه ، وبديهي أنه للوصول الى هذا الغرض يتعين على الباحث تحضير أمور ثلاثة :

(١) الشعر الذي يبرهن على أنه منسوب بغير حــق للجاهليــة (٢) الوقت الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه (٣) اللغة التي كانت موجودة فعلا في الوقت المذكور ، وبعد أن تتهيأ له هذه المواد يجري عملية المقــارنة ، فيوضح الاختلافات الجوهرية بين لغة الشعر وبين لغة الزمن الذي روى أنه قيل فيه ، ويستخرج بهذه الطريقة الدليل على صحة مايدعيه ، لهذا يتضح أهمية السؤال الذي وضعه بقوله (لنجتهد في تعرف اللغة الجاهلية هذه ماهي ؟ أو ماذا كانت في العصر الذي يزعم الرواة أنشعرهم الجاهلي هذا قد قيل فيه ، وتتضح أهمية الاجابة عليه ٠

---

(١) مجلد الرسالة : السنة الثانية سنة ١٩٣٤ م

(٢) راجع مجلة الشبان المسلمين عدد ذى القعدة سنة ١٣٥٠ هحيث نشر ما بين ص ٤٣٢،٤١٢

(١) مجلة الشبان المسلمين عدد ذى القعدة سنة ١٣٥٠ هـ ص ٤١٩

ولكن الاستاذ المؤلف وضع السؤال وحاول الاجابة عليه وتطرق الى مسائل في غاية من الخطورة هدم بها الامة الاسلامية في أعز مالديهـا من الشعور ، ولوث نفسه بما تناوله من البحث في هذا السبيل ، بغير فائدة ، ولم يوفق الى الاجابة بل قد خرج من البحث بغير جواب اللهم الا قوله : (ان الصلة بين اللغة العدنانية ، وبين اللغة القحطانية انما هي كالصلة بين اللغة العربية وأي لغة أخرى من اللغات السامية المعروفة) وبديهي أن ماوصل اليه ليس جوابا على السؤال الذي وضعه ، وقد نوقش في التحقيق في هذه المسألة فلم يستطع رد هذا الاعتراض ، ولايمكن الاقتناع بما ذكره في التحقيق من أنه كتب الكتاب للاخصائيين من المستشرقـين بنوع خاص ، وأن تعريف هاتين اللغتين عند الاخصائيين واضـح لأن قوله هذا عجز عن الجواب ·

ثم ناقش النائب العام انزلاق المؤلف الى الشك في أمور يقينية جاء بها القرآن وما بنا حاجة الى ذكر هذه المسائل والرد عليها لأن الناقدين قد فضحوا أعوارها ، ولأن المؤلف قد أسقطها في كتابه (الأدب الجاهلي) فأصبحت في نظرنا غير ذات موضوع كما يقال ، ونحن لانريد أن نجعل هذه المقدسات مكان أخذ ورد ، فهي عندنا يقين اليقين ·

ثم تابع الاستاذ النائب قوله ، وهو من الاهمية بمكان لأنه ينقل ردود المؤلف على مايأخذه به ناقدوه ، ويدل على ان احجامه عن الرد في الصحف السيارة لم يكن غير حيرة شاملة تشتت صوابه فلا يقدر على الثبات ·

قال الاستاذ النائب في تقريره (على أننا نلاحظ أيضا على المؤلف أنه لم يكن دقيقا في بحثه وهو ذلك الرجل الذي يتشدد كل التشدد في التمسك بطرق البحث الحديثة ، ذلك أنه ارتكن في اثبات الخلاف بين اللغتين على أمرين الأول ماروي عن أبي عمرو بن العلاء من أنه كان يقول (مالسان حمير بلساننا ، ولا لغتهم بلغتنا) ، والثاني قوله : (ولدينا الآن نقوش

ونصوص تمكننا من اثبات هذا الخلاف في اللفظ وفي قواعد النحو والتصريف أيضا)

أما عن الدليل الاول فان ماروواه أبو عبد الله بن سلام الجمحي مؤلف طبقات الشعراء عن أبي عمرو بن العلاء نصه (ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا) وقد يكون للمؤلف مأرب من وراء تغيير هذا النص ، على أن الذي نريد أن نلاحظه هو أن ابن سلام ذكر قبيل هذه الرواية (العرب كلها ولد اسماعيل الا حمير وبقايا جرهم) فواجب على المؤلف اذن وقد اعتمد صحة العبارة الاولى أن يسلم أيضا بصحة العبارة الثانية ، لأن الراوي واحد والمروى عنه واحد ، وتكون نتيجة ذلك أنه فسر مااعتمد عليه من أقوال أبي عمرو بن العلاء بغير مأراده ، بل فسره بعكس مأراده ، ويتعين اسقاط هذا الدليل ٠

وأما عن الدليل الثاني ، فان المؤلف لم يتكلم عنه بأكثر من قوله (ولدينا الآن نقوش ونصوص تمكننا من اثبات هذا الخلاف) فأردنا عند استجوابه أن نستوضحه ماأجمل فعجز ، وليس أدل على هذا العجز من أن نذكر هنا مادار في التحقيق من المناقشة بشأن هذه المسألة ٠

س ـ هل يمكن لحضرتكم الآن تعريف اللغةالجاهلية الفصحى ، وهي لغة حمير ، وبيان الفرق بين لغة حمير ، ولغة عدنان ، ومدى هذا الفرق وذكر بعض أمثلة تساعدنا على فهم ذلك ؟

ج ـ قلت ان اللغة الجاهلية في رأيي ورأي القدماء والمستشرقين لغتان متباينتان على الاقل أولاهما لغة حمير ، وهذه اللغة قد درست الآن ووضعت لها قواعد النحو والصرف والمعاجم ولم يكن شيء من هذا معروفا قبل الاستكشافات الحديثة ، وهي مخالفة للغة الفصحى التي سألتم عنها مخالفة جوهرية في اللفظ والنحو وقواعد الصرف ، وهي الى اللغة الحبشية القديمة أقرب منها الى اللغة العربية الفصحى ، وليس من شك

في أن الصلة بينها وبين لغة القرآن والشعر كالصلة بين السريانية ، وبين هذه اللغة القرآنية ، فأما ايراد النصوص فيحتاج الى ذاكرة لم يهبها الله لي ، ولا بد من الرجوع الى الكتب المدونة في هذه اللغة ٠

س ــ هل يمكن لحضرتكم أن تبينوا لنا هذه المراجع أو تقدموها لنا؟

ج ــ أنا لاأقدم شيئا !

س ــ هل يمكن لحضرتكم أن تبينوا الى أي وقت كانت اللغة الحميرية موجودة ، ومبدأ وجودها ان أمكن ؟

ج ــ مبدأ وجودها ليس من السهل تحديده ، ولكن لاشك في أنها كانت معروفة تكتب قبل القرن الاول من المسيح ، وظلت تتكلم الى مابعد الاسلام ، ولكن ظهور الاسلام ، وسيادة اللغة القرشية قد محا هذه اللغة شيئا فشيئا كما محا غيرها من اللغات المختلفة في البلاد العربية وغير العربية وأقر مكانها لغة القرآن ٠

س ــ هل يمكن لحضرتكم أن تذكروا لنا مبدأ اللغة العدنانية ولو على وجه التقريب ؟

ج ــ ليس من السهل معرفة مبدأ اللغة العدنانية ، وكل مايمكن أن يقال ، بطريقة علمية هو أن لدينا نقوشا قليلة جدا يرجع عهدها الى القرن الرابع للميلاد ، وهذه النقوش قريبة من اللغة العدنانية ، ولكن المستشرقين يرون أنها لهجة نبطية ، واذن فقد يكون من احتياط العلم أن نرى أن أقدم نص عربي يمكن الاعتماد عليه من الوجهة العلمية الى الآن انما هو القرآن ، حتى نستكشف نقوشا أكثر وأظهر مما لدينا ٠

س ــ هل تعتقدون حضرتكم أن اللغة سواء كانت الحميرية أو العدنانية كانت باقية على حالها من وقت نشأتها أو حصل فيها تغيير بسبب تمادي الزمن والاختلاط ٠

ج ـ ماأظن أن لغة من اللغات تستطيع أن تبقى قرونا دون أن تتطور ويحصل فيها التغيير الكثير ٠

هذا نمط مما ورد في تقرير النائب العام ، وهو يدل على أن الدكتور لم يكن يتيقن شيئا مما قال ويثبت أن امتناعه عن مناقشة معارضيه في الصحف قد جاء على غير المعتاد منه اذ أنه كثير الجدل والنقاش وله معارك أدبية كثيرة ، ولو كان لديه شيء لأقنع به في هذا الصدد على أن السيد النائب العام قد استطاع أن ينقض دليل الدكتور نقضا واضحا حين قال في التعقيب على أسئلته :

(قرر الاستاذ في التحقيق آنه لاشك في أن الحميرية ظلت تتكلم الى مابعد الاسلام ، فان كانت هذه اللغة هي لغة أخرى غير العربية كما يوهم أنه انتهى اليه بحثه ، فهل له أن يفهمنا كيف استطاع عرب اليمن فهم القرآن وحفظه وتلاوته) وكنت أوثر أن يوجه هذا السؤال الى الدكتور في محضر التحقيق ، لأن الاجابة عليه تعصف بكل ماادعاه ٠

هذا نمط من الحجاج العلمي الواضح ، تظهر نتيجته الحاسمة شاهدة بأن اللغة العربية قد توحدت قبل الاسلام بأكثر من قرن ونصف ، وبها قال الشعراء الجاهليون مانظموه من الشعر ففهمه عنهم الناس ، وتناقله الرواة ، أما اختلاف العدنانية عن القحطانية فيما قبل القرن الاول من المسيح فمن الجائز حدوثه في كثير من الكلمات ولكن مرور الزمن قد ساعد على تلافي هذا الاختلاف ، ومرور أربعمائة عام وأكثر مما يبدل حالا عن حال ٠

وقد كانت مناقشة الاستاذ محمد طاهر نور للدكتور طه حسين بشأن تقديم نص حميري يثبت مخالفة اللغتين حافزة له أن يستعين ببعض أصدقائه المستشرقين كي يعثروا له على نص قديم يثبت هذه المخالفة ، لأنه عجز أن يقدم هذا النص حين طلبته منه النيابة ، وثبت ذلك في محضر التحقيق ، وقد أسعفوه بما ظنه يحل الاشكال ، فنشر في كتاب

الأدب الجاهلي نصا قدم له كعادته تقديما صاخبا مفرقعا فقال عن ناقديه (١) (هؤلاء المارون لايستطيعون أن يطمئنوا الى ماطمأن اليه أبو عمرو بن العلاء من وجود الخلاف الجوهري بين العربية والحميرية ولايريدون أن يصدقونا حين ننبئهم بأن العلم الحديث قد أثبت ماكان يقوله أبو عمرو ، وانما يريدون أن يقرءوا نصوصا حميرية وأن يتبينوا بأنفسهم مواقع الخلاف) ثم ذكر نصا أورده الاستاذ جويدي الكبير في بعض محاضراته لانحتاج الى سرده ، ولكننا نسأل الدكتور هل يعرف الزمن الذي قيل فيه هذا النص ، وهل لديه مايثبت أنه قيل في عصر الشعر الجاهلي المتداول بيننا ، واذا لم يستطع الدكتور أن يثبت ذلك ، فقد سقطت حجته لأن الجميع معترفون بأن اللغتين كانتا مختلفتين فيما قبل ميلاد المسيح ثم مضت قرون عدة ساعدت على الامتزاج ، كيف غاب عن الدكتور هذا الامر الواضح وقد ذكره كل ناقديه فيما كتبوه من مقالات الرد وكتب النقض ؟ أيكون غافلا لم يقرأ ماكتبه محمد الخضر حسين ورفقاؤه حين قال قائلهم (٢)

(لاننازع فيما دلت عليه الآثار المخطوطة من أن اللغة القحطانية كانت كلغة أجنبية عن العدنانية ، كما أن مرجليوث والمؤلف لاينازعان في أن اللغتين اشتد الاتصال بينهما بعد ظهور الاسلام ، وأصبحتا لغة واحدة ، والذي نراه قابلا لأن يكون موضع جدال بيننا وبين مرجليوث والمؤلف هو حال الاختلاف بين اللغتين في عهد يتقدم ظهور الاسلام بعشرات من السنين ، فنحن لانرى مايقف أمامنا اذا قلنا ان الاختلاف قد خف لذلك العهد وزال منه جانب من هذه الفوارق ولم تبق القحطانية من العدنانية بمكان بعيد)

---

(١) الأدب الجاهلي ص ٨٥

(٢) نقض الشعر الجاهلي لشيخنا الخضر ص ٧١

أما تمسك الدكتور بقول أبى عمرو بن العلاء فقد فنده الاستاذ محمد أحمد الغمراوي حين أصر عليه الدكتور فردده في الادب الجاهلي كأنه دليل ينهض بحجته فقال الغمراوي (١)

(أبو عمرو ، قال بوجود خلاف جوهري بين العربية والحميرية ، والبحث الحديث أثبت قول أبي عمرو ؟ ليت شعر النقد ما تاريخ الحميرية التي أراد أبو عمرو ، وما تاريخ الحميرية التي عنى البحث الحديث ؟ .. ثم ماقيمة تأييد البحث الحديث لأبي عمرو اذا كانت الحميرية التي يقصدانها ليست حميرية القرن الخامس بعد الميلاد وهو عهد الأدب الجاهلي المعروف ، ولكن حميرية القرن التاسع أو السادس قبل الميلاد ؟ أفيكون من العلم عندنا في شيء أن يستدل على بطلان شعر امريء القيس وغيره من شعراء اليمن بأن لغة شعرهم ليست لغة اليمن قبل زمنهم بعشرة قرون ، ومع ذلك فهذا هو الذي فعله صاحب الكتاب .)

لا اخال موضوع اللغة والشعر الجاهلي بعد هذا الجدل المقنع في حاجة الى المزيد .

---

(١) النقد التحليلي ص ١٧٠

اللهجة والشعر الجاهلي

في الفصل الماضي رأينا كيف شاء الدكتور أن يظهر عظم الاختلاف بين لغة العدنانيين ولغة القحطانيين لينتهي الى أن ماروي من شعر القحطانية مكذوب حين لايتفق مع لغتهم التي كانوا يتخذونها في الشعر الحديث ، وفي هذا الفصل سنرى كيف حرص الدكتور على أن يثبت اختلافا في اللهجة بين القبائل العدنانية نفسها ، لينتهي الى الطعن فيما روي عن هؤلاء العدنانيين أيضا وذلك ماعناه حين قال (١)

والرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة ، قبل أن يظهر الاسلام فيقارب بين اللغات المختلفة ، ويزيل كثيرا من تباين اللهجات ، وكان من المعقول أن تختلف لغات العرب العدنانيين وتتباين لهجاتهم قبل ظهور الاسلام ، ولا سيما اذا صحت نظرية العزلة العربية ، وثبت أن العرب كانوا متقاطعين متنابذين وأنه لم يكن بينهم من أسباب المواصلات المادية والمعنوية مايمكن من توحيد اللهجات .

فاذا صح هذا كله كان من المعقول جدا أن تكون لكل قبيلة من هذه القبائل العدنانية لغتها ولهجتها ومذهبها في الكلام ، وأن يظهر اختلاف اللغات ، وتباين اللهجات في شعر هذه القبائل الذي قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ، ولهجات متقاربة ، ولكننا لانرى شيئا من ذلك في الشعر العربي الجاهلي ، فأنت تستطيع أن تقرأ هذه المطولات

---

(١) في الادب الجاهلي ص ٩٣

أو المعلقات التي يتخذها أنصار القديم نموذجا للشعر الجاهلي ، فسترى أن فيها مطولة لامرىء القيس وهو من كندة أي من قحطان ، وأخرى لزهير ، وأخرى لعنترة ، وثالثة للبيد ، وكلهم من قيس ، ثم قصيدة لطرفة وقصيدة لعمرو بن كلثوم ، وقصيدة أخرى للحارث بن حلزة وكلهم من ربيعة ، تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء يشبه أن يكون اختلافا في اللهجة أو تباعدا في اللغة ، أو تباينا في مذهب الكلام ، لأن البحر العروضي هو هو ، وقواعد القافية هي هي ، والالفاظ مستعملة في معانيها كما تجدها عند شعراء المسلمين والمذهب الشعري هو هو كل شيء في هذه المطولات يدل على أن اختلاف القبائل لم يؤثر في شعر الشعراء تأثيرا ما ، فنحن بين اثنين ، اما أن نؤمن بأنه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان لا في اللغة ولا في اللهجة ولا في المذهب الكلامي ، وأما أن نعترف بأن هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل وانما حمل على الاسلام حملا ، ونحن الى الثانية أميل منا الى الاولى فالبرهان القاطع قائم على أن اختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس الى عدنان وقحطان ، يعترف القدماء بذلك كما رأيت أبا عمرو بن العلاء ويثبته البحث الحديث)

هذا هو لباب ما جاء به الدكتور طه في باب اللهجات لأنه تطرق بعد ذلك الى الخوض في قراءات القرآن فشذ في كثير مما قال دون أن يتطلب جوهر بحثه هذا الشذوذ ، ولو أخلى كتابه من هذه المناقضات المتحدية لكسب قارئه ، ولكن قلمه يسبق الى مالا يتطلبه البحث سبقا نحار في تعليله ، ثم ان حديث اللهجات في كتابه لايكاد يخرج عن حديث اللغة الذي خصه بفصل سابق ، غير أنه فيفصل اللهجات يريد أنيثبت الخلاف في العدنانية وحدها وهو في فصل اللغة يريد أن يثبت الخلاف في العدنانية والقحطانية ، والذين قاموا بنقد آراء الدكتور قد أوقفوه على مقطع الحق فيما هجس به ، وكان عليه وفقا لما سفر على أيديهم من الصواب أن يراجع ماكتب فيما أصدر بعد من طبعات الكتاب ، ولكن

الذي نستغربه كل الاستغراب أن يتقدم الدكتور بالشبهة يظن أنها الحق ثم يجد من يهديه الى حقيقة اشتباهه ، ويأتي بما لاينكر من الادلة القاطعة ، فيأبى الدكتور أن يراجع ماكتب وقد قامت على تخطئةالبراهين

سنقدم اليوم للقراء ناقدا جديدا لم نستشهد قبل بآرائه ، هو الاستاذ الكبير محمد الخضري صاحب المحاضرات التاريخية والمؤلفات العلمية المشتهرة ، حيث أصدر كتابا لطيفا عن آراء الدكتور في الشعر الجاهلي ، وكان يعتزم أن يلقى كتابه على طلاب الجامعة ليريهم فساد ماتورط فيه أستاذهم ، وقد رحبت الجامعة بدءا باقتراح الشيخ الخضري وأعلنت عن موعد محاضراته ، ولكنها اعتذرت بعد أن استعد الاستاذ وتهيأ ، فرأى أمانة للعلم ورعاية للطلاب ، أن يطبع محاضراته في أوراق يذيعها على الناس ، وقد صدرت تحت عنوان (محاضرات في بيان الاخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلى) وهي الآن لاتكاد توجد الا عند الخاصة ، ولكنها أصابت المقطع في مواطن كثيرة ، وسنعتمد على قول هام جاء فيها بصدد اللهجات ٠

يقول الاستاذ الكبير محمد الخضري رحمه الله :

(قبل أن نناقش هذا البرهان (كلام الدكتور في اختلاف اللهجات) نبين للقراء ماالفرق بين اللغة واللهجة حتى يتضح سبيل الكلام ٠

أما اللغة فيراد بها الالفاظ التي تدل على المعاني من أسماء وأفعال وحروف ، والنحو وهو طريق تأليف الكلمات واعرابها للدلالة على المطلوب ، والصرف وهو مايصيب حروف الكلمات من تغيير بابدال أو حذف ، هذه هي اللغة ٠

وأما اللهجة فهي طريق أداء الكلمة الى السامع مثل امالة الفتحة والألف أو تفخيمها ، ومثل تسهيل الهمزة أو تحقيقها ، ولا تلازم بين

اختلاف اللغات واختلاف اللهجات ، فقد تكون اللغة متحدة ، واللهجات مختلفة ، وقد ذكر الاستاذ في هذه المقدمة مايشمل الأمرين جميعا ، وان كان عنونها بقوله (الشعر الجاهلي واللهجات)

يقول المؤلف (فالرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ، ولا متفقة اللهجة قبل الاسلام) من هم هؤلاء الرواة ؟ وما نصوصهم لنرى هذا التخالف الذي أجمعوا عليه في لغة العرب العدنانية قبل الاسلام ، أهو في الكلمات ؟ أم في النحو والصرف ؟ أم في اللهجات وحدها ؟ كل ذلك يغفل في برهان مقدمة يراد بها الهدم ، وليس هكذا يدلى بالعلم الى الجمهور ولا بمثل هذا يهدم ماعنده •

ثم ينطق أستاذنا الخضري بالقول الفصل اذ يقول :

ولا ندري كيف يظهر في الشعر تباين اللهجات ، فان اللهجة كما قدمنا انما هي مايرجع الى الأداء والشيء الواحد قد يؤدي بلهجات مختلفة وهو هو في حركاته وسكناته ، كما اختلف الأداء في القرآن نفسه ، والقرآن هو هو ، قد أحادث مغربيا ، وقد ينشد لي شعرا فلا أكاد أفهمه لأن له لهجة خاصة ، ولكنه لو كتب الي ماتحدث به أو أنشده لم أجد أدنى صعوبة في فهمه ولوجدته مماثلا للغتي لايمتاز عنها لا في كلماته ولا نحوه ولا صرفه فقوله ــ أي الدكتور طه ــ بعد ذلك (نستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع بدون أن تشعر بشيء يشبه أن يكون اختلافا في اللهجة) كلام بعيد عن التحقيق العلمي ، بل هو ليس بمفهوم اذ كيف أشعر باختلاف اللهجة ، وأنا أقرأ أشعارهم ، انما أشعر بها اذا أنشدها قائلوها واستمعتها منهم (١)

بهذا الوضوح الحاسم أجهز الشيخ محمد الخضري على ماكتبه

---

(١) محاضرات في بيان الاخطاء العلمية والتاريخية للاستاذ الخضري ص ١٣

الدكتور في موضوع اللهجات ، لأن أساس هذا الموضوع في رأي الدكتور أن الشعر الجاهلي لايبين مدى اختلاف اللهجات في القبائل العربية ، فهو اذن لم يصدر عن الجاهليين ، وها هو ذا الاستاذ الخضري يعرف اللهجة ويبين أنها شيء يسمع ولا يكتب ، واذن فما هو مكتوب لدينا من الشعر الجاهلي لايصح أن نستدل به على لهجات القبائل اذ ليس لدينا أشرطة تسجل النطق ، وانما لدينا أبيات مكتوبة ، وقد رويت بما وافق الذوق العربي الفصيح ·

واذا كان الاستاذ الخضري قد فرق بين اللهجة واللغة بما أوضحناه فيما نقل عنه ، فان نفرا من اللغويين لم يفرقوا بين الاثنتين على نحو ماصنع ، بل جعلوا اللهجة فرعا عن اللغة ، وأخذوا يذكرون ذلك في اختلاف اللهجات عند العرب ، والكتب الخاصة بفقه اللغة تشبع الحديث عن هذا الاختلاف وتعد من أنواعه مالا يندرج تحت حصر فهي تذكر الكشكشة عند ربيعة ومضر ومعناها زيادة حرف الشين بعد كاف الخطاب والعنعنة عند تميم وقيس وهم يجعلون العين مكان المهزة التي يبتدأ بها والعجعجة عند قضاعة ، اذ يجعلون الياء المشددة جيما ، والوتم في لغة اليمن يجعل السين تاء ، والوكم في لغة ربيعة ، وكذلك مايقال عن الاستنطاء والتلتلة وأشياء أخرى تملأ الكتب ، وكل ذلك قد هجر حين اختلط العرب في الاسواق ومواسم الحج ، وأخذوا يهذبون الالفاظ تهذيبا يدفع الى اختيار الافصح والابلغ ، وحين نزل القرآن لم يفاجئهم بالغريب من اللغة واللهجة بل بأرقى ماتعارفوا عليه وقد استمعوا اليه ففهموه وتناقلته الوفود في بطن الجزيرة دون أن تجد في ألفاظه مايستعصى على الحل ، فاذا كان القرآن قد نزل بلغة متعارفة ، واذا كانت المواسم الدينية والاسواق التجارية قد جمعت الناطقين على أفصح مايقال فلا بدع أن يكون الشعر الجاهلي قبيل البعثة سائرا على نهج اللغة المختارة ، وما شذ فيه عنها قد عرف وعلل ، وأطنبت كتب اللغة في تسجيله كظاهرة كانت ثم انقرضت ؟ أفبعد هذا كله يجوز للدكتور أ نيتساءل عن

اختلاف اللهجات في الشعر الجاهلي ، وهو يعلم أن لغة فصيحة قد سادت ونزل بها القرآن ٠

على أن من الغريب أن يقول الدكتور (ان الرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل الاسلام) وقد تساءل الشيخ محمد الخضري عن هؤلاء الرواة ؟ ومتى كان اجماعهم ؟ اذ أن الشيء المجمع عليه لابد أن يستفيض حديثه في شتى الكتب وكأن الدكتور قد رد بما ذكر في الأدب الجاهلي ص ٩٣ من أن السيوطي قد ذكر ذلك في المزهر ، وحديث السيوطي يرجع الى العربية الاولى قبل أن تتعارف القبائل ويتصل بعضها ببعض في الاسواق ، فكيف يعتبره الدكتور شاملا لما قبل البعثة النبوية بقرن ونصف ، اذوجدّ من العوامل التجارية والبواعث الدينية ما ساعد على التعارف والاجتماع ، ولأمر ما خالف الدكتور هذا المتعارف وذكر أن العزلة بين القبائل كانت قائمة فلا تواصل ولا تشافه ، أجل يعترف هنا بأن العزلة بين القبائل كانت تمنع الاتصال ، ولكنه في باب (القرآن مرآة الحياة الجاهلية) يعترف بأن العرب كانوا أصحاب رحلات وانتقالات يذهبون للحبشة والروم وفارس ويصحب بعضهم بعضا ، أتكون العزلة ممتنعة في موضع ، وواجبة في موضع آخر لنصل الى نتائج مسرفة لاتجد البرهان ٠

وقد رجع الدكتور الى كتاب تاريخ آداب العرب للاستاذ الرافعي وأثنى على بعض فصوله كما أشرنا لذلك من قبل ، أفلم يقرأ به حديث الاجتماعات الدينية والتجارية والادبية التي ساعدت على تنقية اللغة وتهذيبها حتى استوت على وجه دقيق ، ليقرأ ان شاء قول الرافعي (١) (وكانت تلك القبائل بطبائعها متباينة اللهجات ، مختلفة الأقيسة المنطقية المودعة في غرائزها فكان قريش يسمعون لغاتهم ويأخذون

---

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٨٥

مااستحسنوه منها فيديرون به ألسنتهم ويجرون على قياسه ، ولو كانوا بادين كسائر القبائل مافعلوه ، ولكن نوع الحضارة الذي اكتسبوه من تاريخهم ألان من طباعهم ، وكسر من صلابتهم ، فاتفقت في ذلك حياتهم اللغوية ، وحياتهم الاجتماعية القائمة بالتجارة وتبادل العروض مع أصناف الناس فلما اجتمع لهم هذا الامر ارتفعت لغتهم عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبحها ، وبذلك مرنوا على الانتقاد حتى رقت أذواقهم ، وسمت طبائعهم ٠٠ وكانت لهم رحلتان في التجارة كل عام ، رحلة الشتاء الى اليمن ، ورحلة الصيف الى بصرى وحوران وكذلك كانوا يضربون في الارض الى فارس والى الحبشة فسمعوا مناطق الناس وتدبروا وجوه العذوبة في أعذبها ٠٠٠ وعلى ذلك صاروا بطبيعة أرضهم في وسط العرب كأنهم مجمع لغوي يحوط اللغة ويقوم عليها ويشد أزرها)

على أن مؤرخي العرب ليسوا وحدهم الذين يثبتون وجود لغة عربية واحدة فيما قبل البعثة المحمدية بقرنين ، بل ان أكثر من خاضوا في تاريخ اللغة العربية من الفرنجة يذهبون هذا المذهب عن يقين ، وقد تتبع الاستاذ محمد الخضر حسين أقوال (سيديو) صاحب (خلاصة تاريخ العرب) و (تشارلس ليال) في مقدمة المفضليات و (ادوار براونلشر) في رده على مرجليوث ليثبت اجماع هؤلاء على وجود لغة واحدة قد اتفقت عليها جميع القبائل كما نقل الشيخ محمد الخضر حسين عن دائرة المعارف الاسلامية هذا النص (١)

(نتساءل كيف أمكن الشعراء وأكثرهم أميون ، أن يوجدوا لغة أدبية واحدة ؟ فعلوا ذلك رغبة منهم في انتشار أشعارهم بين جميع القبائل ، وهم اما أن يكونوا قد استعملوا كلمات وجدت في جميع لهجات

---

(١) نقض الشعر الجاهلي للشيخ الخضر ص ١٠٢

القبائل بسبب الصلات التجارية بين القبائل المختلفة فأتى الشعراء وهذبوها واما أنهم اختاروا بعض لهجات خاصة فأصبحت هذه اللهجة لغة الشعر ٠

ثم يقول (كان جميع سكان جزيرة العرب في أوائل القرن الخامس للميلاد لهم لغة واحدة هي لغة الشعر ويمكننا القول بأنها نشأت تدريجيا بمناسبات واختلاطات بين القبائل المختلفة مثل هجرة القبائل في طلب المرعى ، وحجهم السنوي الى أماكنهم المقدسة أمثال مكة وعكاظ ويظهر أن هذه اللغة اشتقت من لهجات كثيرة)

ومؤلف الشعر الجاهلي يعترف بما قاله الشعراء في عصر النبوة من مؤيدين ومعارضين ، ويرى قولهم المشتهر غير منتحل ، فاذا كان القرآن الكريم هو الذي وحد اللهجات بلغاتها على حد قوله فكيف اتخذ لغته هؤلاء الذين عارضوه من الشعراء ، ولم يصطنعوا ماورثوه من العهد الجاهلي وكيف جاء قولهم مطردا منسجما مع لغة القرآن وكانوا يبغضونه وأقل شيء لدى صاحب البغض أن يتمسك بلغته ولهجته لا أن يتخذ لغة يراها مصدر شر على دينه ورأيه ، ثم ألا يرى الدكتور أن ظهور شعر بلغة القرآن ولهجته لا يأتي طفرة واحدة بل لابد من تمهيد يتقدمه وهذا التمهيد يكون سابقا غير لاحق ، والسبق لن يكون الا في العصر الجاهلي حين سادت لغة قريش ونظم بها أمثال النابغة وزهير وعنترة والأعشى ، فيأتي المخضرمون لينهجوا سننهم المطروق ، وما رأي الدكتور في مثل حسان بن ثابت وقد عاش ستين عاما في الجاهلية وستين مثلها في الاسلام وقال الشعر في الحقبتين المتواليتين ، أيكون شعره في الجاهلية قد نظم بطريقة تبين اختلاف اللغات وتباين اللهجات ثم غير نهجه فجأة فنظم في الاسلام بطريقة القرآن ، أن ديوانه ودواوين المخضرمين جميعا لاتعطي الدكتور شبهة واحدة تنهض معه كدليل ضئيل ٠

ونحار كل الحيرة في قول الدكتور طه (نستطيع أن نقرأ القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء يشبه أن يكون اختلافا في اللهجة أو تباعدا في اللغة أو تباينا في مذهب الكلام لأن البحر العروضي هو هو ، والقافية هي هي) لأنه افترض أن يكون الشعر الجاهلي ذا وزن غير معهودا ، وذا قواف غير التي تتداول ، وقد يكون هذا صحيحا في الطور الاول للشعر قبل عشرة قرون من البعثة النبوية حتى استطاع الفحول أن يمضوا بالشعر على سننه المألوف ، هذا السنن الذي شاع فيما نعرف في زمن الجاهلية الاخير ثم اطرد عليه ماجد من شعر في الاسلام ، واذا كان البحر العروضي والقافية الشعرية لم يتغيرا في الشعر العربي حتى الآن ، وقد مضى على ظهور الاسلام أربعة عشر قرنا فأكثر ، أيوجب الدكتور أن تتغير القوافي والبحور فجأة بمجرد ظهور الاسلام احتذاء للغة القرآن ، مع أن القرآن شيء والشعر شيء آخر ، ولكل منهما أسلوب لاينكر تميزه باحث جاد •

واذا كان الدكتور يرى أن اللغة قد اتحدت ، واللهجة قد ائتلفت بمجرد ظهور القرآن اذ جمع العرب على لغة واحدة بحيث اقتفى المخضرمون من أعدائه أثره ، فلماذا لايرى أن اجتماع العرب في الاسواق والمواسم في مدى قرنين قد استطاع أن يوحد بين العدنانية والقحطانية حتى تلاشت الفوارق أو كادت فنطق الشعراء بلغة واحدة هي التي نظمت بها المعلقات وأشباه المعلقات ألا يجد الدكتور من سنن الاجتماع وقواعد العمران مايجعل هذا التقارب شيئا طبيعيا غير مستغرب ؟ أم يصر على أن التقارب حصل فجأة بمجرد نزول آيات من القرآن وحدت اللغة جميعها فاقتفاها المؤيدون والمعارضون ، واذا سكت الدكتور عن الاجابة عن هذا السؤال الحاسم فعلى القاريء المنصف أن يجيب •

السياسة وانتحال الشعر

أخذ الدكتور طه حسين يتحدث عن الاسباب الداعية لانتحال الشعر فأتى بمقدمة مقارنة تتحدث عن اليونان والرومان والعرب ، يثبت فيها ماحققه المؤرخون من انتحال واضح في قديم المأثور من أدب هذه الامم ، وقد أطال في ذلك اطالة من يظن أن الانتحال في الشعر العربي كان شيئا جديدا على الدارسين من أبناء العرب حتى اكتشفه هو بنفسه وقد ترك موضوعه الى تكرار تعود أن يلجأ اليه فذكر أننا لابد أن نصطنع المنهج العلمي كما يصطنعه أبناء الغرب ، سواء كرهنا أم أبينا ، وأن لدينا عقليات تؤثر القديم ، ولابد أن تتطور ، وأن الجهود الفردية أخذت تتجه الى البحث الغربي ولابد أن يكون هذا الاتجاه جماعيا لافرديا ، وموضع الخطأ في حديث الدكتور أنه كتب كثيرا مما ينحو هذا النحو في مقدمة الكتاب ، وما تلاها من فصوله ، فمحاولة تكراره ازعاج للقارىء الذي يريد أن ينتهي الى جديد في كل فصل ، ثم ان البحث العلمي لايعترف بهذه الثرثرة الادبية اذا أخذت تتكرر دون داع وأسلوب الدكتور واضح سهل يفهم لأول وهلة ، ففيم هذا اللجاج ؟ وعلام يلح في أن كتابه لايرضي الكثرة من القراء ، وأنه لايضيره ألا يرضيهم ، ثم لاينهي المقدمة دون الحديث عن ديكارت ومنهج ديكارت ، مرددا ماسبق به منذ حين .

أما حديثه عن السياسة وأثرها في انتحال الشعر فقد ألم في طول زائد بالدعوة الاسلامية في مبدأ حياتها فتحدث عن جهاد الرسول في مكة وعن مؤازرة الانصار له في المدينة ، وتورط في أمور غاب وجه الصواب عنه فيها اذ زعم أن حروب الاسلام في حياة الرسول كانت لعداوة بين

الانصار بالمدينة وقريش بمكة ، وهذا خطأ فادح لأن معارك الرسول كانت مبدئيا بين قريش المدينة من المهاجرين ، وقريش مكة من المشركين ، أما الانصار فقوم آمنوا بالله وأيدوا الرسول في جهاده ، فالخصومة خصومة دين لاخصومة بلدتين تتنافسان وتتسابقان ، وفي نسق خطابي غير متئد شرع الدكتور يعلن أن هجرة الرسول الى المدينة وضعت الخلاف بين النبي وقريش وضعا جديدا فجعلت الخلاف سياسيا يعتمد في حله على السيف بعد أن كان يعتمد على الجدال ، وقد أحست قريش أن الامر تجاوز الاوثان الى السيادة السياسية والاقتصادية ، والطرق التجارية بين مكة والبلاد التي ترحل اليها العير ، فأصبح موضوع النزاع ليس مقصورا على أن الاسلام حق أو غير حق ، بل صار يتناول الامة العربية الحجازية ولمن تذعن ، والطرق التجارية ولمن تخضع وقد أدى هذا الى نشوء عداوة بين قريش وأهل المدينة ، واصطبغت هذه العداوة بالدم يوم انتصر الانصار على قريش في بدر ، ويوم انتصرت قريش في أحد ، واشترك الشعر في هذه العداوة مع السيف ، فوقف شعراء قريش وشعراء الانصار يتهاجون وكان رسول الله — في زعم الدكتور — يحرض شعراء المسلمين على الهجاء ، ويعدهم بالاجر عند الله كما يعد المقاتلين •

ثم اندحرت قريش ، ولم توفق في حرب المدينة حتى فتحت مكة ، ودان الامر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم زعماء المشركين ، اذ رأى أبو سفيان أن من الحزم أن يصانع ويصالح ، ولعل النبي لو عمر بعد الفتح لاستطاع أن يمحو ضغائن الفريقين ، ولكنه توفي ولم يضع دستورا لهذه الامة ولا قاعدة للخلافة ، فعادت الضغائن بين الانصار وقريش من جديد •

ومضى الدكتور في غلوائه فذكر أن المنافسة قد اشتدت بين الانصار والمهاجرين يوم السقيفة وأن الانصار قد أذعنوا للقوة المادية التي كانت

في جانب قريش ، ولكن الخصومة لم تذهب بل ظلت تتخذ ألوانا مختلفة اذ أخذ حسان بن ثابت وأخذ فريق من الانصار والقرشيين يتذاكرون ماكانوا يتهاجون به من الشعر أيام النبي حتى نهاهم عمر بن الخطاب لأنه قرشي تأبى عصبيته أن تهجى قريش ! هكذا جرؤ الدكتور أن يقول .. اى والله .

ثم أطال في قصة وقعت بين عبد الرحمن بن حسان ومعاوية بن أبي سفيان حين شبب الاول بابنة الثاني وعرج على موقف يزيد من الانصار واقتراح عمرو بن العاص أن يمحى وصف المدنيين بالانصار وهياج النعمان بن بشير على معاوية ، ثم ماكان من موقعة الحرة حين عدها الدكتور انتصارا لقريش على المدينة وأخذا بالثأر ، وبعد تخبط كثير في مثل هذه الاستنتاجات المخطئة انتهى الدكتور الى قوله (١) (ومهما يكن من شيء فان هذا الفصل الطويل ينتهي بنا الى نتيجة نعتقد أنها لاتقبل الشك ، وهي أن العصبية وما يتصل بها من المنافع السياسية قد كانت من أهم الاسباب التي حملت العرب على نحل الشعر للجاهليين ، وقد رأيت أن القدماء قد سبقونا الى هذه النتيجة وأريد أن ترى أنهم قد شقوا شقاء كبيرا فابن سلام يحدثنا بأن أهل العلم قادرون على أن يميزوا الشعر الذي ينحله الرواة في سهولة ولكنهم يجدون مشقة وعسرا في تمييز الشعر الذي ينحله العرب أنفسهم)

لعل من أصعب مايستطاع تعليله في هذا الفصل المضطرب من كلام الدكتور أنه من أوله الى آخره خارج عن موضوع كتابه ، لأن كتاب الشعر الجاهلي أو الادب الجاهلي قد وضع ليبحث في الاشعار المنسوبة للجاهليين وكان من المنتظر أن يذكر المؤلف شعرا منحولا نسب الى الجاهلية بسبب السياسة ، ويلم بأسباب هذا الانتحال ، ولكن الصفحات تكر وراء الصفحات ، والمؤلف ينساق الى أمور دينية ، وأخرى تاريخية

---

(١) في الادب الجاهلي ص ١٣٢

يأتي بها على غير وجهها الصحيح ، والقارىء يتصبر ويتجلد عله يجد شيئا يمس موضوع الكتاب ، ثم يطول الكلام ويمتد دون أن يذكر المؤلف بيتا جاهليا واحدا انتحل لغرض سياسي ، وكل ماذكره أبيات اسلامية شك في ثلاثة أو أربعة منها ، فكيف جاز لأستاذ يدعو الى المنهج العلمي في البحث ويشن الغارة خلف الغارة على من يسميهم أنصار القديم أن يخرج عن موضوعه خروجا مشتطالا تفهم دواعيه ، ماالذي جعل المؤلف يتحدث عن خصومة الانصار وموقعة الحرة ، ووفاة الرسول ، وولاية أبي بكر ، ومهاجاة حسان ، دون أن يكون لذلك أدنى صلة بشعر منحول يرى أنه قد افتعل وأضيف للجاهليين ، هذا صنيع عجيب وقف أمامه ناقدو الكتاب بحيث لايفهمون علة واهية لاستطراد ممتد لاصلة له بموضوع الكتاب ، ولم يقدم في قضية الشعر الجاهلي شروى نقير .

يقول الاستاذ الخضر متعجبا (١) (عقد المؤلف الفصل في نحو عشرين صفحة قضاها في الحديث عن أمر كتب فيه القدماء والمحدثون ، ولم يستطع أن يضرب في هذا الفصل الطويل مثلا لشعر جاهلي اخترعته نزعة سياسية وقد أدرك أنه لم يجر في حديثه تحت عنوان ما كتب ، ولم يأت بمقدمات تنتج أن في الشعر الجاهلي مااصطنع لغاية سياسية فقال (ينتهي بنا الى نتيجة نعتقد أنها لاتقبل الشك وهي أن العصبية وما يتصل بها من المنافع السياسية قد كانت من أهم الاسباب التي حملت العرب على انتحال الشعر واضافته الى الجاهليين)

وأزيد على قول الخضر فأتساءل : اذا كانت النتيجة لاتقبل الشك فلم لم يذكر المؤلف بيتا واحدا نسب للجاهلية بسبب ماأفاض فيه من حديث الانصار والمكيين ؟ وفيم كان عناؤه الطويل ؟ على أن ماذكره طي بحثه من الامور الدينية والتاريخية كان صدمة لذوي الانصاف ، اذ بعد به عن الحقيقة بعدا طال أمده ، وقد وجد من ناقديه ـ شهد الله ـ

---

(١) نقض الشعر الجاهلي ص ١٨٤

قدرة وافحاما ، فكلهم قد استطاع أن يمحو قتام هـذا الفصـل بالحجة الناصعة ، والرأي الفصل ، ولو كان لدينا تاريخ منصف لذوي النقد الهادف لكان ناقدو الدكتور في طليعة من أنجبهم هذا العصر من فطاحل الناقدين ، ولكن لأمر مايتناساهم مؤرخو النقد ، وهو ماهم في دنيـا الباحثين ، وسنعاقب بين أقوالهم في هذا الموضوع ليقف القارىء عـلى شذور من هديهم القويم ٠

لقد أطال المؤلف في حديث الانصار اطالة مستغربة ، كأن كتابه قد خط لتأريخهم وحده ، ومهد لقوله بما زعمه من أن الدعوة بمكـة كانت دينية خالصة ، وبالمدينة تعدت الدين الى السياسة ، بدليـل أن المسلمين بمكة قد صبروا على الاذى واستكانـوا ، ولكنهم بالمدينـة جاهدوا وحملوا السلاح ، وهو قول واهن دفعه الاستاذ الغمراوي حين قال (١) (كأن المسلمين حين صبروا في مكة لم يصبروا طوعا لأمر الله وحين قاتلوا في المدينـة لم يقاتلوا بأمـر الله ، أو كـأن الـذي أنزل (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ،) ليس هو الذي أنزل (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله) والا فما معنى انكار صاحب الكتاب أن يكون من الدين مايعلـم النـاس أجمعون أنه في الاسلام من الدين ، وهل كان النبي وحزبه يسـرون الطمع في الملك ، والتغلب والقهر ماكانـوا ضعفاء بمكـة فلمـا قوي أمرهم بالمدينة أظهروا ماكانوا يسرون !)

ثم دار الدكتور في أوهام خاطئة حين جعل انتصـار المسلمـين في بدر انتصارا للانصار على قريش ، وجعل انتصار المشركين في أحـد انتصارا لقريش على الانصار ، والمسألة لم تكن غير معارك بين الايمان والكفر ، فالقرشيون المهاجرون كالانصار يقاتلون تحت راية واحدة ، وقريش ومن التف حولها من الاحلاف يحاولون أن يطفئوا نور الله بما

---

(١) النقد التحليلي ص ٢٢٠

يملكون من قوة وبأس ، ثم مرت الايام ورجحت كفة الحق ففتحت مكة ونعم المسلمون أنصارا وقرشيين بنصر الله ، ومازالوا اخوانا متحابين حتى انتقل الرسول الى الرفيق الاعلى وتجمع المسلمون لاختيار خليفة رسول الله ، ودار نقاش منتظر بين جميع الاطراف انتهى في سلام باختيار أبي بكر ، ولكن المؤلف يرى مالايرى المنصفون حين زعم أن الانصار قد خضعوا في اختيار أبي بكر للقوة المادية عن غير سماح فقال عن الفريقين (١) (وكان الامر يفسد بين الفريقين ، لولا بقية من دين ، وحزم نفر من قريش ، ولولاأن القوة المادية كانت يومئذ لقريش فما هي الا أن أذعنت الانصار ، وقبلوا أن تخرج منهم الادارة لقريش) وهو قول مخطىء بدده الاستاذ محمد الخضر حسين حين قال (٢)

(القوة المادية هي الجند والسلاح والمال ، ولم يكن هناك جيش تحت امارة وزير أو قائد قرشي وانما هي الامة تنفر للجهاد ، وعندما تضع الحرب أوزارها يعود كل واحد الى حرفته ، ولم يكن هناك خزائن للسلاح مفاتيحها بيد رجل من قريش ، بل كان سلاح كل أحد في يده أو بيته ، ولم يكن السلاح الذي بأيدي قريش أجود من السلاح الذي كان يحمله الانصار وسائر القبائل العربية ٠٠ فان قال المؤلف أريد من القوة المادية أن قريشا كانت أكثر من الانصار عددا ، قلنا الرواية الموثوق فيها تقول : ان المجتمعين في سقيفة بني ساعدة طرحوا مسألة الخلافة على بساط الشورى فاختلف المؤتمرون أين تكون الخلافة ؟ ولمن تكون ؟ واشتدت رغبة سعد بن عبادة في أن يتقلد الامارة على الانصار ، ولما احتدم الجدال بسط عمر بن الخطاب يده وبايع أبا بكر فتتابع الحاضرون من المهاجرين والانصار على مبايعته ، ولم يتخلف عنها سوى سعد بن عبادة)

---

(١) في الادب الجاهلي ص ١٢٠

(٢) نقض الشعر الجاهلي ص ١٥١

ويزيد الاستاذ محمد لطفي جمعة الامر ايضاحا حين يقول في كتاب (الشهاب الراصد) (١)

(اذا نظرنا الى أنظمة الحكم اليونانية والرومانية والى القوانين النيابية الحديثة فلن تجد اجماعا أقوى من اجماع الامة بأسرها ماعدا واحدا يوم مبايعة أبي بكر الصديق ، فان هذا الواحد لايعد أقلية ، ولا يعد معارضا ، ومعظم قوانين العالم القديم والحديث نافذة بالاغلبية المطلقة في أحوال ، وبالأغلبية النسبية في أخرى ، فهل قرأ طالب أو عالم في كتب التاريخ وفي صحف الاخبار أن دولة قامت ، أو حكومة تشكلت ، أو قانونا صدر ، دون معارضة فريق من أهل الرأي في التشريع ، ولو في أحرج الاوقات ، بيد أنهم يخضعون للقانون بعد اصداره ولو كانوا مخالفين فيه ، وهذه كانت حال سعد بن عبادة ، فلم نقرأ في تاريخه مايدل على سعيه في ثورة أو فتنة)

على أن الدكتور قد أسرف فيما توهمه عن الانصار ، فأخذ يتصيد روايات أكثرها موضوع لينطقها بما لايقبل ، وقد لاحظ ناقدوه أنه يعتمد على الباطل الزائف من الاخبار ، فرواية واهنة من الاغاني وما شابهه تكون لديه حقا لامرية للشك فيه ، وتبحث عن منهج ديكارت حينئذ فتجده قد طار في الفضاء ، وهذا ماأخذه على الدكتور أصدقاؤه أنفسهم حين أكدوا له اهتزاز منطقه اذ يعصف برواية تاريخية ويقبل مثيلتها دون ترجيح ، وحديثه عن حسان ونجله عبد الرحمن وما دار من القصص حول هذا النجل لايثبت لنقد ، وكل ذلك ليمتد بما توهمه من الخصومة بين الانصار والقرشيين ، وتاريخ الانصار قبل الفتح وبعده لايعطي هذه اللوحة التي يحرص المؤلف على اظهار قسماتها في وضع لايعرفه الباحثون وقد حسم الاستاذ محمد فريد وجدي الامر حسماقاطعا

(١) الشهاب الراصد ص ١٨٦

حين لخص تاريخ الانصار في سطور واقعية يتضاءل بازائها كل ماتوهم الدكتور من تخيلات ، وهانحن أولاء نستشهد بما قال (١)

(سلم الانصار لحجة القرشيين يوم انتخاب الخليفة (أبي بكر) ولكن مالبث هذا الخليفة أياما حتى ارتدت القبائل التي كانت أسلمت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وطردت جباة الاموال واضطر أبو بكر لبث جنوده وقواده في جميع أرجاء بلاد العرب لقمع هذه الفتن ، فكان الانصار ــ لو كانوا موتورين ــ يستطيعون في هذا الوقت أن يتذرعوا للثورة على القرشيين بحجة أن حكومتهم بسوء سياستها ردت العرب المشركين .

واحتضر أبو بكر فاستأذن المسلمين في أن يعهد بالخلافة الى عمر ، فقبلوا منه ذلك كارهين لشدة كانوا يعرفونها في أبي حفص ، فكان هذا الظرف فرصة سانحة لأن يهب الانصار بحقوقهم مطالبين ، ولكنهم لم يفعلوا فلبثوا موالين .

ثم قتل عمر ، فاضطرب لذلك المسلمون وزلزلوا زلزالا شديدا فكانت هذه نهزة للانصار يهيبون فيها للخلاص من نير القرشيين ، ولكنهم لبثوا كما كانوا مخلصين وادعين .

ثم تولى عثمان فساءت الاحوال في زمنه ، واضطربت الامور من تغلب المتعصبة من قرابته عليه ، وجاءت جنود الاقاليم تحاصره في داره مطالبة اياه بعزل مستشاره وتسليمه اليهم أو التنازل عن الخلافة ، وكان هذا الظرف من الاضطراب مناسبا لثورة الانصار ، ولكنهم لم يفعلوا ولبثوا مستسلمين)

---

(١) نقد كتاب الشعر الجاهلي للاستاذ وجدي ص ٩٨

وتابع الاستاذ وجدي حديثه عن أيام علي ومعارضته معاوية وفتنة الخوارج ، واشتعال الحروب ليخلص من تلك كله الى أن الانصار لوكانوا ينقمون على المهاجرين شيئا كما توهم الدكتور طه لوجدوا فرصتهم المتوالية في تتابع هذه الاحداث ، ولكنهم كانوا راضين كل الرضا وليس بينهم وبين اخوانهم غير الحب في الله والحرص على الاسلام ، فبهي دليل شطط الدكتور عن واقع التاريخ الى مالايقره النظر المستقيم ، ولئن كنت أخالف الاستا فريد وجدي رحمه الله في شيء فاني أخالفه فيما زعمه من أن المسلمين تقبلوا ولاية عمر بن الخطاب رحمه الله كارهين لشدة يعرفونها فيه ، اذ لم تشر المراجع الصحيحة الى ماذكره الاستاذ ، ولعله عثر على رواية مريضة ليست بذات سند رجيح ·

ولانستطيع أن نمضي في شوط الانصار مع الدكتور الى نهايته ، حيث تناسى أنه يكتب عن انتحال الشعر في كتاب خص به الادب الجاهلي ليسهب في جزئيات يرويها على غير وجهها ، وليستنتج منها مايصعب استنتاجه ، والا فما خطب الابيات التي ذكرها النعمان بن بشير مواجها بها معاوية بن أبي سفيان حتى تشتعل فراغا لايتطلبه البحث عن الانتحال في شعر الجاهليين ، ثم ماهذا الولوع بذكر قصة عبد الرحمن ابن حسان وصاحبته وما قيل في تلك من الشعر أخذا وردا بين المتخاصمين وهو من موضوع الكتاب بأقصى مكان ، واذا كنا نغضى عن ذلك وأمثاله مما لانعده كبير الخطر في الاسباب والنتائج فلن نستطيع أن نغضى عما ذكره الدكتور بشأن موقعة الحرة حين زعم أن قريشا قد انتقمت بها من الانصار بحيث لم تقم لهم بعدها قائمة في دنيا السياسة ، ويكفي لدحضها ماذكره الاستاذ محمد الخضر حسين حين قال (١)

(يعلم كل من له المام بالتاريخ أن سبب وقعة الحرة سخط طائفة

---

(١) نقض الشعر الجاهلي ص ١٦٣

عظيمة من المسلمين على سيرة يزيد ، واشترك في هذا السخط فريق من الانصار وفريق من قريش ، وكان على رأس قريش عبد الله بن مطيع ابن الاسود القرشى العدوي وعلى رأس الانصـار عبد الله بن حنظلة الانصاري ، ثم ان قائد جيش يزيد وهو مسلم بن عقبة أرهق أهل المدينة لم يميز قرشيا من أنصارى ، فالحرب وقعت بين جيش يزيد ، وجماعة المسلمين القاطنين بالمدينة وقائد هذا الجيش الذي أسرف في الفتك بأهل المدينة هو الذي سار بالجيش نفسه الى محاربة ابن الزبير القرشى ومن معه من آل مكة القرشيين)

أفنستطيع بعد ذلك كله أن نقول أن الدكتور طه فيما كتبه عن السياسة وانتحال الشعر كان يحارب في غير ميدان حيث ترك الادب الجاهلي الى أمور لاتمت له ولو بأوهى الصلات ·

الدين وانتحال الشعر

عقد الدكتور طه فصلا يتحدث فيه عن أثر الدين فيما انتحل من الشعر في رأيه ، وقراءة ماكتبه في هذا الموضوع تدل على أنه قريب جدا مما قاله في فصله السابق عن السياسة ، لأن السياسة حينئذ كانت ترتكز على الخلافة ، وهي مسألة دينية في الصميم ، ولو نقل الدكتور ماذكره هنا الى ماسبق ذكره هناك ماشعر القارىء بأدنى حاجة الى تشقيق القول وتفريقه ، على أننا نعجب هنا كما عجبنا هناك حين نرى أن ماذكره الدكتور في هذا الباب لم يثبت بيتا واحدا جاهليا مما يروى في دواوين الجاهليين قد انتحل لتأييد الدين ، وكل ماأشار اليه الدكتور مقطوعات تتصل بالبعثة المحمدية وبالخلفاء ، مقطوعات روتها كتب السيرة وكتب التاريخ السياسي ، دون أن يوجد أثر لها في كتب الشعر الخالص مثل الاصمعيات والمفضليات وديوان الحماسة وما جمع من المعلقات ، فاذا كان الدكتور يريد أن يعصف بما ذكره أمثال ابن اسحق من المؤرخين ، فليس في هذا موضع للخلاف ، لأن كل الباحثين من قبله قد حكموا على هذه الاشعار بالافتعال ، وقد ألح الكاتبون من لدن ابن سلام الى زمن الدكتور على توهينها وافتعالها ، فكيف يأتي الدكتور بمسلمات مشتهرة على أنها ثمرة بحث تهدى اليه ، ثم ان كتابه يبحث عن الشعر الجاهلي والشعر الجاهلي معروف في معلقاته ، وفيما ألف فيه أمثال المفضل والاصمعي ورواة الشعر الاصلاء ، أفأمكن الدكتور في هذا الباب أن يزيف شيئا روى لأمثال امرىء القيس أو زهير أو عنترة أو النابغة من شعراء المعلقات ؟ أم أمكنه أن يعصف بأشعار رواها المفضل والاصمعي وأبو تمام ، لقد ظل المعروف الثابت من الشعر الجاهلي مكينا لايمسه الدكتور في هذا الباب وما قبله بتوهين ، وكان قصاراه أن يتعقب

شذورا رواها أمثال ابن اسحق ، وهي مع انتحالها الواضح ليست في حاجة الى تعقيب ، لقد تحدث الدكتور عن أشياء متعددة حشدها كما توافدت على ذهنه ، تحدث عما قيل من الشعر حول التنبؤ بالبعثةالنبوية وعما أنطق به الشعراء الجن من القصيد ، وعما قيل في تفضيل بني هاشم وعلو مكانهم مع المقارنة بمنافسيهم من بني أمية وبني مخزوم ، وعما استشهد به العلماء من الشعر في التفسير واللغة وعلم الكلام ، وعن نسبة العرب لابراهيم عليه السلام ، تحدث عن ذلك كله فشك في أبيات ظاهرة الافتعال حشدت في كتب المؤرخين وأصحاب السير ، وتطرق معها الى أمور شائكة خبّ فيها ووضع على غير يقين •

أما ماقيل من الشعر ارهاصا بمقدم الرسول ، فقد فصل في أمره السيد محمد الخضر حسين حين قال (١) (ينكر المؤلف كل مايروى من الشعر والاخبار الممهدة للبعثة النبوية ، وانكارها على هذا الوجه تسمعه ممن ربط قلبه على نفي النبوة ، اذ ليس من المحتمل عنده أن يقال فيها شعر ، أو يرد عنها خبر ، قبل أن يدعيها صاحبها ، أما الذين يعتقدون بأن نبوة أفضل الخلق حق ، فمن الجائز عندهم أن يسبقها شعر أو يرد عنها خبر يتصل بها ، وشأنهم أن يفحصوا مايردفي هذا الصدد ، ويضعوه بمنزلته من الوضع أو الضعف أو الصحة ، وكذلك فعل علماء الاسلام فحكموا على جانب مما كان من هذا القبيل بالوضع ، كالاخبار والاشعار المعزوة الى قس بن ساعدة)

وقد ظهرت كتب تؤرخ للادب الجاهلي للمسلمين وغير المسلمين ، فلم نجدها تلتفت الى ماورد عن النبوة من أشعار ، لأن أصحابها يعرفون أن رواة السير يحشدون مايسمعون دون ترجيح ، وهي مع هذا لاتتجاوز عشرين بيتا ، فليت شعري ماتبلغ نسبة العشرين جوار مانسمع لاعلام

---

(١) نقض الشعر الجاهلي ص ١٨٨

الجاهليين من الشعراء ، واذا كان أصحاب السير كابن اسحق قداعترفوا أن الشعر ليس بضاعتهم وانما ينقلون مايسمعون ، ففيم الضجيج والاعنات ؟

أما حديث الدكتور عما تسب للجن فعجب عجيب ، لأن المؤلف يعلم أن الكائنات الغيبية تحتل مواضع كثيرة من دواوين الشعراء في الشرق والغرب وفي القديم والحديث على السواء فاذا نطق بعض شعراء العرب بشعر ما ونسبه الى الجن ، فتلك سبيل معهودة لاغرابة فيها ، واذاوجدت بضعة أبيات تعزى للجن في الشعر الجاهلي فلن يضيره ذلك في شيء ، والياذة هو ميروس في الادب اليوناني تحفل بالحديث عن هذه الكائنات ، وهي عند الدكتور بمنزلة عالية اذ نقل بعض فصولها ودعا الى الاهتمام بتحليلها ، والانيادة لفرجيل في أدب الرومان تحذو حذو اليادة هوميروس ، وكذلك تزدحم رواية العاصفة لشكسبير بوصف هذه المخلوقات ، وفي الفردوس المفقود لملتون ابتداء شعري يتجه وجهة هذه المخلوقات ، حتى ان جوته قد جعل الشيطان محور قصته الخالدة فاوست ومن عجب أن بعض النقاد الذين يشايعهم الدكتور يأخذون على الشعر العربي تقيده بالواقع وعدم طيرانه في أجواء الخيال كما يرى في ملاحم اليونان والرومان وكما فعل الفردوس في الشاهنامه ، وهم يعدون من أقوى سبحات الخيال مايتجه الفنان اليه من غزو العوالم المجهولة في السماء والارض ، هذا مايقال عن نقص الادب العربي في هذا المضمار ، فما للدكتور اذن لايرى في خيال العربي الذي يضيفه على الجن واصفا حينا ، وقائلا بلسانهم حينا آخر ، ما للدكتور لايرى ذلك قوة في الادب ، وسعة في الخيال ، بل يرى أن مايقال على ألسنتهم كذب وانتحال ، وهل ينكر أحد أنه انتحال فني يقع موقع الآثار الفنية الجميلة من النفوس ، ليسمع ما قاله الاستاذ محمد لطفي جمعة في ذلك (١)

---

(١) الشهاب الراصد ص ٢٠٩

(اننا وكل من له المام بآداب العرب نقرأ الكثير من الشعر المروى عن الجن والانس ، ولم يخطر ببالنا يوما أن المقصود به أن الجن قالته حقا وصدقا ، وأنها تنشد باللغة العربيةوالاوزان العربية شعرا في أمور دينية أو سياسية ، ولكننا منذ قرأنا وأدركنا نعلم أن هذا الشعر يتضمن فكرة الشاعر المجهول أو المعلوم الذي نظمه ولم ينسبه لنفسه ، وأن الجن ليست الا وسيلة لروايته كما فعل شعراء الافرنج مثل غوته ، وشكسبير ودانتي وميلتون فقد أنطقوا الجن في دواوينهم بالشعروالنثر وزاد دانتي وملتون بالخوض في وصف الجنة والجحيم ورويا لنا من شعر الملائكة والابالسة مالم يخطر على قلب بشر فهل صدقنا أن الملائكة والشياطين والجن قالت هذا الشعر حقا كما يصدق الطفل حديث (عقدة الاصبع) أو قصة (أليس في أرض الجن) بل نعد الشعر الذي نسب الى الجن في مقتل سعد بن عبادة ، ورثاء عمر بن الخطاب من النوع التمثيلي الفطري الذي لم تنضج مواهب العرب في بابه لانهم وان لم ينظموا شعرا تمثيليا فان خيالهم قد اتجه نحو هذا النوع من الادب)

وقد وقع الدكتور في أخطاء واضحة حين تحدث عن الشعر المعزو للجن فقال بعد أن ذكر هذه الابيات في رثاء عمر بن الخطاب :

أبعد قتيل بالمدينة أظلمت ... له الارض تهتز العضاة بأسوق
جزى الله خيرا من امام وباركت ... يد الله في هذا الاديم الممزق
فمن يسعأو يركبجناحي بعوضة ... ليدرك ماحاولت بالامس يسبق
قضيت أمورا ثم غادرت بعدها ... بوائق في أكمامها لم تفتق
وماكنت أخشى أن تكون وفاته ... بكفى سبنتى أزرق العين مطرق

قال الدكتور (١) (والعجيب أن أصحاب الرواية مقتنعون بأن هذا

---

(١) في الادب الجاهلي ص ١٣٤

الكلام من شعر الجن ، وهم يتحدثون في شيء من السخرية والانكار بأن الناس قد أضافوا هذا الشعر الى الشماخ بن ضرار)

فاستمع الى ماقاله الاستاذ محمد الخضري في دفع ذلـك (١) (يريد الشيخ بهذه العبارة أن ينسب لجميـع الذين رووا هـذا الشعـر وهم أصحاب الرواية مانسبه اليهم ، ولايظهر عوار هذا الكلام وخلـوه من التحقيق العلمي بأكثر من أن ننقل عبارة ابن سلام ، وهو أقرب الكتاب اليه لأنه كثيرا ماينقل عنه (قال : وكان للشماخ اخوة وهـو أفحلهـم ، ومزرد وهو أشبههم به وله أشعار وشهرة ، وهو الذي يقول يرثي عمر بن الخطـاب •

جزى الله خيرا من أمير وباركت يد الله في هذا الاديم الممزق الخ

فابن سلام من أصحاب الرواية ، بل هو عمدة مقـدم ، وليس من المقتنعين بأن الشعر للجن ، ولم يتحدث في شيء من الانكار والسخرية بأن الناس قد أضافوا هذا الشعر للشماخ ، أما نسبة الابيات الى الجن فقد وردت في طبقات ابن سعد)

ونحن نعجب لأمرين في صنيع الدكتور ، أولهما أنه اعتمـد عـلى رواية الطبقات وصاحبها مؤرخ اخبـاري وترك رواية ابن سـلام وصاحبها ناقد أدبي ، وتفضيل رواية المؤرخ في الشعر على روايةالناقد الادبي الفاحص أمر غير مفهوم ، وثاني الامرين أنه تزيد واختلق حين زعم آن القدماء ينسبون الابيات للشماخ في انكار وسخرية ، ومعنى ذلك أنهم ينسبونها للجن في ايقان وثقة ، فمن الذي أنكر وسخر ، حتى يتزيد الدكتور بلا مبالاة ؟

---

(١) محاضرات الخضري في بيان الاخطاء العلمية ص ٢٦

والامر الثاني موقفه من سورة الجن اذ تحدث عنها وكأنها غير معروفة لكل قاريء ، فلخص مايعرفه كل مسلم عما ذكره الله عز وجل عن هذه الطائفة تلخيصا لايدل على اعتدال ونزاهة حتى فرغ الى قوله (فلم يكد القصاص والرواة يقرءون هذه السورة وما يشبهها من الآيات التي فيها حديث الجن حتى ذهبوا في تأويلها كل مذهب ، واستغلوها استغلالا لاحد له ، وأنطقوا الجن بضروب من الشعر وفنون من السجع) وكلام المؤلف يوحي أن الجن لم يكونوا معروفين عند الجاهليين حتى نزلت سورة الجن وهذا خطأ واضح لأن العرب أمة صحراوية متسعة الخيال ، وقد تناقلت في الجاهلية حديث الجن وعرفت الكثير عن الغول والسعلاة وفي أشعار لصوص العرب والبادين طرائف عن مقابلة الجن ومحادثاتهم ، بل انهم جعلوا لأكثر شعراء الجاهلية ملهمين من الجن ، جعلوا لامرىء القيس ولعبيد وللاعشى قرناء يعرفون بأسمائهم ، وكل ذلك قبل أن ينزل القرآن الكريم ، وقبل أن يتلو الناس سورة الجن ، فكيف يقول الكاتب لم تكد تنزل هذه السورة حتى بعثت الاساطير عن الجن ، والمبالغة في كلام الدكتور بعيدة غير مقبولة حين يقول (حتى ذهبوا في استغلالها كل مذهب واستغلوها استغلالا لاحد له) قاصدا سورة الجن ، مع أن كل ماروي على لسان الجن تبشيرا بالبعثة النبوية الكريمة لايتجاوز صفحة واحدة أو صفحتين ، أما حديث السجاع من الكهان فبعيد عن السورة الكريمة اذ كان في الجاهلية وما قبيل البعثة ، كذلك أحاديث لقاء الغول والسعلاة ومنازلة تأبط شرا وأمثاله لهذه المخلوقات ، لاصلة لها بسورة الجن على الاطلاق واذا كان العرب قد قالوا قصصا كثيرا عن الجن قبل أن ينزل القرآن فما صلة القرآن في تدوين كل هذ الاساطير مع أن لها سببا معقولا حكاه الرواة ، ولاحظه النظام ، ونقله الجاحظ حين قال (1) (أصل هذا الامر وابتداؤه أن القوم لما نزلوا ببلاد الوحش عملت فيهم الوحشة ،

---

(1) الحيوان للجاحظ حـ ٦ ص ٤٧٤ ط دار الفد بسوريا نشر فوزي عطوي

ومن انفرد وطالت اقامته في الفلاة والخلاء والبعد عن الانس ، استوحش ولاسيما مع قلة الاشتغال والمذاكرين ، والوحدة لاتقطع أيامهم الا بالمنى والتفكير ، والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة ٠٠ واذا استوحش الانسان مثل له الشيء الصغير في صورة الكبير ، وارتاب ، وتفرق ذهنه ، وانتفضت أخلاطه ، فيرى مالايرى ويسمع مالايسمع ، ويتوهم على الشيء الصغير الحقير أنه عظيم جليل ، ثم جعلوا ماتصور لهم من ذلك شعرا تناشدوه ، وأحاديث توارثوها ، فازدادوا بذلك ايمانا ، ونشأ عليه الناشيء ، وربى به الطفل فصار أحدهم حين يتوسط الفيافي ، وتشمل عليه الغيطان في الليالي الحنادس ، فعند أول وحشة أو فزعة ، وعند صياح بوم ومجاوبة صدى تجده ، وقد رأى كل باطل ، وتوهم كل زور ، وربما كان في الجنس وأصل الطبيعة نفاجا كذابا ، وصاحب تشنيع وتهويل فيقول في ذلك الشعر على حسب هذه الصفة فعند ذلك يقول (رأيت الغيلان ، وكلمت السعلاة ثم يتجاوز ذلك الى أن يقول قتلتها ٠٠ الخ)

فهذا حديث العرب مع مااختلقوه من أساطير الجن ، فما دخل السورة الكريمة في هذه الاساطير ؟ واذا كان بعض المفسرين قد تعلق بهذه الاساطير فيما فسر به آيات الجن في القرآن ، فذلك شيء لاصلة للقرآن به وانما ألصق الصاقا صادف هوى العوام والجهلة ، والثقات من المفسرين يقفون لذلك كله بالمرصاد ، ويدفعون الشبهة عن اليقين ، ولكن المؤلف يقسر القول قسرا على أن ينتهي الى أن سورة الجن كانت مصدر ذلك كله ، والاساطير العربية تسبق سورة الجن بعشرات السنين وأعجب من حديث الدكتور عن الجن في هذا الفصل حديثه عن أسرة الرسول الكريم وشرف نسبه ، حيث ذهب الى أن أشعارا وضعت في سبيل ذلك تأييدا ، والمسألة مسألة تاريخية قبل أن تكون مسألة نبي يختاره الله

من أصفى المعادن وأنقاها والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فان مؤرخي المستشرقين ممن يثق فيهم المؤلف تمام الوثوق يعرفون تحدر النسب النبوي من أصلاب شريفة كانت موضع القيادة في مكة ، بل كان الوافدون من الجزيرة العربية اليها في مواسم الحج يحلونها موضع الفصل في الحكومة لسيادتها الواضحة والكلام عن قصي وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب مما سطره مؤرخو الجاهلية عن ثقة لاتقبل الشك واذا جاز للدكتور أن يشك في بيت شعري أو مقطوعة نسبت لغير قائلها فان الشك فيما تقرر من أحداث التاريخ يجعل كل بحث هراء لاقيمة له ولا اعتداد به ، ثم ماهو الشعر الجاهلي الذي يتوقفزيفه على الذهاب الى ماانتحى الدكتور من انتقاص لشرفاء هم رأس العرب في الجاهلية وقبلتهم المتوخاة واذا كان يجهل كل شيء عن تاريخ العرب اذ ذاك أفلا يعلم أن أبرهة الاشرم حين غزا مكة أراد أن يخاطب كبيرها المختار ورئيسها المطاع ، فلم يكن غير عبد المطلب جد رسول الله ، ماهو الشعر الجاهلي الذي رواه الاصمعي والمفضل وأبو عبيدة وخلف وحماد عن سيادة آل محمد صلى الله عليه وسلم حتى يضطر الدكتور أن ينزلق الى مهوى سحيق يشينه ويخزيه ، أكان فيمحاولته هذه يريد الشك في قصيدة قالها جاهلي في شرف البيت النبوي ، ان المؤلف لم يستشهد ببيت واحد مما قيل ، وانما هي خواطر مريضة تدافعت اليه عن سطط لايقف عند اعتدال ، ولعل ماكتبه بعد ذلك في كتبه الاخيرة يمحو ماتورط فيه من هذا النزق البغيض ، فذلك من عبث الشباب ٠

ولم يكتف الدكتور بما ذكره في الصفحات الاولى من كتابه عن ابراهيم عليه السلام ، بل أعاد الكرة في هذا الفصل فنفى أن يكون للحنيفية ذكر عند البعثة النبوية وقبلها مما يعد ارهاصا لها ، نفى ذلك وعجب مما يروى في هذا الصدد ، وكل مثقف يعلم أن اليهود والنصارى كانوا ممن يسكنون الجزيرة العربية وكانوا يقرؤن التوراة والانجيل ، وفي التوراة والانجيل معا ذكر طويل لابراهيم عليه السلام ، فلماذا

لايكون حديثه شائعا متداولا بين العرب ولماذا لاتدور حوله السير ، وكيف يجازف الدكتور فينكر علم العرب بابراهيم ويعد ماذكر عن حنيفيته السمحة موضوعا منتحلا ، وهو يعلم أتم العلم أن قوما يخالطون العرب يقرءون التوراة والانجيل ، بل يعلم أن من العرب نصارى قد آمنوا بالمسيحية وعرفوا كتابها وبذلوا أنفسهم دونها ، وتحدث عنهم القرآن في سورة البروج اذ ألم بسيرة أصحاب الاخدود ، (اذ هم عليها قعود ، وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود ، ومانقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) على أن شعراء الجاهلية لم يفيضوا في حديث ابراهيم حتى يضطر الدكتور الى كتابة ماكتب ،وانما هواستطراد يفتعله افتعالا ، واذا كان النابغة الذيباني قد تعرض ببيت واحد للجن في معلقته التي مطلعها :

يادارمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الامد

فاضطر الدكتور الى أن يخلط مايخلط فيما كتبه عنهم ، وأشرنا الى زيفه ، فهل وجد صاحب معلقة من الجاهليين تحدث عن ابراهيم حتى يلج في أمره هذا اللجاج ؟ أم أنه الاعتساف دون دليل .

وأدهى الدواهي ماكتبه الدكتور عن أمية بن أبي الصلت فقد أنكر مايروى عنه من الشعر مدعيا أن المسلمين قد نظموا ماقيل على لسانه ليكون تأييدا لأخبار القرآن ، وكان الاستاذ كليمان هوار قد كتب بحثا تبشيريا ينتهي الى أن أمية قد سبق الرسول ببعض ما قال من أخبار الانبياء ثم جاء محمد فاقتبس منه بعض ماجاء في القرآن ! هذا الهراء المموه يعارضه الدكتور بعد أن يثني على صاحبه ويقدر قوة نظره ليعلن أن شعر أمية لم يقله صاحبه وانما نحله المسلمون اياه ، ثم يفيض في روايات

مختلفة تعلن أن رسول الله قد نهى عن رواية شعـر أمية ، وهنـا تأتي القاذفة الماحقة ، لأن الدكتور قد اعترف أن شعر الرجل منحول لم يقله ، ومعنى ذلك أن حياته أيام الرسول كانت خالية مما ينسب اليـه ، وأن المسلمين فيما بعد زمن النبوة قد نحلوه ما قال تأكيدا لما جاء به القرآن ؟ فعن أي شيء نهى الرسول اذن ؟ وكل ماقال أمية لاحق غـير سـابق ، ثم ما فائدة شعر أمية حين ينحل بعد عصر النبوة ؟ أليؤكد قول القرآن ، وهل كان القرآن بعد أن أجمعت العرب على الاسلام وانتقل محمد الى الرفيق الاعلى في حاجة الى من يؤكـد حقائقه حتى يلجأ المختلقـون الى التمحـك بأمثال أمية بن أبي الصلت ! وما مكانته لديهم حتى يكون أداة تقـوية لكتاب الله ؟ ان الحديث عن أمية دقيق ويحتاج الى فصـل خاص يلقـاه القارىء فيما بعد لشدة صلته بما يهرف به الزاعمـون عن كتـاب الله ولتعلمن نبأه بعد حين ، لقد خلط الدكتور خلطا واضحا فيما تورط فيه حين كتب حديثه عن الدين وانتحال الشعر ولم نناقش غير الاصول العامة في بحثه لأن الجزئيات قد انحدرت الى باطل مفضوح لا داعي أن نؤلم به القراء ، على أننا نحيل من أرادالازدياد في هذاالموضوع الى ماكتبه ناقدوه الكبار فكلهم ممتع قوي نافذ البرهان ·

القصص ونحل الشعر

كان القصص حقا بابا من أبواب الانتحال ، ولم ينفرد الدكتور بهذا القول ، وانما سبقه الباحثون مستشهدين معللين ، لأن كثيرا مما تخلل هذا القصص ينطق بوضعه ، والامر فيه ليس بخاف ، فكل من يقرأ ماأثر من القصص العربي يعرف ماأضيف اليه من الشعر ، لأن نقـدة الادب يعرفون طراز العصور في النسيج الادبي ، ويعلمون الاصيل من الدخيل متى نظروا الى المقطوعة ، ومن هنا كانت المسألة في الشعر المنحول ليست من الخفاء بحيث ينظر لها كأمر مهول ، لقد شك القدماء في الكثير وعللوا أسباب وضعه ، وجاء الدكتور ليطيل في هذه الاسباب ، فلننظر الى مايقول في القصص .

بدأ يتحدث عن القصاص وكيف تركوا آثارا أجمل من الاليـاذة والاوديسا اليونانيتين ، منتقلا الى أن الادب العربي لم يدرس لذاته بل ليخدم التفسير والحديث ، لذلك كان القصاص في المسـاجد يطيلـون في قصص الاقدمين حين يفسرون ماجاء في القرآن من تاريخ الغابرين ، ثم فطن الخلفاء الى قيمة القصص وأثره في النفوس فاستقدموا القصـاص ليجعلوهم منابر للدعاية السياسية وحفلت البصرة والكوفة ومكة والمدينة بهؤلاء القصاص ، فاختلقوا الشيء الكثير الى مايعرفون وكان هذا القصص في رأي الدكتور يرجع الى عدة مصادر منها المصدر العربي وهو كتاب الله وما يتصل به من الاحاديث والروايات والغزوات والحروب ومنها المصدر الكتابي الذي يرجع الى اليهود والنصارى نقلا عما تحـدث به الاحبـار والرهبان وبخاصة من أسلموا أو أظهروا الاسلام ومنها المصدر الفارسى وهو الذي يجد مادته في تاريخ الفرس في القديم وما يتصل به من أساطير

الهند ومنها مصدر مختلط يأتي من أوجه متعددة كالانباط والسريان في الجزيرة والشام ، وكل هذه المصادر كانت تطلق ألسنة القصاص بحديث روائي يتخلله الشعر اذ كانوا يستعينون بأفراد يصنعون الشعر وفق مايروون من الاحداث ، ثم عرج الدكتور على سيرة ابن اسحق فأعاد ماكرر من غفلة صاحبها عن الشعر المصنوع وشغفه بروايته ، ونقد ابن سلام لما فيه من وضع ، ثم زعم المؤلف أن الناس كانوا يعتقدون أن كل عربي شاعر ، وما دام الحديث عن العرب فلا بد أن يوشح بالشعر وأفاض في هذا الزعم على ضعفه واستمد منه مايريد من كثرة النحل والوضع ، ولم يعف ابن سلام من الملامة لانه روى بعض الشعر المنحول ، مع أنه شن الغارة على الوضع وانتقل الى الامثال وأخبار المعمرين ، فرأى أنها كانت سبيلا مطروقا الى وضع الشعر ، وضرب أمثلة على مايريد ، ثم توسع في الامر توسعا لايعقل فزعم أن أيام العرب جميعها كانت من هذا القبيل المتزيد ، ونسى أنها تاريخ يروى بأحداثه ووقائعه وأشخاصه وأيامه ولياليه ، وختم قوله بهذه النتيجة التي تؤكد أن مؤرخ الآداب العربية خليق أن يقف موقف الشك ، ان لم يكن موقف الانكار الصريح أمام هذا الشعر الذي يضاف للجاهليين ، والذي هو في حقيقة الامر تفسير أو تزيين لقصة من القصص أو توضيح لاسم من الاسماء أو شرح لمثل من الامثال ٠

وواضح قبل أن نستعرض ماقيل في الرد على هذا الفصل أن الدكتور مسبوق بما جاء به من كليات عامة خاض فيها الناقدون منذ ابن سلام الى جورجي زيدان ومصطفى صادق الرافعي ، ولو وقف عند هذه الكليات ماتعقبه أحد لأنه يردد كل ماقيل ، ولكن الدكتور عند نفسه أكبر من أن يكون مرددا فلا بد أن ينتقل الى جزئيات دخيلة لايتطلبها البحث في صميمه ليسرف في تفسيرها كما يشاء ، وهذه الجزئيات وحدها كانت مجال المؤاخذة من ناقديه لما تضمنت من اسراف جائر سيقف عليه القارىء حين نطلعه على بعض مادار من نقد يتعقب هذه الالتواءات ليبتعد بها الى المسار الصحيح ٠

١ ـ ذكر الدكتور أن ماروواه القصاص كان شبيها بالالياذة والاوديسة اليونانيتين وهو كلام ينحدر الى مزالق نبه اليها الاستاذ محمد لطفي جمعة حين قال (١)

(يدعي ـ المؤلف ـ أن القصاص المسلمين قد تركوا آثارا قصصية لاتقل جمالا وروعة وحسن موقع عن القصيدتين المذكورتين ، وهذه المعارضة بين القصص العربي والشعر اليوناني ترشيح لنظريته ، ومحال لاينطلي علينا ، فهل تاريخ الاسلام في صدره الاول وحياة العرب في زمن النبي والراشدين تشابهان حرب طروادة ، ورحلة عولس وما بينهما ، ان الشعر القصصي اليوناني ثمرة الخيال ومثال عظيم للعبقرية الشعرية ولكن القصص الاسلامي فن كان يستمد قوته وثروته من مصادر مختلفة في أول أمره ، أهمها القرآن والحديث وسيرة النبي والخلفاء الراشدين وغزواتهم وفتوحهم ومنها أخبار الانبياء والاحبار والحواريين الواردةفي الكتب المقدسة ، فكيف تمكن المقارنة بين القرآن والحديث وبين شعر هوميروس ، ان القرآن شريعة وعقيدة وقانون ، وشعر هوميروس فن وخيال وأنت قد ذكرت أن القصص الاسلامي قام على مصدر القرآن الحديث فكيف تملى هذا القول ؟ وأين نحن من انتحال الشعر الجاهلي في هذا المجال)

٢ ـ ذكر الدكتور أن هذا القصص كان يمضى مع الخيال حيث أراد ويتقرب من نفس الشعب ويمثل أهواءه وشهواته ومثله العليا فليس غريبا أن ينصرف عن القصص أصحاب الجد من المسلمين ، وهو كلام يندرج على مآخذ فطن اليها الاستاذ مصطفى صادق الرافعي حين قال في تفنيده (٢)

(هذا عجيب من أستاذ الجامعة ، لأن معناه أنه لم يشتغل بالقصص

---

(١) الشهاب الراصد ص ٢٣٥

(٢) تحت راية القرآن ص ٢٥٤

الا أصحاب الهزل والرقاعة ، ونحن نقرر أنه لم يكن يقص في أولية هذا الفن الاسلامي الا أصحاب الجد من المسلمين ، وبه عرفوا وبهم نشأ وبفصاحتهم نبغ ، وهذا الحسن البصري كان أشهر قاصّ في زمنه وهو من سادات التابعين وكانت أمه مولاة لأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وقد قالوا انه جمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة ، وقال أبو عمرو بن العلاء انه مارأى في عصره أفصح منه ، ولكن أستاذ الجامعة يخلط في معنى القصص والقاص لانه يريد بعد هذه العبارة التي كتبها أن يأخذ اسكندر دوماس صاحب القصص الفرنسية المعروفة فيقحمه في التاريخ الاسلامي ويشبه به علماءنا فيجعل القصص بذلك روايات وخيالات ، ثم انا نقرر له أن القاص لايسمى قاصا عند المسلمين الا اذا كان يقص للتعليم والوعظ وللتذكير بالآخرة والتزهيد في الدنيا ، وحفظ الروح والخلق ونحوهما ، وأن أساس هذا الفن تحريض المؤمنين على الجهاد والترغيب فيما عند الله ، وايثاره على الحياة ، فكان مرجع القاص في قصصه الى التفسير والحديث والحكمة ، وما تناوله من أخبار الماضين وما لاحرج عليه في وضعه مما يراد به غرض من تلك الاغراض ٠٠ وما نشأت أهواء الشعب في القصص الا بعد أن تعاطاها الجهال المقتحمون من غير أهله وجعلوه من عملهم للحياة والعيش ومع هذا فأمثال هؤلاء يعرفهم العلماء من أول التاريخ ويعدون قصصهم بدعة)

٣ ــ يقول الدكتور (ان كثرة هذا الشعر الذي صدرعن المصانع الشعرية في الأمصار المختلفة كانت سببا في نشأة رأي يظهر أن القدماء كانوا مقتنعين به ، وأن الكثرة المطلقة من المحدثين ليست أقل به اقتناعا وهو أن الامة العربية كلها شاعرة وأن كل عربي شاعر بطبعه وسليقته ويكفي أن يصرف همه الى القول فاذا هو ينساق اليه انسياقا)

فقال الاستاذ محمد الخضر حسين في تفنيده (١)

---

(١) نقض الشعر الجاهلي ص ٢٣٣

(لانرى أحدا يعتقد أن كل عربي شاعر بطبعه وسليقته ، وانما هي أسباب تهيأت لهم وسيرته بألسنتهم حتى صاغوه في كثير من المعاني المبذولة والمخاطبات المعتادة ومن هذه الاسباب مايرجع الى سعة اللغة من كثرة المترادفات وأضراب المجازات والكنايات ومنها مايرجع الى سعة الخيال وحرية الفكر المكتسبتين من حياتهم في أوطان لاتعلوها سلطة قاهرة أو قوانين مرهقة ، ويضاف الى هذا ماثبت بطرق لاتحوم عليها ريبة من أن العرب يكبرون الشعر ويرفعون الشاعر الى أسمى منزلة ، واحراز هذا الشعر لهذه الخطوة مما يدفع الاذكياء منهم الى التنافس في اجادة صنعه ويدعو العامة الى الاقتداء بهؤلاء ولو على وجه التشبه بهم في القاء الكلام مقيدا بالوزن والقافية .

فليس كل العرب ولا أكثرهم يقول الشعر الذي يغوص على حكمة أو يأخذ في الخيال مذهبا ، وليس ببعيد أن يكون أكثرهم على استعدادلايراد الكلام في صورة النظم ، ولا سيما حين تكون معرفة الطبقات بمفردات اللغة وأصول تأليفها متقاربة) .

والامر ــ بعد ــ أوضح من أن نجادل فيه ، فقد كان العرب يحتفلون بنبوغ الشاعر ، ويعدون ذلك مكسبا ذاتيا للقبيلة تهنأ عليه ، ولو كان كل عربي يقول الشعر مااحتفل بنبوغ شاعر ما على الاطلاق ، ومعنى كونهم ينطقون الفصحى لايعني أنهم جميعا يقولون الشعر ، ونحن هؤلاء ننطق العامية في بلادنا جميعا ، ولا يقول الزجل بها غير الموهوب من ذوي الاحساس ، وقد امتد الحديث بالاستاذ الخضر الى معان كثيرة ردد فيها أقوالا لابن سلام وللجاحظ ثم خاض في قضية الشعر المنسوب لعلي بن أبي طالب ، وكله جيد يفيد في موضوعه ولكن مااختصرناه من قوله موجز مفيد .

٤ ــ وقد فطن الاستاذ محمد فريد وجدي الى نوع من القصاص لايلتزمون

بالمأثور من القرآن والحديث فقال في معرض رده على الدكتور (١)

(والحقيقة أن بنية العالم الاسلامي لفظت القصاص من يوم أن ظهروا بعد خلافة عمر بن الخطاب ، وأنهم طوردوا كما تطارد المبتدعة في كل الاجيال الاسلامية ، ذلك أن هؤلاء القصاص كانوا يخلطون بين الاسلاميات وبين ما يجمعونه من هنا وهناك من أخبار الامم وأخبار الافراد وبنية العالم الاسلامي قامت على التثبت والتمحيص حتى أن المسلمين تولوا الاحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتفلية والتحقيق فأقروا نحو عشر ما كان متداولا مشهورا منها ، واعتبروا تسعة أعشارها مصنوعا لايؤخذ به ، فبنية هذا شأنها من عدم الاخذ بغير الحق وان كان دينا لاتحتمل القصص بوجه من الوجوه .

ثم نقل الاستاذ محمد فريد وجدي عن المجلد الاول من كتاب المدخل لأبي عبد الله محمد بن محمد العبدري قوله :

(جاء ابن عمر رضى الله عنه الى مجلسه في المسجد فوجد قاصا يقص فوجه اليه صاحب الشرطة أن أخرجه من المسجد فأخرجه .

وقال الامام أبو طالب المكي : كانوا يرون القصص بدعة ، ويقولون : لم يقص في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في زمن أبي بكر ولا في ولا في زمن عمر حتى ظهرت الفتنة فظهر القصاص وروى الزهري عن سالم عن ابن عمر أنه خرج من المسجد وقال : ماأخرجني الا القصاص ، ولولاه ماخرجت)

ثم أفاض الاستاذ وجدي في مثل هذه النقول ، ولعل القارىء يلمس شبه تعارض بين ما قاله الاستاذ محمد فريد وجدي وما سبق أن نقلناه عن

---

(١) نقد كتاب الشعر الجاهلي للاستاذ وجدي ص ١٤٣

الاستاذ مصطفى صادق الرافعي بشأن الحسن البصري ومن سار على نمطه من القصاص ، والحق أنه لاتعارض ، لأن أمثال الحسن البصري كانوا علماء فقهاء وكان القصص بعض أدواتهم في الوعظ والهداية ، وهؤلاء آمنون مأمونون ، أما النكير الذي عناه الاستاذ محمد فريد وجدي ومن نقل عنهم من العلماء فمنصرف الى من يقصون عن ضلالة ، ويحكون عن جهالة ، ولا تخلو الدنيا من ذوي غرض يسرون حسوا في ارتغاء ، ولن يقف على دخائلهم غير الحصفاء الواعين ٠

وقد التفت الاستاذ محمد أحمد الغمراوي الى نقطة هامة بصدد ماردده الدكتور من اضطرار القصاص الى حشو القصة بالشعر فتساءل : هل الشعر غريب عن القصة العربية في الجاهلية أو أنه شيء ضروري لحياة الجاهليين ؟ انهم كانوا يتصادمون ثم يقولون الشعر فيما قاموا به تنفيسا عن أنفسهم فاذا حكوا قصصهم مع مانظم في أحداثها من الشعر فهم لم يفتعلوا شيئا وانما عبروا عن واقع تاريخي في الاحداث ، وواقع أدبي في القصيد ، لنستعرض مارد به الاستاذ الغمراوي في هذا الصدد حين قال (١)

وفي الحق أن القصص العربي الخيالي كان يحتاج الى كثير من الشعر يمزجه بالنثر زينة وعاطفة ولحنا ، ولكنه في هذا تابع غير مبتدع ، لأنه في ذلك صورة مما كان يفعله العرب أيام كان سمر الناس مايجري بينهم من الحوادث والغارات ، لامايتخيلون من الحكايات ، فالحوادث كانت كثيرة في الجاهلية لايكاد يمر يوم الا بوتر يدرك ، أو حلف يعقد ، أو حرب تنشب ، أو سلم يقع ، أو غارة تبيت ، أو مكيدة تدبر ، أو مكرمة تذكر ، أو مخزاة تنشر ، وكل ذلك وكثير مثله يثير العاطفة والعاطفة خير وعائها الشعر ، فكان الناس فيما يقع لهم من الحوادث يعبرون عن عواطفهم

---

(١) النقد التحليلي ص ٢٤٢

شعرا ، من استطاع الشعر منهم قاله ، ومن لم يستطع تمثل بشعر من استطاع ، ولذا كان تاريخهم في الجاهلية جزءا من الادب ، أو كان أدبهم جزءا من التاريخ ، لأن حوادثهم لاتقدر قدرها ويعرف وقعها أو يعلم بعض ما قيل حولها من الشعر ، وشعرهم لايقدر قدره ، وتدرك مزاياه حتى يعرف ماتصل به من الحوادث ، وذهبت الجاهلية وجاء الاسلام فكانت السنة في ذلك واحدة ، لأن النفوس من هذه الناحية كانت واحدة ، حتى انتقلت النفوس عن ذلك بمرور الوقت وقلة الشعراء فالاسلام الى أوائل العصر العباسى تاريخه أيضا قطعة من أدبه ، وأدبه جزء من تاريخه تقرأه فتراه مرصعا بالشعر ، قاله قائلوه في الظروف المختلفة تعبيرا عن العواطف المختلفة فهو في ذلك كتاريخ الجاهلية ، ليس بينهما فرق الا اختلاف الحوادث واختلاف النزعات)

وقد يرى القاريء أنى في هذا الباب نهجت نهجا آخر في عرض الحقائق اذ جعلت النقاد يتحدثون دون أن أمهد أو أعقب الا في الندرة ، وذلك ليلمس المنصف وجهة قوم لم يكن أحدهم حاكيا للآخر بل كان كل ناقد ينظر الى الموضوع نظرة ذاتية في تفكيرها ونقاشها ، ولن يكون ذلك اتفاق التقليد والمحاكاة ، ولكنه اتفاق النتيجة الصحيحة لقضية استقامت مقدماتها على نهج لاينتج غير اجابة واحدة تتغير ألفاظها وتتحد معانيها وذلك في مذهب الجدل مفهوم غير مجهول .

أما انكار الدكتور لما تعورف من أيام العرب فلا نجد شبهة واحدة تؤيد هذا الانكار ، لأن العرب قوم وجدوا على الارض ودارت بينهم أحداث ووقائع تطلبتها ضرورة الحياة ، فلا بد أن يتناقل الناس هذه الاحداث وأن يرويها الخلف عن السلف ولكل جماعة بادية أو متحضرة حوادث تسرد ، وتاريخ يقال ، فهل يظن الدكتور أن قوما لهم فصاحة العرب المشهودة ، وبلاغتهم المعهودة يشنون الحروب ، ويقومون بالغارات وينهضون للثأر ثم لايتحدث متحدث منهم بما كان وهم قوم تجري

الفصاحة في عروقهم مجرى الدماء لو ذهب أحد الى ذلك لأنكر كل بديهي ولأمكنه أن ينكر التاريخ المكتوب والأثر المدون اذ أنكر ماتعرفه البداءة دون تأمل أيريد المؤلف أن يقول انهم تشاجروا وتشاحنوا ثم آثروا الصمت فلم يرو خلف عن سلف ما كان ! وهل ذلك من طبائع الاشياء وسنن العادات ؟ لقد تحدث ناقدو الدكتور عن ذلك فامتعوا ، ولسنا بحاجة الى أن ننقل بعض ماقيل ، فالمسألة من الوضوح بحيث لاتحتاج الى اثبات .

الشعوبية ونحل الشعر

يذهب الدكتور طه حسين الى أن من يسمون بالشعوبيين قد انتحلوا أخبارا كثيرة وأشعارا مختلفة وأضافوها جميعها للجاهليين والاسلاميين ليحطوا من مكانة العرب فاضطروا خصومهم الى أن يقابلوهم بالمثل، ويخترعوا عليهم مايهوى بهم الى الحضيض، وأصل هذا كله فيما يرى مؤلف الادب الجاهلي أن الفرس قد استشعروا حقدا على العرب اذ صاروا رؤساءهم وقد فتحوا بلادهم وأصبحوا الغالبين المسيطرين بعد أن كان العرب قبل الاسلام لايتطلعون الى مقام الفرس، ولم يكد ينتصف القرن الاول من الهجرة حتى كان فريق من سبى الفرس قد استعرب واستوطن الاوطان العربية وأخذ يكون له بها نسل وذرية، فاضطر النسل الجديد أن يتقن لغة العرب وأن ينظم القصائد بلسانها ومازالوا حتى لهجوا بالشعر السياسي يقولونه في خصومة العرب، ومنهم من اتصل بالاحزاب العربية المتناحرة ليهجو الحزب المنافس وليرفه عن حقده بذم العرب، ولم يكن هؤلاء الموالي - في رأي المؤلف - مخلصين للعرب انما كانوا يستغلون صراع الاحزاب في دنيا الامويين والعباسيين ليشفوا ما في صدورهم من كيد، وليحيوا حياة السادة الاحرار ثم استباح هؤلاء لأنفسهم أن يفخروا بأمجادهم الفارسية، وأن يتحدثوا عن ماضى العرب في البداوة والجاهلية، وأن يثيروها عصبية جنسية قاومها الخلفاء من أمثال هشام بن عبد الملك في الدولة الاموية، والرشيد في الدولة العباسية فعاقبوا من فاخر بفارسيته وباهى بعنصره، وقد ذهب هؤلاء الى نحل الجاهليين كثيرا من القصائد فزعموا أن الأعشى مدح كسرى وأن عدي ابن زيد ولقيط بن يعمر وأبا الصلت بن ربيعة قد مدحوا كسرى بشعر يروى، وعلى هذا النحو فاض لدينا من آثار الجاهلية مايشيد بذكر فارس

منحولا غير صحيح ، أما في النثر فقد اخترعوا خطب الوفود التي زعموها قد وفدت على كسرى وألمت بأتباعه من ملوك الحيرة ، وانتهى الامر بالدكتور الى أن ينكر معركة ذي قار وهي أول معركة انتصر فيها العرب على العجم وعدها أسطورة موضوعة ٠

فالشعوبية في مظهرها السياسى قد حملت الفرس على انتحال الاشعار فأكرهت العرب على أن يقابلوا الوضع بالوضع ، ولم تلبث بعد سقوط الاموية وقيام العباسية أن مكنت النفوذ للفرس سياسيا وعلميا وأدبيا ، ونشأ عدد كبير من العلماء الاعاجم في الاصل أخذوا يستظلون بسلطان الفرس وتحولت همتهم الى اعادة تاريخهم وترويج أمجادهم ، وقد حيل بين العرب ومناهضتهم اذ كان السلطان الفعلى في الدولة العباسية للفارسيين زمنا غير قصير ٠

ومن هنا ظهرت الكتب التي تتحدث عن مثالب العرب لأبي عبيدة والكلبي ، وتوالى الشعر الذي يفخر بكسرى وينتقص الاعراب في البوادي على لسان أمثال بشار وأبي نواس ، ولم تكن الزندقة في العصر العباسى الا مظهرا من مظاهر الشعوبية وقد ظهرت حركة دفاع تزعمها الجاحظ في رده على الشعوبية ودعت الى اختلاق شعر كثير نسب للجاهليين والاسلاميين ليثبت معرفة العرب بطبائع الحيوان والمامهم بشتى المعارف ، وأكثر ما جاء في كتاب الحيوان مما رواه الجاحظ مصنوع لهذه الوجهة في رأي الدكتور ، وهكذا قامت الحرب سجالا بين الشعوبيين والعرب وتمخضت عن نتائج أهمها في رأي الدكتور هو مانسب الى الجاهليين من شعر لم يقولوه ٠

هذا ملخص ما قاله الدكتور عن الشعوبية ، والحق أن الدكتور قد تشبع بما ضخمه الاستشراق عن الشعوبية ، لأن الواقع الملموس أن قوما من الفرس تعصبوا لآبائهم ففخروا على العرب ردا على تعاظم العرب عليهم

ودارت معارك أدبية بين الفريقين تمخضت عن بعض الكتب وبعض القصائد ، ثم انحسرت الموجة كما بدأت ، ولكن مؤرخي المستشرقين يحبون أن يثيروا الحفائظ بالرجوع الى الماضي البعيد ، اذ يعز عليهم أن يكون بنو الاسلام اخوة متحابين في كل صقع من أصقاع الحنيف ، فلا يجدون غير البحث في الانقاض المتراكمة ليثبتوا عداوة العرب للفرس وخصومة الفرس للعرب ! وكأن الاسلام لم يكن دينا يشمل الجميع بمباديء العدل والمساواة ، واذا شذ أفراد عن نهجه فهم لايمثلون الشعور العام الذي يجعل المسلم أخا المسلم ويرى المسلمين سواسية كأسنان المشط تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم كما قال رسول الله ، هذه المباديء الاسلامة وجدت تطبيقها العادل في شتى الازمنة الا ماشذ من فترات تمثل الاستثناء الفردي دون أن تكون قاعدة مطردة ، وأذكر أني أسهبت في شرح هذه الناحية فقلت فيما قلت (١)

(يتزيد كثير من المتحدثين عن الشعوبية في الادب والسياسة تزيدا ترفضه حقائق التاريخ الصحيح فهم يتصيدون بيتا أو أبياتا قالها بشار أو أبو نواس أو مهيار ، وكتابا ألفه أبو عبيدة أو الكلبي ، ليجعلوا من ذلك دليلا على اضطغان الفرس على العرب في الدولة العباسية وما قبلها ، وهي شنشنة نعرفها من دهاة المستشرقين ، ولكن الاندفاع في تضخمهيا على أيدي كتاب مسلمين مما ينافي الحقائق الصارخة ، فان جمهرة القائمين على الدولة العباسية من الفارسيين كانوا حصونها الواقية وأسلحتها المدافعة ، ومحاولة الانتقاص على الحكم الاموي أو العباسي قد وجدت من العرب في بعض أحوالها كما وجدت من الفارسيين ، وليس معنى ذلك أن مؤامرة شعوبية تدبر من فارس للقضاء على العرب كما يحاول بعض المغرضين أن يجوفوا الحقائق ليمزقوا أعضاء الجسد الواحد ، فالدولة العباسية وجدت أنصارها سياسة وعلما وأدبا من الفارسيين ، ولم تكن لتقوم بغير تكاتف

(١) النهضة الاسلامية في سير اعلامها المعاصرين للمؤلف (مخطوط) ورقة ٢٣٠

أبناء الاسلام جميعا على صيانتها والذود عنها ، وانتفاضة مخالف أو مخالفين لاتعتبر دليلا عاما ، وأصلا ترسو عليه الأحكام وأنت اذا أحصيت المعارضين للعباسيين والامويين تجد أكثرهم من العلويين والخوارج وهم عرب أقحاح كانوا في معارضتهم قادة لمن تبعهم من الفرس والديلم ، فلم تكن المعارضة شعوبية تهدف الى كيد العرب والاسلام ولكنها مما تضطر اليه طبائع البشر في كل جيل في الدولة الواحدة والملة الواحدة بل في الاسرة الواحدة ذات الجد الواحد حين ترى أبناء وأخوة يتصارعون ويتخاصمون دون أن يفسر ذلك بانتفاض شعوبي أو تفرقة عنصرية .. الى أن قلت بعد حديث طويل .

واذا نظرنا لأقوال ذكرها أبو عبيدة أو بشار أو أبو نواس فكل ذلك نزاع شخصي لايتسع حتى يشمل القوم أجمعين ، ومن يذهب الى ذلك العموم يجهل أن دين العربية وعلم العربية لم يخدما بأكثر مما سطره علماء وفقهاء ومحدثون من الفرس منهم البيهقي والنيسابوري والخوارزمي والجرجاني والترمذي والتفتازاني والزمخشري والرازي والشيرازي والبيضاوي واطوسى والبخاري والنسائي والفارابي والقزويني والسمرقندي والسجستاني والنسفي والهمذاني ومن لانستطيع أن نحصر من أمثال هؤلاء الاعلام فياليت المغالين يعرفون .

هذا كلام قلته قديما قبل أن أراجع ما قاله ناقدو الدكتور في كتابه وحين عنيت بهذه المراجعة وجدتهم قد أشبعوا الحديث عن هذه الناحية كي يضعوا الامر في حقيقته بعيدا عن التهويل المفتعل والصخب المبالغ فيه ، وان أطولهم باعا في هذه الناحية أستاذنا العلامة محمد فريد وجدي الذي ننقل عنه هذه الروائع المفحمة (١) قال رحمه الله :

(كانت الامصار والاقطار التي تعتبر مراكز للعلم والدين يشعان

(١) نقد كتاب الشعر الجاهلي للاستاذ فريد وجدي ص ١٥٠

منها على ماحولها من البلدان في عصر بني أمية ، مكة والمدينة والبصرة والكوفة واليمن ومصر والشام والجزيرة وخراسان ، فكان في كل عاصمة من هذه العواصم امام يقلده أهلها في الدين ويرجعون اليه في الفتوى ، أفلا تعجب ان ذكرت أن كل هؤلاء الأئمة الذين أخذ المسلمون عنهم الدين والعلم كانوا من الموالي الذين يقول عنهم الدكتور طه حسين انهم كانوا يكرهون العرب ، ويضمرون لهم الخصومة ، الا واحدا هو ابراهيم النخعي ، الذي كان امام أهل الكوفة فانه كان عربيا خالص العروبة ، أما من عداه فكانوا فرسا أو ديلما أو تركا أو من أجناس أخرى فقد كان عطاء بن أبي رباح اماما في مكة ، وطاووس اماما في اليمن ، ومكحول اماما في الشام ، ويزيد بن حبيب اماما في مصر ، وميمون في الجزيرة والضحاك بن مزاعم في خراسان والحسن البصري في البصرة وكلهم من الموالي ٠

وكان رأس التابعين والمقدم عليهم سعيد بن جبير ، وهو أسود اللون وقد ولاه الحجاج اقامة الصلاة في الكوفة ، والكوفة حينئذ معشش العرب وقبة الاسلام ٠

وكان سليمان الاعمش المشهور عبدا أعجميا ، وكان من العزة والمنعة بحيث يزدري بأمر هشام بن عبد الملك في قصة ذكرها الاستاذ وجدي ، وكان أبو حنيفة صاحب المذهب فارسيا وقد لقبه العرب أنفسهم بالامام الاعظم ، وأخذوا عنه الدين غير متحرجين ولا متأثمين ، وجمهرة العلماء الذين حفظوا القرآن والحديث كانوا من الفرس وغيرهم ، وهم البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة والدارقطني والسجستاني وغيرهم من أصحاب السنة لم تحل جنسيتهم في نظر العرب دون اعتبارهم أئمة علم الحديث ، وحسبانهم كتبهم من المراجع الوثيقة له ٠

أما أقدم الفقهاء الذين أخذ عنهم الأئمة مذاهبهم غير من ذكرنا فالحسن بن أبي الحسن ، ومحمد بن سيرين بالبصرة ، ومجاهد وسليمان

ابن يسار في مكة ، وزيد بن سلم ، ومحمد بن المنكدر ، ونافع بن أبي نجيح في المدينة ، وربيعة الرأي وابن أبي الزناء في قباء ، وكل هؤلاء كانوا من الموالي •

الى أن قال الاستاذ وجدي في ختام حديثه :

فان كان صحيحا ماقاله الدكتور طه حسين عن الموالي وجب أن يكون المسلمون منذ ألف وثلاثمائة سنة الى اليوم من الغفلة في الحضيض الاسفل اذ أخذوا دينهم من الطراز الذي وصفه الدكتور طه حسين باضمار الخصومة للمسلمين الأوائل وبكراهة الاسلام ، وتفضيل المجوسية عليه ، ولايقول بذلك عاقل •

وبهذا الرد الشامل يكون الاصل الذي اعتمد عليه الدكتور في تأكيد أثر الشعوبية في انتحال الشعر الجاهلي قد هوى من أساسه ولكن الدكتور لايكتفي بالاصل بل يلم بخواطر متناثرة تقع من نفسه موقع الشبهات التي لاتصل الى درجة اليقين بدليل أنه يتركها دون ايضاح يبسط ، أو تعليل يفسر، ولبعضها من الخطورة مايتحتم الرد عليه وبخاصة اذا اتجه الى أثر نبوي كريم ، ونضرب المثل لذلك بموقف الدكتور من موقعة ذي قار فقد عمد الى نكرانها مدعيا أن العرب قد اخترعوها ليثبتوا تفوقا على الفارسيين فيما قبل الفتح الاسلامي ثم تورط فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحدث عنها في بعض ماروى عنه ، وفي هذا تناقض صارخ اذ كيف يخترع العرب حديث الموقعة ردا على الشعوبيين مع أن رسول الله قد تحدث عنها قبل أن يفتح المسلمون بلاد الفرس وقبل أن تقوم للشعوبية قائمة في الناس ، ومن الانصاف أن نذكر للاستاذ محمد الخضر حسين رده القوي الذي بدد كل شك يتصوره معاند لجوج ، واذا كان الدكتور قد قال مانصه (ثم من هنا هذه الايام والوقائع التي كانت للعرب على الفرس والتي تحدث النبي عن بعضها وهو يوم ذي قار) فان شيخنا الخضر حسين قد عقب على هذا اللجاج بقوله

الحـاسم (١)

(ربمـا يكون المؤلف قد رأى هذا الاثـر في كتب الادب والتـاريخ فأضافة الى الحضرة النبوية كالواثق بصحة روايته ، ثم جعل واقعة اليوم كذبا ، فالمؤلف يؤمن بهذه الكتب اذا روت حديثا أو خبرا يبـدو له أن يتوكأ عليه في طعن أو غمز ، ويرميها بالزور والبهتـان اذا نقـلت أثرا صالحا للعرب أو الاسلام .

وقعت واقعة ذي قار بعد ظهور الاسلام ، ومن المؤرخين من يذكـر لها وقتا مسمى ، وهو السنة الثالثة للبعثة ، واذا احتمل بعض الاخبـار المتصلة بها أن يكون مصطنعا ، فان مجموع الاخبار والاشعار الواردة في طرق شتى تفيد أن أصل الواقعة ، وانتصار العرب على العجم مما لاشك فيه ، ونسبة حديث هذا اليوم الى العرب المضطرين أن يجيبوا الشعوبيين بلون من الانتحال مدفوعة بأن كثيرا من أخباره مروية في تاريخ ابن‌جرير والعقد الفريد عن شعوبي هو أبو عبيدة معمر المثنى فلولا أن خبر ذلك اليوم ثابت على وجه لايتمكن الشعوبي من انكاره لما كان من رواته أبو عبيدة الذي سيعده المؤلف في طبقة صناع الاخبـار المزرية بشـأن الامة العربية) وموقف أبي عبيدة من الامة العربية عامة ويوم ذي قار بخاصة قد جلاه الاستاذ محمد أحمد الغمراوي جلاء واضحا حين قال (٢)

(ثم بينا هو يزعم أن علماء الموالي كانوا يزدرون العرب وأن أبا عبيدة كان أشد الناس بغضا للعرب وازدراء لهم ، اذا بـه يزعم أن أبـا عبيدة كان العرب يرجعون اليه فيما يروون من لغة وأدب ، أفلم يكونوا يزدرونه اذن ، كما كان يزدريهم ، وهل لم يخشـوا أن يدس عليهـم في أدبهم مايزرى بهم ؟ ثم ماقول صاحب الكتاب في أن أبا عبيدة هذا الذي

---

(١) نقض الشعر الجاهلي للاستاذ الغمر ص ٢٥٤

(٢) النقد التحليلي ص ٢٥٦

كان يسرف في بغض العرب هو نفسه راوى أكثر أيام العرب ومنها يوم خزاز الذي الذي انتصف فيه العرب المستعربة من اليمن ، ويوم ذي قار الذي انتصف فيه العرب المستعربة من الفرس ، والذي زعم صاحب الكتاب أن العرب انتحلته استظهارا على الموالي ، أفكان العرب في حاجة الى اختراع أيام يعترف بها أشد رواة الموالي بغضا للعرب ، أم كان الموالي في حاجة الى افتراء أحاديث يرويها ويصححها من العرب الرواة الثقات كالأصمعي وابن سلام)

ومن التناقض المضطرب الذي وقع فيه المؤلف ، الحاحه على ادعاء الانتحال في الذي رواه الجاحظ من شعر يدل على علم ومعرفة وحضارة لأن العرب في رأيه بداة لايصلون الى هذا الرقي الثقافي ! مع أن المؤلف نفسه في الفصل الذي تحدث فيه عن القرآن الكريم وعده مرآة للتاريخ الجاهلي قد قرر أن العرب كما يصورهم القرآن أمة راقية متحضرة ذات جدل وثقافة ومعرفة بحيث لايصورها الشعر الجاهلي المنحدر الجاف في رأي الدكتور ؟ فليت شعري كيف يتناقض رأي الدكتور عن العرب في كتاب واحد فهم في فصل سابق متحضرون أذكياء ذوو معرفة وهم في فصل لاحق بدو همل لايرتفعون الى مستوى شعر يتحدث عن طبائع الحيوان فيصف نوازع الابل والثور والغزال والاسد والثعلب أي الرأيين نصدق اذن ؟

أما ماضربه الدكتور من الأمثلة المنتحلة في أبيات عدى ولقيط والأعشى وأبي الصلت الثقفي وعدها من أثر الشعوبية فهو ادعاء دون دليل حيث لم يتعرض للنسيج الفني الذي يوحي بابتعادها عن النمط الجاهلي ، ولكنه أحال على الشعوبيين ؟ وكنا نود أن نعرف واحدا من هؤلاء الذين تبرعوا بالنظم ونسبوه الى عدي والاعشى ولقيط وأبي

الصلت ولكن الدكتور لم يكلف نفسه البحث عن شاعر أو شعراء ظنهم ظنا دون استيقان ٠

تلك خلاصة لما قال صاحب الكتاب يعفى عليها ما عارضه به ناقدوه مضافا لما عنّ لنا أن نكمل به الحديث وانه لفسيح ممتد لمن يجد مجالا ٠

الرواة ونحل الشعر

تحدث الدكتور عن أثر الـرواة في نحل الشعـــر فأعـاد حديث الشعوبية حين ذكر أن هؤلاء الرواة اما أن يكونوا من العرب فيكونـوا متعصبين لهم أو من الموالي فيكونوا متعصبين عليهم ، وكأن القسمـــة ثنائية في نظره لاتقبل أن يكون من العرب والعجم معـا قسـم مخلص لايتعصب للحق ويرى الناس جميعا كأسنان المشـط متبعـا وحي دينه وهدى نبيه ، ينفي الدكتور هذا القسم المعتدل مع أنه الاكثر الاعم وله من الآثار والاراء مايستعصى على الكتمان ، ثم قال ان أهـم المؤثـرات التي عبثت بالأدب العربي هو مجون الرواة واسرافهم في العبث واللهـو وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الاخلاق الى مايأباه الدين وتنكره الاخلاق ولن تجد أظلم من هذا الحكم الذي ساقه الدكتور عاما غير خاص اذ أنه لو فرض أن وجد رواة كحماد اشتهروا بالعبث والفساد والبعـد عن الاخلاق فقد وجد كثير من الرواة بل وجد أن أكثر الرواة متدينون يلتزمون بالاخلاق ويتمسكون بالمروءة وفيهم من بلغ في ذلك حد التشدد مثل أبي عمر وبن العلاء ، فكيف يكتب الدكتور دون تحرز وهو يؤلف لطلاب يجب أن تحترم الحقائق العلمية حين توجه اليهم من أستاذ جامعي مسئول ، ثم أطال الدكتور في اسراف حماد في النحل وعبثـه بالمجـون ، وحماد ان اشتهر بالوضع فلم يتجرأ عليه الا حين روى آلاف القصائـد الصحيحة واستفاضت له شهرة في رواية المعلقات والقصـائد الجاهليـة والاسلامية حتى عقد له امتحان خاص عند بعض الخلفاء من بني أمية فأثبت قدرة تامة على الرواية الصحيحة ، واذا جاز له أن ينتحـل بعض القصائد أو يضيفها الى سواه فلم يأت ذلك الا بعد أن عرف مذهب هذا الذي ينحله القصائد وروى له من عشرات القصائد الصحيحة مايدل على

أن الصحة هي الاصل أما الزيادة فشيء طفيف يزاد ولايبخس بالاصل المشتهر الذائع ، على أن حمادا كان كثير اللدد والخصومة وله منافسون أعداء يشنون عليه الحرب ويجوّفون مايأتي به حتى لتنقلب الذرة عندهم هضبة عالية ، والدكتور يتتبع أقوال الخصوم من المعاصرين ويرويها كأنها جميعها حق لامرية فيه ، وهو بعد قد درس أحوال المجتمعات وألم بطبائع النفوس وعرف فيما عرف أن المعاصرة والمنافسة تدفعان الى التزيد ، ويكثر بها النقد الجارح ، ومن طبيعة المؤرخين ألا يكتفوا بأقوال الخصوم بل لابد من الاحاطة بما قال المحايدون والمتعصبون معا ، ثم تنجلي الحقائق بعد الموازنة العادلة واذا كان أمثال العدول الثقات من أعلام الفقه والتشريع قد وجدوا من منافسيهم من يرميهم بالتزيد حسدا وبغيا ، فلم تكن هذه الاقوال المغرضة حائلا دون تقديرهم المصنف ، أفيجوز للدكتور أن يتسقط التهم فيصدقها وكأنها حق لامرية فيه مع أن بعضها يحيق بشرفاء من الرواة عرفوا بالأمانة والاخلاص كأبي عمرو بن العلاء والاصمعي وأبي عمرو الشيباني ، أين ذهب شكّ الدكتور والحاحه في الشك أمام هؤلاء ، ولماذا تنكب مذهب ديكارت حين شاء أن يصدق المفتريات دون نقاش ، وهل يجوز لمن يتصدر الزعامة النقدية في الجامعة أن يكيل بكيلين فيلحظ زيدا بعين ، وعمرا بعين أخرى ثم يتعسف الحكم بالاتهام دون روية واحتياط ٠

لقد وقع الدكتور في حديثه عن الرواة في مناقضات كثيرة ، وقد تعرض ناقدوه الى بسط هذه المناقضات فأماطوا الاذى عن أناس وصمهم الدكتور بالتزيد دون تمهل واتئاد ، وسنحاول أن نشير الى بعض مادافع به هؤلاء عن الرواة في معرض الاتهام ٠

يقول الاستاذ محمد أحمد الغمراوي (١)

---

(١) النقد التحليلي ص ٢٦٤

(ان الرواة كانوا من أبصر الناس باللغة والشعر ، لاينكر عليهم صاحب الكتاب هذا ، وان حاول أن يجرحهم أجمعين من ناحية الامانة متخذا غير الامناء منهم وسيلة الى التشكيك في الامناء ، وكان المعقول أن ينتهز فرصة انقسام الرواة الى أمناء وغير أمناء ، فيحاول امتحان الشعر من ناحية رواته ، وينظر أيّ الشعر رواه الثقات ، وأيه تفرد بروايته غير الثقات ، فيميز الاول عن الثاني ويشك في الثاني دون الاول ، غير أن صاحب الكتاب بدلا من أن يسلك هذا الطريق العملي ، حاول أن يسده على نفسه ، ويسده على الناس جهد المستطاع ، ولم يقتصر في محاولته هذه على التشكيك في أمانة الامناء من الرواة بل أفرغ وسعه في التصغير من قدرة هؤلاء على النقد وقدرة أولئك على التلفيق .

فأما قدرة خلف وحماد ومن اليهما على التلفيق وعلى محاكاة الجاهليين فقد بالغ فيها حتى زعم أنهم كانوا أعلم باللغة والشعر وأقدر على التصرف فيها من العرب أنفسهم ، ولسنا ندري ان كان يريد بهذا أن الله قد اختص الملفقين وحدهم بهذا العلم الفذ ، والقدرة المتفوقة أم قد أشرك معهم في ذلك غيرهم ، من أهل الثقة والبصر ، فيكون اشتراكهم مع أولئك في العلم والقدرة ، واقيا لهم من الانخداع به والوقوع في شرك تلفيقهم ، على أننا نحب أن نعرف من أين جاء أولئك الملفقين ذلك العلم وتلك القدرة ، وهم قد ولدوا وماتوا متأخرين ولم تولد معهم تلك المقدرة ولا ذلك الغلم بالشعر ، أفليس اقرار صاحب الكتاب لهم بذلك العلم الواسع يلزمه من ناحية أخرى أن يقر بأنه قد كان هناك قبل أن يوجدوا علم باللغة والشعر ، فلما نشأوا أخذوه وتفوقوا فيه ، وهل ليس معنى ذلك أنه كان هناك علم بلغة العصر الجاهلي وشعره تمكن منه هؤلاء حتى استطاعوا أن يمهروا في نقده ، ويمهروا في تلفيقه ، واذا استطاع هؤلاء أن يعلموا لغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلماذا لم يعلمها غيرهم أيضا ، أليس اثبات مثل ذلك العلم لحماد وخلف دليلا على أن غيرهما أيضا كان

يعلمه ، وكان يقدر على النقد كما كانا يقدران على الوضع بفرض أن الوضع ليس في ذاته أصعب ولا أشق من النقد)

ولنا أن نجابه هذا الاتهام بسؤال صريح فنقول :

اذا كان الذي روى من شعر الجاهلية مئات القصائد لمئات الشعراء وكان الاتهام قد تعلق براويتين هما خلف وحماد فهل يمكن في التصور العقلي أن يكون هذان الراويتان وحدهما قد وضعا كل ماينسب الى الجاهليين ، وأي مقدرة خارقة لهما تجعلهما يضعان هذه الروائع الممتازة وينسبانها للناس ، وأيهما أكرم لنفسيهما وأدل على مدى عبقريتهما في معشرهما الادبي أن يقولا ان هذه الروائع من انشائهما ، وأنهما شاعران كبيران ينشئان هذه الفرائد الشعرية ويتمتعان بعبقرية نادرة في نظم الشعر الرفيع أم أن يقولا انهما راويتان ينقلان كلام القدماء وهما في منطق الدكتور ينظمان عشرات القصائد بل مئاتها حرصا على لقب الراوية ، ثم ان هذه القصائد مختلفة المنحى متعددة المشرب ، هذه القصائد الجاهلية تدل دلالة واضحة على أن مئات الشعراء مختلفي الاسلوب قد أسهموا في انشائها ، فكيف تصدر كلها مع اختلاف مذاهبها الادبية وتنوع اتجاهاتها الفنية عن راويتين أو ثلاثة أو أربعة بل كيف يتواطأ بعض الاعراب في أواخر العصر الاموي وأوائل العصر العباسى على افتعالها ، واذا أنشأها هؤلاء الاعراب مع خلف وحماد فكيف تحدث عنها الحطيئة في شعره أو كيف حفظها شعراء صدر الاسلام وأوائل العصر الاموي من أمثال كعب وحسان والاخطل والفرزدق وجرير ، قد يختلق حماد بضع قصائد وقد يختلق خلف قصيدة أو قصيدتين ولكن ذلك شيء واختلاق الكثرة الكاثرة من الشعر الجاهلي شى آخر كما يذهب الدكتور بل انه ناقض نفسه فزعم مرة أن الشعر الجاهلي كله منحول ، ثم تلطف فزعم أن كثرته الكاثرة منحولة ، ورأى في اتهام حماد وخلف مايكفي لنسبة هذه الكثرة الكثيرة اليهما ، والذي يقبله العقل أن شيئا

ما قد زاد وأن القدماء من أمثال ابن سلام وأبي الفرج والمزرباني قد أكدوه وأشاروا اليه وأن أنصار القدماء من أمثال الاستاذ الرافعي قد أكدوه وذكروا دوافعه واستشهدوا بالمتهمين من صانعيه ، واذن فأي جديد أتى به مرجليوث ومقلده طه حسين !

واذا كان من سمات الاستاذ محمد الخضر حسين في ردوده المقنعة على شكوك المؤلف أنه يتعقب الجزئيات المتناثرة في كلامه تعقبا يقطع عليها كل طريق فاننا سننقل رده على فقرة هامة تمثل جزئية تتعلق بالراوية أبي عمرو الشيباني ، وندع ماقاله عن حماد وخلف لأن الكلام في هذين أصبح قاسما مشتركا لدى كل من يتحدث عن الرواية والرواة ، وما قاله الرافعي وابن سلام عنهما قد وضعهما موضعهما الصحيح بحيث أصبحت زيادات الدكتور عنهما غير ذات موضوع اذ رجمت بالغيب دون دليل ، أقول انني سأنقل رد أستاذنا الخضر رحمه الله على ما تعلق به الدكتور في أمر أبي عمرو الشيباني لنرى دقة العالم ، واحاطة الباحث في قول شيخنا الخضر رحمه الله (١)

(قال المؤلف ـ يعني طه حسين ـ وهناك راوية كوفي لم يكن أقل حظا من صاحبيه هذين في الكذب والانتحال ـ يريد خلفا وحمادا ـ كان يجمع شعر القبائل حتى اذا جمع شعر قبيلة كتب مصحفا بخطه ووضعه في مسجد الكوفة ، ويقول خصومه (انه كان ثقة لولا اسرافه في شرب الخمر ، وهو أبو عمرو الشيباني ، ويقولون انه جمع شعر سبعين قبيلة)

فقال الخضر (يرمي المؤلف أبا عمرو الشيباني بالكذب والانتحال ويقول لك ان خصومه يقولون انه كان ثقة ، خصوم الرجل الذين كانوا على مرأى ومسمع منه أبت ضمائرهم أن تصفه بغير الثقة ، وهذا

---

(١) نقض الشعر الجاهلي ص ٢٧٣

المؤلف الذي لم يلق من أثر أبي عمرو الا مانقله خصومه أو مريدوه يأبى لسانه الا أن يصفه بالكذب والانتحال ، سلوا المؤلف عما استند اليه من قذف هذا الراوية الذي يقول خصومه انه ثقة ، سلوه ، فلا جواب له الا أن أبا عمرو روى شعرا جاهليا ، والشعر الجاهلي كعنقاء مغرب لايحوم الا في خيال بعيد ٠

سلوه عما استند اليه في شهادته على أبي عمرو بأنه كان يشرب الخمر ، فانه سيحيلكم على كتب تقول لكم انه كان يشرب النبيذ ، والفرق بين النبيذ والخمر معروف بين الفقهاء والأدباء ، ولعل المؤلف يدري هذا الفرق واستبدل في عبارته النبيذ بالخمر لأنه يعمل ليغير التاريخ ، والعامل على تغيير التاريخ يسوغ له في منهج ديكارت أن يضع الكلمة بدل أخرى اذا كانت أوفى وأنهض بالغرض الذي من أجله يغير التاريخ ٠

الخمر معروفة ، وهي محرمة بالكتاب والسنة والاجماع ، والنبيذ مايتخذ من التمر والزبيب والعسل والحنطة والشعير ، ولايسكر منه الا الكثير ، وقد اختلف العلماء في المقدار الذي يسكر من النبيذ ، وفتاوى أهل العراق فيه مشهورة ، وفي القائلين بحرمته من لايوجب فيه حدا ، ولايرى للمحتسب أن يؤدب على المجاهرة به ، ولسنا بصدد البحث عن النبيذ من وجهة نظر الشارع فان مسألته الخلافية مبسوطة بأدلتها وأقيستها في كتب الاصول والفروع ، وانما أريناكم أن المؤلف لايبالي أن يخلع من عنقه طوق الامانة ويضع الخمر موضع النبيذ)

يقول المؤلف : (وأكبر الظن أنه كان يأجر نفسه للقبائل يجمع لكل واحدة منها شعرا يضيفه لشعرائها) فقال الخضر (أبو عمرو الشيباني يقول خصومه انه كان ثقة ، وشهادة خصومه مطابقة لشهادة مريديه ، ويقول الرواة أنه قرأ دواوين الشعر على المفضل الضبي ، وكان المفضل الضبي مختصا بعلم الشعر وأوثق رواة الكوفيين ، وايجار

عالم كأبي عمرو نفسه للقبائل في عمل يستدعي الاتصال بائفة من الشعراء ليس بالامر الذي يقع دون أن يشعر به أحد من خصومه أو منافسيه ، وهل يمكن أحدا اليوم مناجاة بعض الشعراء على أن يضعوا له قصائد يضيفها الى قوم آخرين فينفقوا أوقاتا طويلة في انشاء هذه الدواوين ويبقى أمرها مطويا عن سائر الناس ولا تلتقط نبأه أذن واعية)

وهكذا دفع الخضر كل اتهام يوجه الى أبي عمرو ، وبذلك وضعه موضع الثقة الامين .

ولقد ظلت قضية الرواة ومدى نحلهم الشعر مصدر بحث ومناقشة فيما ولي معركة الشعر الجاهلي من دراسات ، فأخذ الذين يتحدثون عن تاريخ الادب الجاهلي يصدرون فصولا تتجه الى الحديث عن مدى صدقهم ، وتبدي الآراء في بعض من اتجهت اليه الظلنة منهم ، حتى ظهر كتاب (مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية) للدكتور ناصر الدين الاسد فناقش الموضوع من أطرافه وأجاب عن كل مايتصل بالشعر الجاهلي من تساؤلات ، حتى اذا بلغ حديث الرواة ، أفرد بابا قيما عنهم ، بدأه بالحديث عن مدرستي الكوفة والبصرة متعرضا لتدوين الحديث النبوي وأثره في تتبع الرواية الشعرية حيث التزم المحدثون شروطا كان لها أثرها القوي في رواية اللغة ودراسة النحو والفقه فاذا مهد بذلك كله للحديث عن الشعر فقد بلغ هدفه المحدد ، اذ بدأ بالقول عن حماد لأنه المتهم الاول في رأى المشككين فأتى برأي المفضل في منافسه الكبير متتبعا ما تناثر في كتب الادب عن ذلك ثم ثنى برأي الاصمعي وثلث برأي ابن سلام وختم برأي خلف ، ليناقش كل رأي على حده ، وليبين ماتضح من دوافع الهجوع أو بواعث المحاباة ، وقد انتهى بعد طوافه الطويل الى قوله (١)

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي ص ٤٥٠ ط ثالثة

(فنحن اذن ــ بعدما عرضنا هذه الاخبار و بينا مافيها من زيف ، نميل الى أن نعد أكثر ما أتهم به حماد موضوعا ــ دعت الى وضعه عوامل عدة منها هذه العصبية التي كانت متأججة بين البصرة والكوفة ، ومنها تلك المنافسات والخصومات الشخصية التي كانت بين المفضل وحماد ، ومنها العصبية السياسية ، فقد كان حماد أموي الهوى والنزعة ، وكانت دولة بني أمية قد ولت وأقبلت دولة جديدة ، تناصبها العداء وتريد أن تمحو محاسنها ، وآثارها ، وتحط من قيمة من اشتهر فيها أو نال لديها حظوة ، ومنها أن حمادا كان ــ باعتراف الرواة ــ كثير الرواية واسع الحفظ ، فكان يروى مالا يعرفه غيره ، ويحفظ مالايحفظون ، فأتهموه بالتزيد والوضع ، وقد ساعد على كيل هذا الاتهام له وتضعيفه وتجريحه أنه كان ماجنا مستهترا بالشراب مفضوح الحال)

وانتقل الدكتور ناصر الدين الى خلف فذكر آراء المؤرخين والادباء فيه ، وناقش من يعد له من الآراء ومن يضع روايته موضع التجريح ، وبذل جهدا كبيرا في ذلك لأن أمر خلف من الخفاء واللبس بحيث تتبهم فيه المسالك الا على ذي دربة دؤوب ، وقد بين مبلغ التعصب على خلف من خصوم رأوه يفوقهم فحاولوا هدمه مختتما حديثه بالتساؤل عن الاصمعي وابن سلام وكيف وثقا خلفا وهما من هما صدق فراسة وجودة تتبع وأجاب بأنهما وثقاه لأنه كان ثقة ولأن ماحط من شأنه من الشائعات كان ملفقا مخترعا دعت اليه الخصومة العنيفة والحسد اللجوج .

ومضى الدكتور ناصر الدين يستعرض غير خلف وحماد ، والكلام في غيرهما مما يسهل ، لأن الشبه لم تتزايد الا حول حماد ولم تعلق بعده بغير خلف ، على أن الدكتور الاسد قد اجتهد اجتهادا لاتنقصه الحيطة حين أعلن أنه لايذهب الى أن جميع مانسب للجاهليين صادق لامريه فيه ولكنه يتشعب الى ثلاثة أوجه ، فضرب موضوع منحول اما على وجه

اليقين أو الرجحان وهو ماوضعه القصاص على لسان الانبياء وغيرهم من رجال العرب البائدة وما كان بسبيل ذلك مما دعا اليه اكتساب محمدة أو الصاق مجادة ببعض السابقين ، وضرب صحيح لا سبيل الى الشك فيه أو الطعن عليه وهو ماأجمع العلماء من الرواة على صحته بعد أن تدارسوه وفحصوه ومنهم فيما ذكر أبو عبيدة والاصمعي وابن سلام ، وخلاد بن يزيد الباهلي ، واعتمادهم في تدارسه على الذوق الشعري ، ورواية الثقات وما سجل في الصحف والدواوين ، أما الضرب الثالث فهو المختلف فيه وقد يبدو للقارىء المتعجل أنه كثير لوفرة مايقرأ في الكتب من قولهم (وهذا البيت مصنوع ولكنه في الحقيقة ضئيل جدا بالنسبة لكثرة ما وثقه الاثبات من العدول ، ثم ختم الدكتور الاسد بحثه الممتع بقوله (١)

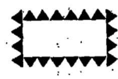
(ومع ذلك ــ يريد العناية والجهد والتحري في الرواية ــ فقد كان لابد لبعض هؤلاء العلماء من أن يختلفوا ، فقد وقع لبعضهم من الصحف المكتوبة ، أو الدواوين المدونة ، أو الرواة من الشيوخ العلماء ومن الاعراب الفصحاء مالم يقع كله لغيره ، ثم كان لكل طائفة من هؤلاء العلماء منهج في الاخذ والتلقي على نحو مابيناه من صحائف تقدمت ، ولكن هذا الخلاف في المصادر أولا ، وفي المنهج ثانيا ، لم يمنع العلماء من أن يأخذ بعضهم عن بعض ، ومن أن يرحل علماء المصر الى المصر المجاور ليأخذوا منهم ، ويرووا عنهم ، ثم ينقلوا ماتيقنوا صحته الى تلاميذهم ويكتبوه فيما يجمعون من دواوين فهذه الدواوين المنسوبة المسندة التي يرتفع اسنادها الى الطبقة الاولى أو الى تلاميذهم من علماء

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي ص ٤٧٧

الطبقة الثانية هي التي تحوي بين دفتيها الشعر الجاهلي الذي تيقنـوا صحته بعد تحر واستقصاء وجمع وتمحيص ونقد)

وما أظن بعد مانقلناه من النصوص وفندناه من الشبه ورجحنـاه من الاقوال مدعاة للجاج في حديث الثقات من الرواة وقد كشف النظر عن صدقهم الامين ·



مثال تطبيقي

بعدما تقدم من الفصول التي أقنع الدكتور بهانفسه فخيل اليه أنه وضع بها الاسس الثابتة لنقض الشعر الجاهلي رأى أن يتقدم الى التطبيق العملي فيعرض ماتعورف من حيوات الشعراء الجاهليين ، وماشتهر من قصائدهم الذائعة على بساط التحليل الادبي ليظهر مابها من افتعال كاذب والحق أن ماقام به المؤلف من التطبيق العملي كان وحده دليلا على فساد ماقدم من الآراء ، ولو لم يرد عليه معارضوه بشيء سوى توهين ماتكلفه من التطبيق العلمي لبلغوا مبلغا لاحد بعده في تفنيد كل ماقال ، لأن صاحب المنهج العلمي في استصحاب الشك ، وعدم اليقين في شيء دون ظهور دلائله ، صاحب هذا المنهج الذي بالغ في تأكيده في الفصول الاولى قد كان أول الخارجين عليه ، اذ ذهب يستعين بالآراء الشاذة ، وبالاقوال المتضاربة وبالاخبار الملفقة ، وكأنها تاريخ لامرية فيه ، مع أنه شك في كل يقين تواترت عليه الروايات الصحيحة وأجمعت عليه الكتب المدونة وسجله الاثبات المحققون ، فيالله كيف ترى خبرا متواترا أجمع عليه الرواة وقامت على صحته البراهين موضع تزييف وتوهين ، ثم تتسقط رواية موهومة في كتب من كتب المسامرات الادبية لتكون حقا لامرية فيه وكان المنتظر على الاقل ألا تلحق في منطق الدكتور بالاخبار المتواترة اذ يكون الامر كما قال المتنبي :

وكان حالهما في الحكم واحدة   لو اختصمنا من الدنيا الى حكم

ولكن الرجل تابع ، واضطر أن يتابع الى أقصى الطريق ، فاضطرب عليه ماأراد .

ويطول البحث لو تتبعنا كل ماقاله الدكتور عن الجاهليين شاعرا

شاعرا ، ولكننا سنكتفي بامرىء القيس وأمية بن أبي الصلت اذ كان الاول أشهر الجاهليين قاطبة واذكان حديث الدكتورعنه أكثر من حديثه عن سواه لنرى كيف اضطرب الميزان في يدالدكتور حين لجأ الى الاعتساف دون دليل ، وامرؤ القيس مثل لما تلاه في خلل التطبيق العملي لدى الدكتور يغني عن سواه ، أما أمية فالحديث عنه ذو منحى ديني لايجب أن يفوت ٠

ان الشكوك التي بسطها الدكتور في كتابه عن امرىء القيس (١) تدل على تضارب متناقض ، اذ يذكر الاستاذ الاسماء والكنى التي تعرف لامرىء القيس ويقول ان تعددها دليل على الشك في وجود صاحبها ، وهذا التعدد كثير في أكثر مايقال عن شعراء العرب جاهلية واسلاما ، فليس للدكتور دليل فيه ، ثم قال اذا كانت الكثرة من العلماء تجمع على وجود امرىء القيس فأنا لاأعبأ باجماع الكثرة ، فقدكانت كثرة العلماء تنكر كروية الارض وحركتها وظهر فيما بعد أن الكثرة كانت مخطئة ، وهو كلام ساذج ينكر الفارق بين الاجماع على الحقائق التاريخية والحقائق الطبيعية الكونية ، فالحقائق التاريخية دليلها التواتر المؤكد على توالي العصور ولن تتغير هذه الحقائق مادامت قد رويت عن ثقات عدول وقامت الادلة على صحتها ، أما الحقائق الطبيعية الكونية ، فخاضعة لمعطيات العلم ، ولكل يوم في دنيا العلم جديد تنقلب عنده الآراء ، ويتغير الاجماع ، فكيف يجوز لمثل الدكتور أن يخلط هذه بتلك ، لقد بالغ المؤلف فادعى أن أخبار امرىء القيس نشأت في عصور اسلامية متأخرة اذ اخترعت لبناء تاريخ قديم لقبيلة كندة ، واستطرد الكاتب الى الحديث في سيرة الاشعث بن قيس ليقول انه كندي وفد على النبي وأسلم ثم ارتد وأصهر الى أبي بكر ثم حارب مع علي وانتقلت السيادة من بعده الى ابنه ثم الى حفيده عبدالرحمن بن الاشعث الذي ثار على الحجاج وخلع

---

(١) في الادب الجاهلي ص ١٩٧

عبد الملك بن مروان ، وكان سببا في اراقة دماء المسلمين من أهل العراق والشام ثم انهزم فلجأ الى ملك الترك ثم تنقل في مدن فارس وإسيتيأس فعاد الى ملك الترك حيث غدر به هذا الملك فأسلمه للحجاج فقتل نفسه في الطريق قبل أن يصل اليه ، يعنى الدكتور نفسه بذكر كل هذه الاحداث عن ابن الاشعث ليقول ان قصة امرىء القيس تشبه من وجوه كثيرة حياة عبد الرحمن بن الاشعث فهي تمثل لنا امرأ القيس مطالبا بثأر أبيه وكان عبد الرحمن بن الاشعث مخاصما يطلب الثأر ، وهي تمثل امرأ القيس طامعا في الملك ، وكان عبد الرحمن بن الاشعث يرى أنه ليس أقل من بني أمية استئهالا للملك ، وتمثل لنا امرأ القيس متنقلا في قبائل العرب وقد كان عبد الرحمن بن الاشعث متنقلا في مدن فارس والعراق ، وهي تمثل امرأ القيس لاجئا الى قيصر مستعينا به ، وقد كان عبد الرحمن بن الاشعث لاجئا الى ملك الترك مستعينا به وهي تمثل لنا أخيرا امرأ القيس وقد غدر به قيصر ، وقد غدر ملك الترك بعبد الرحمن بعد أن كاد له رسل الحجاج ، وهي تمثل لنا عبد الرحمن وقد مات في الطريق كما مات امرؤ القيس أيضا وهو عائد في الطريق ، ويزاحم المؤلف هذه الاعاجيب ليقول (١) (أليس من اليسير أن نفترض أن حياة امرىء القيس كما يتحدث بها الرواة ليست الا لونا من التمثيل لحياة عبد الرحمن استحدثه القصاص ارضاء لهوى الشعوب اليمنية في العراق واستعاروا له اسم الملك الضليل اتقاء لعمال بني أمية)

بهذه البساطة يقرر الدكتور هذا التشابه ، لأن رجلا رحل من مكان الى مكان وحارب واستعان بغيره ثم أخفق في الطريق كما أخفق امرؤ القيس مع أن ملايين الناس قد فعلوا ذلك في مدى التاريخ الطويل فلن يمر جيل من الاجيال دون أن تجد طامحا ينهض لاستعادة المجد

---

(١) في الادب الجاهلي ص ١٩٩

فيحشد الجموع ثم يلجأ الى الاقوياء يستعين بهم ، وقد ينتصر في مسعاه وقد تتألب عليه ظروف أقوى منه فينهزم فيلقى نهايته الاليمة ، وهذه قصة الحياة المتكررة ، أيكون في تشابه بعض أحداث امرىء القيس مع أحداث ابن الاشعث برهان على أن قصة امرىء القيس قد اخترعت على نسق قصة ابن الاشعث وحينئذ فكل أخباره ملفقة لايعرفها التاريخ الصحيح .

ثم يمضى الدكتور في انكار الحقائق التاريخية دون دليل غير الوهم المتخيل فقط فيقول (١) (نحب أن نعرف كيف زار امرؤ القيس بلاد الروم وخالط قيصر حتى دخل الحمام وفتن ابنته ، ورأى مظاهر الحياة اليونانية في قسطنطينية ، ولم يظهر لذلك أثر ما في شعره ، لم يصف القصر ولم يذكره ، ولم يصف كنيسة من كنائس قسطنطينية ، لم يصف هذه الفتاة التي فتنها ، لم يصف الروميات ، لم يصف شيئا مايمكن أن يكون روميا حقا ، ثم يكفي أن تقرأ هذا الشعر لتحس فيه الضعف والاضطراب والجهل بالطريق الى قسطنطينية)

وقبل أن ننقل ما قاله بعض ناقديه تعليقا على ذلك أذكر أن امرأ القيس كان غريبا في بلد ينطق بغير لغته ولئن نطق بالشعر ووصف ما قال ، فمن الذي يرويه عنه وهم أعاجم لايعرفون روعة ما قال شاعر عربي يغنى بلغته ، وهبه قال ما قال ووصف مارأى من الكنائس والقصور والروميات ثم رجع ومات في الطريق فمن لنا بأن نشق عن صدره بعد الموت ، ونعرف ما قال وقد ذهب كل شىء بموته ، لو أن تاريخ امرىء القيس قد أثبت أن الشاعر رجع حيا الى ديار قومه في نجد وقال الشعر بعد ذلك في أحداث البادية ، ولم يقل شيئا مما شاهد في القسطنطينية لأمكننا أن نجد لاعتراض الدكتور بعض الوجه ولكننا

---

(١) في الادب الجاهلي ص ٢٠٢

في عصرنا الراهن عصر المطبعة والصحافة والاذاعة نرى من يرحل الى أوروبا ويدون مذكراته ثم تغرق في البحر معه أو تسقط من الجو في الطائرة فتضيع المذكرات المكتوبة مع ضياع كاتبها ، ولا نجد من يجرؤ على انكار رحلته ولكن الدكتور يطلب من شاعر غريب يموت في الطريق قبل أن يرجع الى بلده أن يأمر الريح فتنقل شعره في بلاد الروم الى أباطح نجد ، وان لم تفعل فهو لم يوجد ، ولم يرحل ، ولم يقل الشعر ، وكل ما يقال عنه مختلق غير صحيح .

أما أستاذنا الشيخ محمد الخضر حسين فقد رد على كلام الدكتور في هذه الناحية بكلام آخر يهدم ماقال في تحفظ ودقة نعهدهما فيه فقال (١)

(من الجائز أن يكون في الاخبار المتصلة بقصة ذهاب امرىء القيس الى القسطنطينية ماليس بثابت ولاسيما مايحكيه الرواة أنفسهم بنحو قولهم (ويقال) أو (زعموا) أو (ذكروا) أماأصل القصة فقد تواردت عليه الروايات ، وما تتوارد عليه الروايات لاينساب الى الحكم عليه بالانتحال ، وهو أعزل من البينة الا من يخف على لسانه أن يقول مالا يمليه العقل ، وليست الروايات العربية وحدها تذهب الى أن امرأ القيس رحل الى القسطنطينية مستنجدا بملك الروم على بني أسد ، فانك تجده في كتاب شعراء النصرانية (٢) معزوا الى تاريخ الروم ، واليك ماجاء في الكتاب (وقد جاء ذكر امرىء القيس في تاريخ الروم مثل كتب (بونوز وبركوب) وغيرهما وهم يسمونه قيسا ، وقد ذكروا أنه قبل وروده على قيصر (يوستينيانس) أرسل اليه وفدا يطلب منه النجدة على بني أسد ، وعلى المنذر ملك العراق ، ثم أخبر المؤرخون أن

---

(١) نقض الشعر الجاهلي ص ٣٠٢

(٢) شعراء النصرانية حـ ١ ص ٣٥

امرأ القيس لم يلبث أن سار بنفسه الى القسطنطينية فذكر (نونوز المؤرخ أن (يوستينيانس) قلده امرة فلسطين الا أنه لم يسع في اصلاح أمره ، واعادة ملكه ، فضجر امرؤ القيس وعاد الى بلده ، وكانت وفاته نحو سنة ٥٦٥ م أصابه مرض كالجدري في طريقه كان سبب موته)

وقارىء العربية يستطيع أن يتابع الروايات الرومية في كثير من التحليل الفني الشائق اذا قرأ الجزء الاول من رواية سيد قريش (١) للاستاذ معروف الارناؤوط ، واذا قرأ قصة (الملك الضليل) للاستاذ محمد فريد أبي حديد (٢) ، وكلا الكاتبين قد رجع الى أكثر من مصدر أجنبي فعرف الكثير •

فاذا تركنا أخبار الشاعر التاريخية وقد علمنا مبلغ ماوصل اليه الدكتور في توهينها فان الظن يسبق الى أن المؤلف حين ترك التاريخ المعروف للشاعر ولجأ الى شعره الخالص سيأتي بما يثبت مذهبه ، لأن الميدان ميدان الشعر ، والمؤلف ناقد له في فهم الشعر مذهب وذوق وتفسير ولكننا نجد المؤلف يعيد في حديثه عن امرىء القيس ماسبق أن قاله في باب (اللغة والشعر الجاهلي) فهو يقول ان امرأ القيس ان صحت أحاديث الرواة يمني ،وشعره قريشي اللغة ، لا فرق بينه وبين القرآن في لفظه واعرابه وما يتصل بذلك من قواعد الكلام ، ونحن نعلم ـ هكذا يقول الدكتور ــ أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز فكيف نظم الشاعر اليمني شعره في لغة أهل الحجاز ، بل في لغة قريش خاصة ، سيقولون نشأ امرؤ القيس في قبائل عدنان وكان أبوه ملكا على بني أسد ، وكانت أمه من تغلب ، وكان مهلهل خاله ، فليس غريبا أن يصطنع لغة عدنان ويعدل عن لغة اليمن ، ولكننا نجهل ذلك كله ، ولانستطيع أن

---

(١) سيد قريش للاستاذ الارناءوط طبعة ثانية سنة ١٩٦٣

(٢) الملك الضليل للاستاذ محمد فريد ابي حديد ط دار المعارف بمصر

نثبته الا من طريق الشعر الذي ينسب الى امرىء القيس ، ونحن نشك في هذا الشعر ، ونصفه بأنه منحول).

هذا مايقوله الدكتور ، وقد كرره بمعناه في فصول كثيرة حين تعرض لاختلاف اللغة بين عدنان وقحطان فحين تأتيه بالحق المتواتر من الاخبار يقول انه يشك ، ويشك هكذا دون تعليل ، وحين تأتيه بالذائع المشتهر من الشعر رواه الثقات ، وسجله العدول ، يقول انه منحول ، ويقول هكذا دون تعليل ، ولكن الاستاذ محمد الخضر حسين يأخذ عليه السبيل حين يعقب عليه بقوله (١)

(يقول الرواة ان امرأ القيس يمني نشأ في نجد ، والمؤلف يخرج على أدب البحث ، فيؤمن لهم بأنه يمني ، ويتغاضى عن قبول أن يكون نشأ في نجد ، فيقسم كلامهم شطرين ، فيؤمن بشطر ، ويكفر بشطر حتى يجد الوسيلة الى مجادلتهم ومغالطتهم بأن لغة اليمن غير لغة عدنان ، وأن هذا الشعر الذي يعزى الى امرىء القيس مصوغ بلسان عدناني مبين .

ومن البديهي أن الذي يتصدى لمجادلة من يقولون : امرؤ القيس يمني نشأ في نجد ، وليس له علم بهذا الشاعر من غير طريقهم اما أن يصدقهم في يمنيته ونشأته في نجد ، واما أن يكذبهم في الامرين جميعا ، فهذا الدوران الذي يشكوه المؤلف انما وقع فيه من جهة أنه قبل من الرواة أن يكون امرؤ القيس يمنيا ، وأبى لهم أن تكون نشأته في نجد) .

ويأخذ الخضر على منتقوده الطريق حين يجد الدكتور يعترف صراحة بصحة بعض الابيات التي نسبت الى امرىء القيس فيقول في افحام :

(مقتضى تمسك المؤلف بأن امرأ القيس يمني مولدا ونشأة ، وأن

---

(١) نقض الشعر الجاهلي ص ٣٠٥ ، ٣٠٦

لغة قحطان نازلة من لغة عدنان منزلة اللغات غير العربية ، أن يكون جميع هذا الشعر الذي يضاف الى امرىء القيس منحولا ، فانا لم نجد شيئا منه على غير اللغة التي ينظم فيها شعراء نجد والحجاز ، ولكن المؤلف يقول في هذه الصحيفة ان البحث ينتهي به الى أن أكثر هذا الشعر ليس من امرىء القيس في شيء ، ومعنى هذا أن في الشعر المضاف الى امرىء القيس شعرا هو منه في شيء ، وأظن أن المؤلف سيجد كثيرا من المشقة والعناء ليحل هذه المشكلة) ومصدر العناء المشكل أن اعتراف الدكتور ببعض شعر امرىء القيس وقد قاله بلغة عدنان ينقض كل ماقاله من أنه يمني لايستطيع أن ينظم بلغة عدنان في نجد والحجاز ، فها هو ذا ينكر شعرا لعلة ، ويعترف بشعر لغير علة ، وعلة ماأنكر هي نفسها تقف في وجهه حين يعترف ببعض ما قال الشاعر المظلوم .

ثم يمضي الدكتور في بحثه الفني عن شعر امرىء القيس فيرى من ناحية أولى أن ماجاء في معلقة امرىء القيس من الحديث عن لهو العذارى ومواقفه من صاحبته أشبه بأن يكون من نحل الفرزدق منه بأن يكون جاهليا ، فالرواة يحدثوننا أن الفرزدق خرج في يوم مطير الى ضاحية البصرة فاتبع آثارا حتى انتهى الى غدير ، وإذا فيه نساء يستحممن ، فقال ماأشبه هذا اليوم بحديث دارة جلجل ، والذين يقرءون شعر الفرزدق ويلاحظون فحشه وغلظته وأنه ليم على هذا الفحش وهذه الغلظة لايجدون مشقة في أن يضيفوا اليه هذه الابيات فهي بشعره أشبه ، ومن ناحية ثانية يرى الدكتور أن وصف امرىء القيس لحبيبته وزيارتها وتجشمه ماتجشم للوصول اليها ، وتخوفها من الفضيحة حين رأته ، وخروجها معه وتعفيتها آثارهما بذيل مرطها وما كان بينهما من لهو هو أشبه بشعر عمر بن أبي ربيعة منه بأي شيء آخر ، فهذا النحو من القصص الغرامي في الشعر فن عمر بن أبي ربيعة قد احتكره احتكارا ولم ينازعه أحد وقد يكون غريبا أن يسبق امرؤ القيس الى هذا الفن والى

هذا الاسلوب ويعرف عنه هذا النحو ثم يأتي عمر بن أبي ربيعة فيقلده فيه ولا يشير أحد من النقاد الى أن ابن ربيعة قد تأثر بامرىء القيس .

هذا ما قاله الناقد الادبي الكبير ، فهو ينحل جزءا من شعر امرىء القيس الفرزدق ، وجزءا آخر عمر بن أبي ربيعة ، ومن يقرأ ذلك يظن أن منهل عمر هو منهل الفرزدق اذ اشتركا في أسلوب واحد وفي أبيات صوغها واحد ، ونسيجها واحد ، وماؤها واحد ، والواقع الملموس ينكر أن يشبه شعر الفرزدق شعر عمر بن أبي ربيعة فأحدهما ينحت من صخر ، والآخر يغرف من نهر ، فكيف جاز أن يقول الشاعر الواحد صاحب المشرب الواحد قولين مختلفين لشاعرين يختلفان منحى وتفكيرا وتعبيرا وتصويرا ماذا يقول الناقد الادبي الكبير في ذلك ! وهو بداهة لايجرؤ أن يقرر أن أسلوب الفردزق هو أسلوب ابن أبي ربيعة ، وأقل تلاميذه يدرك مابين الشاعرين من بون بعيد .

وقد أصاب الاستاذ محمد أحمد الغمراوي مقطع الرأي حين قال في الرد على ذلك الادعاء (١)

(على أنه عاد فزعم أنه لايعرف قصيدة يظهر فيها التعمل والتكلف أكثر مما يظهران في المعلقة ، وسكت عن القصيدة الثانية الا عن غزلها الذي زعم أنه أشبه بغزل عمر بن أبي ربيعة والفرزدق ، أي أنه من شعر كليهما أو أحدهما وليس من شعر امرىء القيس ، ولا ندري وقد وصل الى نقطة محدودة كهذه لِمَ لم يبحثها كما ينبغي ، وينظر هل غزل القصيدتين يشبه كلام الفرزدق ورفيقه في نظمه كما أشبه كلامهما في موضوعه ، فان الشبه في الموضوع ليس بشيء وانما العبرة في النظم وتوفر الخصائص فيه ، وخصائص الفرزدق وعمر بن أبي ربيعة ممكن

(١) النقد التحليلي ص ٢٩٣

استخلاصها من شعرهما الكثير المعروف ، أو ينبغي أن يكون ذلك ممكنـا واذن فينبغي أن يكون ممكنا ذلكم الحكم بالدليل الادبي المحسوس عـلى ذلك الغزل ، أهو لذينك الشاعرين أم ليس لهمـا ، وكـان عـلى صاحب الكتاب أن يفعل ذلك قبل أن يحكم بما حكم به)

هذا نموذج تطبيقي قدمه الدكتور حين تعرض لامـرىء القيس في حياته وشعره ، وحديثه عن هذا الشاعر من أطول ماكتب عن الشعراء فهو يعطي غاية مايمكن أن يقوله الدكتور ، ونحن ننظر اليه من الناحيـــة التاريخية فنجده لايقدم دليلا واحدا مقبولا على انكار أخبار الرجل ثـم ننظر اليه من الناحية الفنية فنجد الكاتب الناقد يتناقض حـين يرفض الشعر لأنه قيل بلغة نجد وناظمه يمني ، ثم يقبل من الشعر نفسه ماقاله الشاعر اليمني دون أن يسأل نفسه كيف قبله ، والعلة القائمة في نفسه تمنع القبول ، ثم يتناقض حين يوزع بعض شعـر امـرىء القيس عـلى الفرزدق وبعضه الآخر على ابن أبي ربيعة وكأن الشاعرين يرميان عن قوس واحدة ، والدكتور مع ذلك ناقد أدبي جهير ، ولعل في اكتفائنا بما ذكـر عن امرىء القيس مايدل على ما قال عن غيره من أمثال عبيد بن الابرص والاعشى والنابغة وزهير ، فكل ماقيل يدور في فلك واحد يحدد حديثه عن امرىء القيس دائرته الفنية على نحو معلوم مفهوم ، ولنا به اكتفاء يمنع السأم والفضول في كثرة الترداد ومعاودة التكرار ، أما أمية بن أبي الصلت فقد حان موضع القول فيه وفي مايتصل به من حديث أهل الكتاب .

أمية بن أبي الصلت وأهل الكتاب

يتصل حديث أمية بن أبي الصلت بحديث القرآن الكريم عند قوم يحبون أن يثيروا الغبار لحاجة في نفس يعقوب. فقد دأب نفر من المستشرقين على اجلال أمية بن أبي الصلت في معتقده الديني ورسالته الشعرية، وأفرغوا وسعهم في تمجيده انسانا وتحبيذه شاعرا ذا خيال ومعتقد، وشاء صاحب الشعر الجاهلي أن يعيد بعض ما قالوه في اطناب كان يغني عنه الايجاز ليعقب عليه برأي يحتاج الى تفنيد وتصحيح، وأعجب مافي أمر أمية أن مسألته واضحة، وقد طال الحديث عنها حتى صارت في رأيي لاتحتمل النقاش، ومع وضوحها اللامع ومع إطالة الحديث عنها فقد دأب قوم على الخوض فيها على نحو يشعر بجدتها الطريفة، فأخذوا يعيدون الحديث وكأنهم أمام لغز يتطلب الحل. ومن آفة الاقلام أن تجبر اجبارا على الخوض في أمور تكاد أن تكون مسلمة، ولكن عند صاحب النية الخالصة، والرأي البعيد عن الهوى، أما أصحاب الهوى الجائر فيلجون ويختصمون.

وأمر أمية في حياته التاريخية مماثل متشابه. فله نظراء في زمنه، سلكوا نهجه واعتقدوا مذهبه، وتركوا عبادة الاصنام، وعرفوا الحنيفة السمحة حتى عرفوا بالحنفاء، والخلاصة الدقيقة لحياته أنه نشأ بالطائف ثم قدر له أن يرحل الى بلاد تعرف النصرانية في اليمن والشام، فزار الديارات وجالس الرهبان وقرأ شذورا من أخبار التوراة والانجيل، وعرف كثيرا من الآراء الدينية والصفات الالهية ومسائل العالم الغيبي من بعث وحساب وجنة ونار، كمافطن لأخبار الانبياء والمرسلين، وعرف مايدل على وشك ظهور نبي يصطفيه الله من العرب، فطمع أن يكونه، وجدّ في اعلان آرائه الدينية ولبس المسوح، ونابذ الاوثان وحرم الخمر

وذلك أحرى أن يهديه الى الاسلام حين أشرق رسول الله برسالته ، ولكنه فوجىء بتحطيم آماله ، فنابذ الدعوة الاسلامية منابذة حاقدة وانضم الى مشركي مكة من أعداء رسول الله ، وكان عليه وقد كفر بالاوثان أن يناوىء المشركين ، لو صدقت نيته ، ولكن حقده دفع به الى رثاء قتلى بدر من عبدة الاصنام ، والى توثيق صلته بمن يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ، وقد جاء أمره الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستمع الى شعره وروى أنه قال عنه آمن قلبه وكفر بلسانه ، وليس أمية بدعا في منحاه الديني والمامه بشذور من المسيحية واليهودية وميله الى الحنيفة المنتسبة الى ابراهيم عليه السلام فقد كان قس بن ساعدة الايادي وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل القرشي ممن شكوا في الاصنام واهتدوا الى التوحيد ، وبشروا بنبي يبعث عن قريب ، انما البدع كل البدع أن نجعله في ذلك فذا منقطع النظير .

هذا عن منحاه الديني ، أما أمية في شعره فقد كان يماثل الجاهليين في بعض الاغراض ، وينفرد بأغراض أخرى عرفت عنه ، وقد عده صاحب شعراء النصرانية من شعراء الطبقة الثانية (١) ثم بالغ فألحقه بالطبقة الاولى ، وشعره في الاغراض المشتهرة عن الجاهليين جيد لأنه يسلك سبيلا مطروقة احتذاها الفحول وقفى على أثرهم ليبلغ شأوهم فكان دون السابقين ، ومع المتوسطين ، وشعره في رثاء قتلى بدر ضعيف لايرتفع الى مديحه ووصفه ، اذ أن له في عبد الله بن جدعان مدائح جيدة ، تلتفت الى نواح انسانية تظهر في مثل قوله عنه :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك ان شيمتك الحياء
وعلمك بالحقوق وأنت فرع ... لك الحسب المهذب والثناء
وأرضك كل مكرمة بنتها ... بنو تميم وأنت لها السماء

---

(١) شعراء النصرانية قبل الاسلام جـ ١ ص ٢١٩ ط ٢

اذا أثنى عليك المـرء يومـا	كفـاه من تعرضه الثنـاء
تبارى الريح مكرمة ومجـدا	اذا ماالكـلب أحجره الشتـاء

وخير شعره في رأيي مانسب اليه من قوله في عقوق بعض أبنائه :

غذوتك مولودا وعلتك يافعا	تعل بما أحنو عليـك وأنهـل
اذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت	لشكواك الا ساهرا أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي	طرقت به دوني فعيناي تهمـل
تخاف الردى نفسى عليك وانها	لتعـلم أن الموت وقت مؤجـل
فلما بلغت السن والغاية التـي	اليها مدى ماكنت فيك أؤمـل
جعلت جزائي غلظة وفظاظـة	كأنك أنت المنعـم المتفضـل
وسميتني باسـم المفند رأيه	وفي رأيك التفنيد لو كنت تعقل
فليتك ان لم ترع حـق أبوتي	فعلت كما الجار المجاور يفعل

وهذا شعر انساني ذو معان صادقة ينحدر من نفس آذاها العقوق وآلمها الجحود فاذا تركناه الى شعره الديني فاننا نجد هلهلة وضعفا اذ كان أمية يسلك مسلكا شعريا هو ابن بجدته في عصره ، فنظم أشياء عن سفينة نوح وهدهد سليمان وخراب مدينة لوط ، وعفاف مريم بنت عمران ، وملائكة العرش ، وقد حملت عليه أشياء يظهر فيها الافتعال مثل ماقيل عن نذر ابراهيم عليه السلام ذبح ولده اسماعيل :

ولابراهيـم الموفى بالنـذ	ر احتسـابا وحامل الاجزال
بكـره لم يكـن ليصبر عنـه	أو يـراه فى معشـر أقتـال
أبنـى ، انـى نذرتـك للـه	شحيطا فاصبر فدى لـك خالى
ابنـي اننـي جزيتـك باللـه	تقيـا به عـلى كل حـال
فاقض ماقد نذرته لك واكفف	عـن دمى أن يمسـه سربالي

وهو نظم يلحق بنظم المتون ، ولا رونق فيه ولا اشعاع ، ولكنه كان

(١) هكذا (٢) كذا

مع ماقاله حقيقة فى هذه الاغراض الدينية موضع المبالغة والتحليل من نفر يحاولون أن يجعلوا أمية مصدرا من مصـــادر كتـــاب الله ، وكـأن القرآن في رأيهم حديث جاء به محمد صلى الله عليه وسلم دون أن ينزل به الروح الامين على قلبه ، وقد بسط الدكتور حديث أحد هؤلاء في كتابه حين قال عن الاستاذ كليمان هوار (١)

(وهنا نصل الى مسألة عنى بها الباحثون عـــن تاريـــخ القـــرآن من الفرنج ، والمستشرقون خاصة ، وهي تأثير المصادر العربية الخالصة في القرآن ، فقد كان هؤلاء الباحثون يرون أن القرآن تأثـــر باليهـــودية والنصرانية ومذاهب أخرى كانت شائعة في البلاد العربيةوماجاورها ولكنهم رأوا أن يضيفوا الى هذه المصادر مصدرا عربيا خالصا ،والتمسوا هذا المصدر من شعر العرب الجاهليين ، ولا سيما الذين كانوا يتحنفون منهم ، وزعم الاستاذ (كليمان هوار) في فصل نشرته المجلة الاسيـــوية ١٩٠٤ أنه قد ظفر من ذلك بشيء قيم ، واستكشف مصدرا جديـــدا من مصادر القرآن ، هذا الشيء القيم ، وهذا المصدر الجديد هو شعر أمية بن أبي الصلت ، وقد أطال الاستاذ هوار في هذاالبحث وقارن بين هذا الشعر الذي ينسب الى أمية بن أبي الصلت وبين آيات من القرآن وانتهى من هذه المقارنة الى نتيجتين ٠

الاولى : أن هذا الشعر الذي ينسب لأمية بن أبي الصلت صحيح لأن هناك فروقا بين ماجاء فيه ، وما جاء في القرآن من تفصيل بعض القصص ولو كان منحولا لكانت المطابقة تامة بينه وبين القرآن ، واذا كان هذا الشعر صحيحا ، فيجب في رأي الاستاذ (هوار) أن يكون النبي قداستعان به قليلا أو كثيرا في نظم القرآن ٠

---

(١) في الادب الجاهلي ص ١٤٢

الثانية : أن صحة هذا الشعر ، واستعانة النبي به في نظم القرآن قد حملتا المسلمين على محاربة شعر أمية بن أبي الصلت ومحوه ليستـأثر القرآن بالجدة وليصح أن النبي قد انفرد بتلقي الوحي من السماء)

هذا رأي الاستاذ كليمان هوار ، قدمه الدكتور طه حسين في كتابه ليعقب عليه برأي مناقض لايقل عنه فسادا وخطأ حتى جاز للاستاذ محمد الخضر حسين أن يقول عنهما معا (١)

(ومن رغبت نفسه في أن يريها باطلين يتباريان في الهجوم على حق ، فلينظر الى حديث هوار ، وحديث المؤلف عن شعر أمية بن أبي الصلت)

أما باطل هوار فقد اتضح فساده للمستشرقين أنفسهم حين عارضوه معارضة واضحة ، فذهبوا الى أن أمية لم يأت بجديد يصلح أن يكون مادة للقرآن على زعمه وزعمهم ، وان كانوا كعادتهم لايتجهون الى الحق الا لينجرفوا عنه الى باطل يعفى عليه ، فقد زعموا أن حقائق هذه الاخبار كان شائعة قبيل عصر النبوة عن اليهود والنصارى فعرفها رسول اللـه وأمية معا ، فالمصدر اذن لكتاب الله عندهم ليس السماء ، ولكنه الثقافة الشائعة عن أهل الكتاب ، وهو تمويه أخذ يترددفي كل ماكتبوه ، ومازالوا يلجون في عمـايته حتى كتبه كاتبهم فيمـا تسمى بدائرة المعـارف الاسلامية (١) التي ترجمت الى العربية ليقرأ المسلمون في مادة (أمية بن أبي الصلت قول كاتبها محتضنا هذا الوهم .

(أما القول بأن محمدا قد اقتبس شيئا من قصائد أمية ، فهو زعم بعيد الاحتمال لأن أمية كان على معرفة أوسع بالاساطير التي نحن بصددها كما كانت أساطيره تختلف في تفصيلاتها عما ورد في القرآن ، وان كان

---

(١) نقض الشعر الجاهلي ص ٢١٤

هذا غير مستحيل من الوجهة التاريخية فقد ورد في احدى الروايات (الاغاني ج ٣ ص ١٩٧) أن أمية كان أول من قرأ كتاب الله ، ويمكن أن نعلل مشابهة قصائد أمية لما جاء في القرآن بحقيقة لاتحتمل شكا وهي أنه في أيام البعثة وقبيلها بقليل من الزمان انتشرت نزعات فكرية شبيهة بآراء الحنيفية واستهوت الكثيرين من أهل الحضر ، وخصوصا في مكة والطائف ، وكانت تغذيها وتنشطها تفاسير اليهود للتوراة وأساطير المسيحيين مما كان معروفا متداولا في تلك البقاع ، وجنوب الجزيرة في جهات متفرقة منعزلة ويعلل لنا هذا مايعرض من اختلاف بين ماجاء في القرآن ، وما ورد في شعر أمية ، ومحمد (هكذا يقول) وأمية وغيرهما من الرجال المتدينين كزيد بن عمرو وورقة ومسيلمة (كذا) اقتبسوا من مصادر واحدة سواء كانت معروفة أم مروية)

ولكي نجهز على هذا الباطل السافر ، فلا ينهض مرة أخرى لدى من يصدق النظر الصحيح بريئا من عقابيل الهوى اللجوج ، ننقل مختارات مما قاله المنصفون تفنيدا لذلك ثم نعقبها بما يؤكدها مما يقتضيه واجب البحث دون لجاج ، فقد عقب أستاذنا الكبير الشيخ محمد عرفة رحمه الله على كلام دائرة المعارف بقوله القاطع (١)

(لدينا دليل عظيم الخطر على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتبس من أمية بن أبي الصلت ولا من غيره ماأتى به من القرآن الكريم ولم يكن شعر أمية ولا غيره مصدرا من مصادره ، ذلك الدليل هو أن النبي أتى بالقرآن وفيه من أخبار الاولين مالم يكونوا يعلمون ، وفيه من المواعظ والنذر مالا عهد لهم به ، وقد تحداهم وجعله دليلا على أنه من عند الله ، واجتهد المخالفون المعاصرون للتنزيل أن يجدوا للقرآن مصدرا فلم يفلحوا ، وقد جعلوا من مصادره رجلا عجميا كان بمكة فقال

(١) دائرة المعارف الاسلامية ـ المجلد الثاني ـ ص ٦٦١ لجنة النشر للجامعيين

الله مبينا قيلهم ، ومفندا ما قالوا (انما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين) فلو كانت مشابهة بين شعر أمية والقرآن لجعله المشركون مصدرا من مصادره ، أو على الاقل لقالوا ان الاخبار التي تذكرها وتقول (ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) قد ذكرها أمية بن أبي الصلت في شعره ، ولكنهم لم يجعلوها مصدرا من مصادره ، ولم يقولوا شيئا مما ذكرناه ، فهذا يدلنا على أنه لم تكن مشابهة بين شعر أمية والقرآن الكريم)

وهذا كلام جيد ، ولكنه يحتاج منا الى تمثيل واستشهاد يقوم مقام البينة الواضحة بعد الدعوى الصحيحة ، فقول الاستاذ محمد عرفة أن النبي أتى بالقرآن وفيه من أخبار الاولين مالم يكونوا يعلمون لايتضح جليا ويقمع المعاند الا حين يعلم أن التوراة والانجيل لم يتحدثا عن أمور كثيرة ذكرها القرآن الكريم من أنباء التاريخ ، فالمحاورة بين الله والملائكة عن آدم ، وسجود الملائكة وامتناع ابليس وتخلف ابن نوح عن ركوب السفينة ، ومناشدته اياه أن يركب ، وعتاب الله لنوح حين قال (انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألني ماليس لك به علم ، ومحاورة ابراهيم لأبيه آزر وذهابه مع اسماعيل ولده الى مكة وبناء البيت بواد غير ذي زرع ، وحديث مؤمن آل فرعون في قصة موسى ، وصنع داود للدروع السابغة ، وقصة داود وسليمان اذ يحكمان في الحرث وقد نفشت فيه غنم القوم وتسخير الجبال والطير لداود ، والجن والريح والطير لسليمان ، وقصة الهدهد وسبأ والصرح الممرد من القوارير ، والجسد الملقى على كرسى سليمان ومائدة عيسى ، كل ذلك لم يأت في التوراة والانجيل ، فمن أين علمه محمد صلى الله عليه وسلم ان كان مصدره ثقافة أهل الكتاب ، بل ان قصتي عاد وثمود لم تأتيا في التوراة والانجيل ، فمن أين علمها محمد صلى الله عليه وسلم ان كان مصدره ثقافة أهل الكتاب بل ان قصتي عاد وثمود لم تأتيا في التوراة والانجيل ، وقد قامت الادلة الاثرية بالاحقاف على وجودهما السحيق فمن أين عرفهما الرسول وتحدث عنهما

بما صدقته الآثار الماثلة بعد أربعة عشر قرنا من الزمان ، لقد رأيت أن أعقب كلام الاستاذ عرفة بذكر هذه الأمثلة الحية ليجيب المدّعون وكيف يستطيعون ؟

أما الاستاذ محمد الخضر حسين فقد نحا منحى آخر في استدلاله القوي على افك هذه الفرية الزاعمة نقل الاخبار عن أهل الكتاب فقال (١) من حديث جيد خصيب (لايصح أن يكون عليه الصلاة والسلام قد تعلم كتب اليهود والنصارى في خلوة وعلى حين غفلة من قومه ، فان تلقى بعض الكتب في خفاء قد يمكن للرجل الغريب في مدينة لايعرفه فيها الا بضعة أشخاص يلاقونه في الشهر أو في الاسبوع أو في اليوم مرة أو مرتين ، أما رجل ذو عشيرة ، وذو مزايا تلفت له الانظار ، وتجذب له القلوب كمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ينشأ في بلدة لها طرق محدودة ، وبيوت معدودة كمكة فليس من المقبول أن يتمكن من التردد على موطن يختلي فيه بيهودي أو نصراني دون أن يشعر به أحد ، من قومه أو عشيرته الاقربين .

وليس من المعقول أن يقال قد وقعت الى يده نسخة من التوراة وأخرى من الانجيل لأنهما لم يخرجا الى لسان العرب بعد ، ولا يقرؤهما الا من عرف دروس اللغة العبرية ، ولو درس النبي صلى الله عليه وسلم تلك اللغة وعرف كيف يقرأ حروفها الهجائية ، لما عرّج القرآن على وصفه بالامية ، ولما ظل النبي ـ صلوات الله عليه ـ يتلو آياتها والناس يشهدون ويؤمنون .

هذا شأنه قبل البعثة ، أما زعمه تعلمه لما في التوراة والانجيل بعد قيامه بالدعوة فبطلانه أشد بداهة ، اذ لايلائم حكمة القائم بتلك الدعوة

---

(١) نقض الشعر الجاهلي للاستاذ الخضر ص ٢١٦

المؤزرة بكل جد وحزم أن يجادل اليهود والنصارى ويشتد بينهم الخصام ثم يطلب لديهم علم التوراة والانجيل ، ولو طلب لديهم ذلـك لأقـام في سبيل دعوته عقبة كؤودا ، وقد أصبح بعد ظهوره بالدعوة مرموقا بكل لحظ ، مشارا اليه بكل بنان ، ومن الباطل على البداهة أن يأخذ علوم هذه الاديان عمن أسلم من أهلها ثم يجيء بها في القرآن على أنها وحي يوحى ، ولو جرى شيء من هذا لكان سببا في ارتداد الطائفة التي أخذ عنها ،والتي سمعته يحاورها ، ولو وقع ارتداد على هذا الوجه لوجدنا له في الرواية أثرا) هذا كلام يقطع كل غلط يقال بشأن استقاء القرآن من مصدر أهل الكتاب ، والعجيب أن هؤلاء الزاعمين يقعون في تناقض ظالم حين يقول قائلهم ـ وهو الاستاذ فريدرك شولهتيس الالماني ـ (١) أن الزعم بـأن القرآن من السماء هو من الاساطير التي تعد من الغرابة بمكان ! على حين يعترف أن الانجيل جاء من السماء دون أن يكون ذلك أسطورة تعد من الغرابة بمكان ، ويعجز بعد هذا التصدي الجاحد أن يثبـت في صحـف التاريخ مايدل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد أخذ عن النصارى واليهود ، وكم من جهود بذلت في تلفيق هذه الفـرية وتأكيـدها ، ثم عصفت بها الرياح ٠

قد يظن القارىء أننا أسرفنا بعض الشيء في حديث اليهودوالنصارى اسرافا تغني عنه الاشارة ، ولكن الواقع غير ذلك ، لأن الدكتور طه ينقل عن قوم يرون الاسلام لم يأت بشيء غير ما تردد في كتب أهل الكتـاب ، متخذين مما يحسنون تأليفه من حديث البيئة والمجتمع وشواهد التاريخ بوارق خاطفة يقهرونها على تفسيرات متكلفة ، وأنت تجد صدى ذلك في مثل قول الدكتور (وهنا نصل الى مسألة عنى بها الباحثون عن تاريـخ القرآن من الفرنج والمستشرقين خاصة ، وهي تأثير المصادر العربيـة الخالصة في القرآن فقد كان هـؤلاء الباحثـون يرون أن القرآن تأثـر

(١) الادب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي للاستاذ محمد هاشم عطيه ص ٣٥٢ ط ٣

باليهودية والنصرانية ومذاهب أخرى بين بين ، كانت شائعة في البـــلاد العربية وما جاورها) (١)

ثم يقول بعد أمد يسير (فمن الذي زعم أن ما جاء من الاخبار كان كله مجهولا قبل أن يجيء به القرآن ، ومن الذي يستطيـــع أن ينكـــر أن كثيرا من القصص القرآني كان معروفا بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى ، وبعضه عند العرب أنفسهم وكان من اليسير أن يعرفه النبي كما كان من اليسير أن يعرفه غير النبي من المتصلين بأهل الكتاب) (٢)

وهذا كلام يطوى في أثنائه شكوكا تريب ، والحق الصريح أن ننطق بها بلقاء ، فنقول ان التوراة والانجيل في نصيهما الاصليين نزلا من عند الله يتضمنان الاخبار الصادقة ، والحوادث الواقعة ، والقرآن الكريم من عند الله يتضمن من هذه الاخبار مااتحد مصدره من جهة واحدة عالية ، لأن كتاب الله مصدق لما بين يديه من الكتب ومهيمن عليه فاذا تحدث عن بعض ماتحدثت به التوراة والانجيل ، فتفسير ذلك واضح لالبس فيه ، اذ كيف يجيء رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم برسالة التوحيد كما جاء بها موسى وعيسى من عند الله ، ثم لاتكون هذه الرسالة واحدة متفقة وكيف تنزل التوراة ويجيء الانجيل ليؤيدا هذه الرسـالة بالشـــواهد التاريخية ثم لايجيء القرآن ليؤيدها بهذه الشواهد ، هذه مسـألة مـــن الوضوح بحيث لاتحتمل اللجاج ، وليتحديث هؤلاءالنفر من المستشرقين قد اقتصر على مازعموه من تماثل بعض الوقائع بل ان غرضهم المريض قد دفعهم الى القول فيما بعد بارتقاء الاسلـوب المـدني في القـرآن عن الاسلوب المكي تأثرا بمحيط اليهود من أهل الكتاب ، وهو افك صريـــح لم يتحمل النقض لتهافته المخاذل ، وقد ألف الاستاذ الشيخ محمد أحمد

---

(١) في الادب الجاهلى ص ١٤٢

(٢) في الادب الجاهلي ص ١٤٥

عرفة كتابا يدحضه تحت عنوان (نقض مطاعن في القرآن الكريم) صدر عن دار المنار سنة ١٩٣٥ بمقدمه حافلة كتبها السيد محمد رشيد رضا رحمه الله ، كما أذكر أن الجزء الاول من كتاب (مناهل العرفان في علوم القرآن للاستاذ محمد عبد العظيم الزرقاني قد بدد هذه الشبهة وماانضم اليها من الاراجيف دقة حصيفة ومنطق مبين (١) ، والذي يستمع الى هذا الهراء يظن الرسول بالمدينة كان تلميذا يتلقى الدروس من بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة مع أن التاريخ ينطق بانحدار هؤلاء ومجاوريهم من النصارى عقليا وثقافيا وخلقيا أيام النبوة ، فكيف يكونون أساتذة الرسول ومعلمي القرآن ؟ بل ان القرآن هاجمهم في عدة مواضع تصور انحدارهم الشائن مما يمنع هذه الاستاذية المزعومة ، ونصوص القرآن صريحة واضحة في ذلك ، ونتسع في غير متسع لو أخذنا نحصى مانستشهد به ، ولكننا نكتفي ببعض نصوص من سورة المائدة وحدها يقول الله عز وجل فيها (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين آية (١٣) ويقول (ياأيها الرسول ليحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا سماعون للكذب ، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم عن مواضعه ، يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه ، وان لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، سماعون للكذب أكالون للسحت فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين ، ٤١ ، ٤٢ من المائدة) .

---

(١) مناهل العرفان للاستاذ محمد عبد العظيم الزرقاني (الجزء الاول) من ص ١٨٥ الى ص ١٣٢ ط دار احياء التراث الادبي بيروت

ويقول (قل ياأهل الكتاب لاتغلو في دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل ، لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون ، ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ماقدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ، الآيات ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ من المائدة .

فهذه بعض نصوص كريمة من سورة واحدة تصور انحدار هؤلاء ولجاجهم في الباطل وتؤكد نظرة المسلمين لهؤلاء الاعداء ؟ فكيف يكونون موضع التربية ورجال الثقافة والتوجيه لخير المسلمين .

ننتقل بعد هذا الوضوح الذي لايدع ذرة من ريب الى أمية بن أبي الصلت ، وما ذكر مؤلف الشعر الجاهلي من رأيه الخاص به حين قال (ونحن نعتقد أن هذا الشعر الذي يضاف الى أمية بن أبي الصلت ، والى غيره من المتحنفين الذين عاصروا النبي أو جاءوا قبله انما نحل نحلا ، نحله المسلمون ليثبتوا ـ كما قدمنا ـ أن للاسلام قدمه وسابقة في البلاد العربية ومن هنا لانستطيع أن نقبل مايضاف الى هؤلاء الشعراء والمتحنفين الا مع شيء من الاحتياط والشك غير قليل) (١)

وقد صدر المؤلف كلامه بقوله انه (يعتقد) والاعتقاد لايكون الا عن تمحيص بالغ وتحقيق دقيق ، فهو أعلى مراتب اليقين ، ولو قال انه يرى أو يظن لكان في منزلة الذي يتحدث عن أمور تحتمل الخطأ والصواب في رأيه ، فاذا بحثنا عن أدلة الاعتقاد هذه وجدنا أن المسلمين قد نحلوا شعر أمية والحنفاء ، ليثبتوا للاسلام قدما في الجزيرة العربية ، والسؤال

---

(١) في الادب الجاهلي ص ١٤٥

الذي لابد من مواجهته الآن هو أن نستفسر عن الزمن الذي تم فيه هذا النحل ؟ أكان في عصر النبوة ؟ وأمية موجود ، وأقارب الحنفاء من أمثال زيد بن عمرو ، وورقة وقس بن ساعدة موجودون ، لو فوجيء أمية وسويد بن عامر أو قس أو أقارب من رحلوا من أمثال زيد بن عمرو وورقة بأشعار قيلت على ألسنتهم ولم يقولوها ، فهل يسكت أمية وهو المعاند اللجوج عن أن يقول أن هذا الكلام مفترى عليّ وقد قاله أتباع محمد ليجعلوا منه سندا يؤيدهم في دعواه الرسالة واذا مات أمية وقد ترك اخوة شعراء ونسلا شاعرا فهل سيسكت هؤلاء عما ينسب اليه وهم يعلمون أنه لم يقله ؟ واذا لم يكن المسلمون قد أحدثوا النحل في عصر النبوة فهل أحدثوه في العصر الاموي ؟ ولماذا ؟ وما الفائدة التي تعود على الاسلام في الاحتماء بشعر معاند جاحد ، وقد انتشر الاسلام في الجزيرة العربية وليس المسلمون في حاجة الى تثبيته بادعاء أنه قديم ينتمي الى ابراهيم ، بل قد انتشر الاسلام في آسيا وأفريقيا وأوربا ، وأصبح أبناء الجزيرة دعاته في كل مكان وأصبح الهندي والفارسي والاسباني والرومي والمغربي من أبنائه المخلصين ، وذادته المناضلين ؟ لماذا ينحل المسلمون أمية وأشباهه من الحنفاء هذا الشعر حينئذ كما يعتقد الدكتور وكما ساق ذلك في جزم أكيد ؟!

ولنا أن نستطرد فنقول أن لأمية بن أبي الصلت أساطير ، لم تكن من أخبار الملائكة والانبياء التي ذكرها القرآن فمن الذي نحلها حينئذ ؟ ولأي غرض ينظمها المسلمون ويعزونها اليه ، لو صدق اعتقاد الدكتور ؟ لقد تكلم أمية عن أسطورة الهدهد وحيرته الشديدة في حمل أمه حتى اهتدى الى أن يضعها على رأسه مرة وعلى قفاه مرة أخرى ، وتحدث عن الحمامة التي زعم أنها قادت سفينة نوح وأوصلتها الى اليابسة بعد الضلال في الماء ؟ وما تعرض كتاب الله لحكاية الحمامة في شيء ، فلماذا ينظمها المسلمون ثم ينحلونها أمية ؟ أما أسطورة الغراب والديك فقد كرر أمية الحديث عنها ، وملخصها أن الديك والغراب كانا نديمين في سالف الدهر

لايفترقان ، وأنهما توجها ذات يوم الى خمار فمكثا عنده يشربان دون أن يكون معهما ثمن الخمر ، ثم ان الغراب رهن الديك عند الخمار وادعى أنه سيذهب ليحضر ثمن الشراب، ولكنه خالف ماادعى وترك الديك حائرا لايدري مايصنع حتى استعبده الخمار وجعله حارسا على الحانوت ، اذا لم يقل أمية ماكرره عن هذه الاسطورة ، فما فائدة المسلمين في تكرار هذه الحادثة وعزوها الى أمية ؟ وأي سابقة تتم للاسلام حين يعلم الناس أن أمية قد قال في أسطورة الديك والغراب :

هنالك ظن الديك أن دال دولة	وطال عليه الليل أن لامفاديا
فلما أضاء الصبح طرّب صرخة	ألا ياغراب هل سمعت ندائيا
على وده لو كان ثم مجيبه	وكان له ندمان صدق مواتيا
وأمسى الغراب يضرب الارض كلها	عتيقا وأضحى الديك في القدعانيا
فذلك مما أسهب الخمر لبه	ونادم ندمانا من الطير غاديا

والذين يزعمون أن اليهود والنصارى والتوراة والانجيل قد أثروا في نبي الاسلام ، ويحاولون جهدهم أن يثبتوا ذلك دون منطق تاريخي يدل عليه من حياة الرسول ، لماذا يستكثرون على أمية أن ينظم بعض قصص التوراة والانجيل ؟ وهو باعترافهم قد لبس المسوح وجالس الرهبان ونام في الديارات وقرأ التوراة والانجيل ؟ واذا تم له ذلك بشهادة التاريخ ورواية الاعيان فان أكثر ما قاله في ذلك حينئذ يكون طبيعيا غير منتحل ، وقد عرف مصدره ، وشوهدت أسبابه ،وقامت بواعثه ودواعيه ، كان أمية رحالة ذهب الى اليمن والشام والحيرة ، واستمع الى أساطير اليهود وقصص فارس وخرافات الهند ، وتثقف بما استطاع أن يصل اليه من ثقافة عصره ، فقال الشعر في أشياء تمت الى ثقافته وكاد ينفرد بها دون الجاهليين والمخضرمين ؟ فماذا الذي يستبعده الباحث في ذلك حتى يحكم بنحل ماعزى اليه من القصائد ويعتقد ذلك اعتقادا لاشك فيه .

أذكر أني قرأت للاستاذ محمد هاشم عطية كلاما جيدافي هذا المجال قال فيه (١) عن أمية بن أبي الصلت ٠

(وقد أدرك الحالة الاجتماعية التي نشأت بالجزيرة بعد فتوح الفرس لبلاد اليمن وما أدى الى ذلك الاتصال من امتزاج العقلياتالآرية بالروح السامي القديم وكانت هذه الصلة قد بدأت تتمثل في الادب بين أكثر شعراء القرن الميلادي السادس واتجه الخيال العربي الى حكاية هذه الثقافات الطارئة مع الجالية الفارسية من القصص والاساطير والحكايات الموضوعة على ألسنة البهائم والطير ، بذلك النمط الطريف المقتبس في الجملة من الادب الهندي القديم ، وان كانت مدنيات العصور لم تخل في الغالب من انتزاع مثل هذا النوع ، من القصص للحيوان ، والمحاولة لشرح الهاماته ، والاستطراف بوضع الحكاية عنه ، لقدم مداخلته للحياة البشرية واتفاق جميع الاجيال على استخدامه ، وتطرقهم الى الانتفاع به كل طريق ، لأن كثيرا من أوضاع الحياة ، وصور التفكير العقلي ، تتشابه كالمتاع المشترك بين أجناس البشر ، ولذا كان من فساد الحكم مايتكلم به بعض العابدين للآداب الاجنبية اذ يسرفون في تجريد العرب من كل فضيلة ، ويزعمون أن كل مايخالف الاطلال والابل والامطار والرياح في الشعر العربي فهو يوناني الاصل دخيل على العقلية العربية (وهو) كلام لايقوم على دليل وسترى في شعر أمية قصصا وحديثا عن الحيوان ليس بقليل منسوبا الى أراض وشعوب سامية كقصة طوق الحمامة والهدهد ونحو ذلك مما سنشرحه في كلامه وان كان ذلك لايمنع ماهو متبع ، بين الامم من تناقل الآداب والمدنيات)

بقي أن نقول أن حديثنا عن شعر أمية لاينفي أن هناك مقطوعات

---

(١) الادب العربي وتاريخه للاستاذ هاشم عطية ، ص ٢٤٣ ط ٣ الحلبى

نسبت اليه دون أن يقولها ، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من شعراء الجاهلية والاسلام والناقد الادبي الدقيق يفرق بين الاسلوب الاصيل والتعبير المنحول اذا قارن شيئا بشيء ، وهذا كله شيء ، وادعاء أن كلامه قد نحله المسلمون شيء سواه ، ولعل القاريء قد أدرك أننا لم نستشهد بغير كلام الاستاذ الخضر حسين ممن خصوا كتاب الدكتور بالنقد المستقل ، لأن الاستاذين الغمراوي ووجدي قد تركا حديث أمية دون نقض ، أما الاستاذ لطفي جمعه فقد أجاد وأمتع ، ولكن المجال قد استدعى أن نتجاوزه لنستشهد بآخرين .

حـول الرقة والجـزالة

في كل شعر يقال ماهو جزل قوي ، وما هو عذب رقيق ، لأن طبيعة الموضوع توحي باختيار ألفاظه ، واتجاه معانيه ، فمنحى الفخر غير منحى العتاب ، ومنحى الهجاء غير منحى الرثاء ، واذا رأينا شاعرا كالفرزدق عرف بالاسر والقوة ، فان أسلوبه ليختلف باختلاف أغراضه فاذا قال في الفخر مثلا :

ولنا قراسية تظل خواضعا ... منه مخافته القروم البزل
متخمط قطم له عادية ... فيها الفراقد والسماك الاعزل

فانه يقول في رثاء أولاده :

بني أصابهم قدر المنايا ... فهل منهن من أحد مجيري
ولو كانوا بني جبل فماتوا ... لأمسى وهو مختشع الصخور

هذه حقيقة لايختلف فيها ناقد ، نذكرها قبل أن ننقل ماقال الدكتور في الادب الجاهلي ص ٢٥٨

(هناك مذهب خداع يذهبه القدماء والمحدثون في تحقيق الشعر الجاهلي وخلاصته النظر الى الالفاظ التي يأتلف منها الشعر ، فان كانت متينة رصينة كثيرة الغريب ، قيل ان الشعر جاهلي ، وان كانت سهلة لينة مألوفة ، قيل ان الشعر مصنوع ، وهذا المذهب يقوم بالطبع على أن الشعراء الجاهليين كانوا أهل بادية يعيشون في صحراء ليس بينها وبين الحضارة اتصال ، فظلت لغتهم بدوية متأثرة باقليم الصحراء محتفظة بشيء من الغرابة والحوشية يميزها من لغة الحضر التي تأثرت

بالترف ولين العيش ، وقبلت تأثير اللغات الاجنبية والاجناس الاجنبية أيضا ، فاذا عرض لأصحاب هذا المذهب شعر يضاف الى الجاهليين وفيه سهولة واسفاف ولين التمسوا لذلك العلل ، كما يصنعون في شعر عدي ابن زيد ، فكثير من هذا الشعر سهل لين مسف ، وهو مع ذلك يضاف الى هذا الشاعر المضري الجاهلي ، يضيفه اليه علماء رواة ثقات معروفون بالصدق والامانة ، واذن فلا بد من تعليل هذا اللين والاسفاف ، وليس في هذا التعليل شيء من المشقة ولا العسر ، فقد كان عدي من أهل الحيرة أي كان متصلا بحضارة الفرس ، وكان ينفق في هذه البلاد الخصبة حياة راضية ، لاتخلو من نعومة ولين ، فلا جرم رق شعره ولان ، وخالف في هذه الرقة واللين ماهو مألوف في شعر الجاهليين عامة والمضريين خاصة)

تقرأ هذا الكلام للدكتور فتعلم أنه ينكر هذا المذهب الذي وصفه بأنه مذهب خداع ، وأنه ينعى على من يجعلون من السهولة واللين موضع مؤاخذة وطعن فيما يرق من الشعر الجاهلي حين يقولون (ان الشعر مصنوع) وتلك عبارة الدكتور ولكن العجب العاجب من تناقض الدكتور مع نفسه ، أنه هو نفسه الذي يحكم على كل مارق وسهل بالصنعة ، وأن كلامه هذا هدم لما سبق أنه قاله بشأن شعراء لاحظ عندهم الرقة والسهولة فاذا أراد القارىء بعض الامثلة المحددة فاليه :

١ ـ تعرض الى قصيدة المهلهل المعروفة (١) فسرد عدة أبيات منها مثل :

أليلتنا بذي حسم أنيري	اذا أنت انقضيت فلا تحوري
فان يك بالذنائب طال ليلى	فقد أبكي مع الليل القصير
فلو نبش المقابر عن كليب	فيعلم بالذنائب أي زير

---

(١) في الادب الجاهلي ص ٢١٧

بيوم الشعثمين لقر عينا ... وكيف لقاء من تحت القبور
واني قد تركت بواردات ... بجيرا في دم مثل العبير
هتكت به بيوت بني عباد ... وبعض الغشم أشفى للصدور
على أن ليس يوفي من كليب ... اذا برزت مخبأة الحذور

ثم تعرض الى قصيدة جليلة بنت مرة الذائعة ومنها (١)

يا ابنة الاقوام ان شئت فلا ... تعجلي باللوم حتى تسألي
فاذا أنت تبينت الذي ... يوجب اللوم فلومي واعذلي
ان تكن أخت امرىء ليمت على ... شفق منها عليه فافعلي
جل عندي فعل جساس فيا ... حسرتي عما انجلت أو تنجلي
فعل جساس على وجدي به ... قاصم ظهري ومدن أجلي
لو بعين قضت عيني سوى ... أختها فانفقأت لم أحفل
تحمل العين قذى العين كما ... تحمل الأم أذى ماتفتلي
ياقتيلا قوض الدهر به ... سقف بيتي جميعا من عل
هدم البيت الذي استحدثته ... وانثنى في هدم بيتي الاول
ورماني قتله من كثب ... رمية المصمى به المستأصل
يانسائي دونكن اليوم قد ... خصني الدهر برزء معضل
خصني قتل كليب بلظى ... من ورائي ، ولظى مستقبل
ليس من يبكي ليومين كمن ... انما يبكي ليوم ينجلي

ثم قال عن قصيدة المهلهل (٢)

(أليس يقع من نفسك موقع الدهش أن يستقيم وزن هذا الشعر ، وتطرد قافيته وأن يلائم قواعد النحو وأساليب النظم التي لايشذ في

(١) في الادب الجاهلي ص ٢١٨
(٢) في الادب الجاهلي ص ٢١٧

شيء ، ولايظهر عليه شيء من أغراض القدم ، أو مما يدل على أن صاحبه هو أول من قصد القصيد ، وطول الشعر ، أليس يقع في نفسك هذا كله موقع الدهش ، حين تلاحظ معه سهولة اللفظ ولينه واسفاف الشاعر فيه الى حيث لاتشك أنه رجل من الذين لايقدرون الا على مبتذل اللفظ وسوقيه)

ثم اتبع ذلك بقوله عن أبيات جليلة (١) (ولكننا لانريد أن نترك مهلهلا هذا دون أن نضيف اليه امرأة أخيه جليلة التي رثت كليبا ــ فيما يقول الرواة ــ يشعر لاندري أيستطيع شاعر أو شاعرة في هذا العصر الحديث أن يأتي بأشد منه سهولة ولينا وابتذالا ، مع أننا نقرأ للخنساء وليلى الاخيلية شعرا فيه من قوة المتن ، وشدة الاسر ، مايعطينا صورة صادقة للمرأة البدوية العربية) هذا نص ماقاله الدكتور ، فهو قد تعجب أن يستقيم الشعر للمهلهل على هذا النحو وأن يلائم القواعد النحوية وأساليب النظم ، ثم دهش دهشا كبيرا لسهولة اللفظ ولينه ، وزاد عليهما الاسفاف ، ولا أدري أين هو الاسفاف في معان متصلة متماسكة ، وما الذي يقصد به لأن مايعرفه الناس عن الاسفاف غير موجود في الابيات فانت ترى أنه جعل السهولة واللين مايغن من قبول شعر جاهلي مع أنه عاب من يفعلون ذلك .

فاا نظر الى كلامه عن جليلة وجدناه يرفض أن تقول مثل هذا الشعر لما به من السهولة واللين وزاد عليهما الابتذال ولا أدري ــ مرة ثانية ــ أين هو الابتذال في معان صادقة حية ، وما الذي يقصد به لأن مايعرفه الناس عن الابتذال غير موجود في أبيات عاطفية صادقة ترتفع الى مستوى الابداع ، وأسأل القارىء المنصف ، ألا يرى أن الدكتور متناقض حين أخذ على بعض النقاد عدهم السهولة واللين بعيدين عن

---

(١) في الادب الجاهلي ص ٢١٧

الطابع الجاهلي ، على حين أنه هو الذي يفعل ذلك ويرفض شعر المهلهل وجليلة لما يرى به من السهولة واللين ، ألم يراجع المؤلف ماكتبه مرة واحدة ليشهد ماوقع فيه من اضطراب ·

يقول الاستاذ محمد أحمد الغمراوي تعليأا على منحى الدكتور (١)

(ومن العجيب أن يرفض شعر مثل مهلهل أو عمرو بن كلثوم لسبب مثل هذا ، كأن قد كان حراما على العرب في العصر الذي عاشا فيه أن يكون منهم من يقول الشعر الواضح المكشوف (٢) أو كأن صاحب الكتاب يعرف عن لغة العرب في القرن السادس الميلادي ما لم يكن يعرفه أمثال الاصمعي وأبي عبيدة وخلف الاحمر والمفضل الضبي وابن سلام ، فان هؤلاء وغيرهم من كبار علماء العربية قد صححوا ذلك الشعر الذي يرفضه الآن صاحب الكتاب ولم يربهم منه مارابه من السهولة واللين ورقة اللفظ)

ثم قال صاحب النقد التحليلي تعليقا على كلام الدكتور عن جليلة (٣)

(وقد ألحق صاحب الكتاب بمهلهل جليلة بنت مرة وزوج أخيه ورفض مقطوعتها الطريفة المعجبة :

يابنة الاقوام ان شئت فلا تعجلي باللوم حتى تسألي

لأنه لايدري (أيستطيع شاعر أو شاعرة في هذا العصر الحديث أن يأتي بأشد منها سهولة ولينا وابتذالا) ولأنه يقرأ للخنساء ولليلى الأخيلية شعرا فيه من قوة المتن وشدة الاسر مايعطيه صورة للمرأة

---

(١) النقد التحليلي ص ٢٩٧

(٢) يريد الغمراوي بالمكشوف هنا الظاهر لا الذي يتوهم اليوم من هذه اللفظة وهو الادب الخليع

(٣) النقد التحليلي ص ٢٩٩

العربية البدوية ، ولكنا نظن أنه اساء الحكم هنا ، كما أساءه هناك ، فشعر جليلة هذا من الشعر النادر الحي الذي يبتهج به قارىء الادب ، كما يبتهج جامع العاديات بتحفة تصل الى يده ، ثم هو ليس بأسهل ولا ألين من بعض شعر الخنساء كداليتها المشهورة :

أعيني جـودا ولاتجمـــدا	ألا تبكيان لصخـر النـــدى
ألا تبكيان الجواد الجميـل	ألا تبكيان الفتى السيـــدا
طويل النجاد رفيع العمـــا	د ســـاد عشـيرته أمـــردا
اذا القـــوم مدوا أياديهـم	الى المجـــد مد اليـــه يدا
فنال الـــذي فوق أيديهـــم	من المجـد ثم مضى مصعـدا

واذا كان بين المقطوعتين فرق فهو راجع الى اختلاف المقام ،واختلاف شخصية الشاعرتين ، هذه تخاطب نفسها ، وترثي أخاها ، وتلك أميرة مصابة تخاطب مثلها ،قتل أخوها زوجها ، وأتهمتها أخت زوجها بالشماتة فهي تدفع عن نفسها ولكن في أدب وتلطف ووقار)

وكلام الاستاذ الغمراوي جيد ، وقد أصاب المحزّ حين استشهد بشعر الخنساء الرقيق ، ليعلم الدكتور أن استشهادة بها لم يكن في غير موضعه ، وللخنساء جزالة وقوة اذا مدحت أخاها في الرثاء ، ولهارقة مستعذبة اذا خلصت لعواطفها الذاتية ، وأحاسيسها النفسية فكانت في ذلك سارية مع طبيعتها التي تتفق مع طبيعة جليلة في اللين والحنو والرقة ان لها نظائر رقيقة ممتازة لاندري كيف أغفلها الدكتور طه حسين حين ذكر اسمها مقارنا بجليلة ليجعل الاولى ذات جزالة وقوة ولتكون الثانية مغايرة لها خارجة عن طبيعة الاسلوب الجاهلي في الصوغ كما يراه ، ومن هذه النظائر الرقيقة قولها :

يذكرني طلوع الشمس صخرا — وأذكـره لكـل غروب شمس
ولولا كثـرة البـاكين حولي — على اخوانهـم لقتـلت نفسى
وما يبكون مثـل أخي ولكن — أعـزي النفس عنه بالتـأسى
فوالهفي عليه ولهف نفسـى — أيصبح في الضريح وفيه يمسى

وقولها ملتاعة حزينة :

ألا ياصخـر ان أبكيت عيني — لقـد أضحكتني زمنا طويـلا
اذا قبح البكـاء على قتيـل — وجدت بكاءك الحسن الجميـلا

أما ليلى الاخيلية فليست دائما بذات الصلابة الجزلة التي يظنها الدكتور ، فلها الشعر الجزل الصلب في مناسبته ، ولها الشعر الرقيق السلس في مناسبته أيضا ، ويحضرني الآن قولها في مديح زعيم آل مطرف :

ومخـرق عنه القميص تخاله — بين البيوت من الحياء سقيمـا
حتى اذا رفع اللواء رأيتـه — تحت اللواءعلىالخميس زعيما

وهو قول في غاية الرقة والسلاسة فوق معناه الخلقي الرائع ، وتواضع صاحبه المثالي الذي يصح أن يكون موضع الحذوة والاقتداء ، وكان لها في الجزالة مجال لأن المديح يتطلبها ولكنها رقت كطبيعتها ، فماذا يقول الدكتور في ذلك ؟

وقد رفض الدكتور نسبة قصيدة :

ألا هبي بصحنك فاصبحينـا — ولا تبقي خمـور الاندرينـا

لعمرو بن كلثوم لما فيها من اللين والوضوح ، ثم عرض الى معلقة

الحارث بن حلزة وهي قوية صلبة ذات جزالة واغراب فاستشهد بأبيات كثيرة منها كقول (١) الحارث عن عمرو بن هند :

ملك أضـــرع البرية لايـــو	جـــد فيهـا لما لديه كفـــاء
ماأصابوا من تغلبي فمطـــلو	ل عليـه اذا أصيب العفـــاء
كتكاليف قومنـا اذ غزا المنـذ	ر هل نحن لابـن هند رعـــاء

والعجيب أنه رفض القصيدة الهمـزية أيضا وقـال في ذلـك (٢) موازنا بين القصيدتين (فأنت ترى أن بين القصيدتين فرقا عظيمـا في جودة اللفظ ، وقوة المتن وشدة الاسر ، على أن هـذا لايغيـر رأينـا في القصيدتين ، فنحن نرجح أنهما منحولتان ، وكل مافي الامر أن الذيـن كانوا ينحلون كانوا كالشعراء أنفسهم ، يختلفون قوة وضعفا وشـدة ولينا ، فالذي نحل قصيدة الحارث بن حلزة ، كـان من هـؤلاء الرواة الاقوياء الذين يحسنون تخير اللفظ وتنسيقه ونظم القصيدة في متانة وأيد ، ولسنا نتردد في أن نعيـد ماقلنـاه من أن هاتـين القصيـدتين وما يشبههما مما يتصل بالخصومة بين بكر وتغلب ، انما هو من آثـار التنافس بين القبيلتين في الاسلام لا في الجاهلية)

ورفض الشعر لرقته حينا ولجزالته حينا آخر ، كان مدعاة تخبط متناقض ، وقد ووجه بنقد شديد من كل من تطرق اليه من المفندين ، ومن أحسن ماقيل في ذلك ماكتبه الاستاذ الخضر حين قال (٣)

(ان الذي يعمد الى قصيدتين مما يعزى الى الجاهلية ، ويتحدث في تزويرهما لايدخل في بحث سهولة النظم ومتانته الا اذا قـرر للشعـر

(١) في الادب الجاهلي ص ٢٢٤
(٢) في الادب الجاهلي ص ٢٢٥
(٣) نقض الشعر الجاهلي ص ٣٩٩

الجاهلي خطة من هاتين الخطتين ، ثم يسقط القصيدتـين من ناحيـة مخالفتهما للخطة المعهودة في شعر الجاهليين وقد نفى المؤلف قصيدة عن عمرو بن قميئة وأخرى عن مهلهل ، وثالثة عن جليلة واستعان على هذا النفي بما في هذه القصائد من سهولة ولين ، وكنا حسبنا ساعتئـذ أن ميزة الشعر الجاهلي في نظره أن يخرج في رصانة ومتانة ، وعندما انتقل الى الحديث عن قصيدة الحارث بن حلزة وأخذ ينعتها بالرصانة والمتانة سبق الى ظننا أنه سيكف عنها بأسه ويدعها لصاحبها كما سمحت نفسه بأن ترك قصيدتي (طحابك قلب) و (هل ماعلمت) لعلقمة ، وما لبث أن انقلب على تلك الرصانة والمتانة وساقهما مساق السهولة واللـين ، وقال : الرصين المتين كالسهل اللين كلاهما منحول ليس من الجاهليـين في شيء .

واذا كانت المتانة كاللين لاتحمي الشعر من التزوير ، فما الداعي الى المقايسة بين القصيدتين من هذه الناحية ، لايبقى لهذه المقالة وجه ، سوى أن المؤلف يريد أن يريك شاهدا على أنه ينقد الشعر ، ويستطيع أن يميز لينه من خشنه)

بعـــد العاصفة

لنا أن نتساءل بعد أن ظهر كتاب الدكتور طه حسـين ، وتتابعت الردود عليه ، وبعد أن مضى نصف قرن على هذه المعركة الحامية ، بين أنصار الدكتور ومعارضيه ، لنا أن نتساءل عن مكانة الشعر الجـاهلي بعد هذه الحومة المشتعلة ، هل تطرق اليه الشك فغـدا مهـدد المكانة ، نائي المنزلة عن نفوس الدارسين ، وهل أثمرت شكوك مرجليوث وطه حسين ومن نحا منحاهما شيئا في هذا المجال ! أو أن الشعر الجاهلي هــو الشعر الجاهلي ، لم تنل منه الشكوك شيئا ذا بال ، لقد عرفنا فيما تقدم من هذه الصفحات ، أن الشكوك الجوهرية التي أثارها خصوم الشعـر الجاهلي لم تكن حدثا جديدا فاجأ الناس ، ولكنها صدى لما ردده الباحثون في القديم والحديث ، واذا كانت شكوك القدماء لم تنل شيئا ذا بال من مكانة الشعر الجاهلي لدى الدارسين ، فان شكوك المحدثين في لبابهــا الصميم لم تكن لتفعل شيئا جديدا ، فالشك قائم قبل شكوكهم وبعده في بعض ماقيل ، وهو بالقياس الى الصحيح الثابت قليل قليل ، ففيم كان هذا العناء ·

لقد تعددت الدراسات الادبية عن الشعر الجاهلي في مدى نصف قرن ، انتشرت فيه الكليات الادبية بأمصار الدول العربية وأخذت كل كلية للغة العربية أو الآداب في هذه الامصار تخـرج من الباحثـين من أشبعوا الحديث عن الادب الجاهلي ، حتى ليعجز الدارس الصـابر أن يحيط بكل ماقيل ، فهل كان أثر خصوم الشعر الجاهلي واضحا فيمـا تكاثر من هذه البحوث أو أن أصحاب الدراسات المتعددة قد وازنوا بين الآراء ، وقارنوا بين الاقوال حتى ثبت لديهم أن المعركة المشتعـلة قد شغلت أكثر من حيزها الطبيعي لأسباب لاترجع الى الادب في شيء وأقول

لاترجع الى الادب في شيء لأن البحث العلمي في كل زمان ومكان لايحدث ضجة صاخبة لأنه بحث في الأدب أو في اللغة أو في قواعد العلوم العربية بل ان الضجة تحدث ، والمعركة تشتعل ، حين يتعرض الباحث فيدراسته الادبية لشئون خارجة عن موضوعه تتعلق بأمور الدين وشئون التشريع هنا تقوم الضجة وحق لها أن تقوم ، وقد تعرض المستشرقون في حديثهم عن الشعر الجاهلي للقرآن في بعض نصوصه ،وللانبياء في بعض أمورهم بغيا دون حق ، أو ضلالا بغير علم وجاء الدكتور طه فنقل أقوالهم ، وزاد فادعاها لنفسه ، وكأنه لم يقرأ كلام مرجليوث وسابقيه ، وهنا قامت المعركة حفاظا على القرآن ، وردا لكيد الكائدين ، ولولا هذه المزالق المغرضة ، لكان حديث الدكتور عن الشعر الجاهلي مجال البحث لدى القلة من المتخصصين ، ولكانت المعركة صامتة هادئة ككل معركة علمية تثور بين الدارسين ، وأذكر على سبيل المثال معركة النحو التي أثارها الاستاذ ابراهيم مصطفى رحمه الله ، والتي تجددت بنشر كتاب (ابن مضاء الاندلسى) لقد كانت معركة تهدف الى تحطيم القواعد الثابتة في هذا العلم الاصيل ، وقد التحم في هيجائها علماء ذوو لسن وبيان ، وتنوعت البحوث حولها ، بل عقدت المؤتمرات لدراستها ، ولكنها لم تحدث ضجة أية ضجة في المحيط العام غير المتخصص ، لأن المعركة كانت علمية خالصة لوجه العلم ، وقد ألفت فيها الكتب ، وتنوعت الردود ، ولم ترتفع بها الضجة كما ارتفعت في مسألة الشعر الجاهلي ، والسبب واضح وهو أن الذين أوقدوا اضرام هذه المعركة قد انتقلوا ظالمين من الادب الى الدين ، ولن يسكت عن دين الله غيور يؤمن به ، فلا بد من الصيال العنيف .

نقول ان الدراسات الادبيةتتابعت في حقلالشعر الجاهلي ، تتابعت من أناس فضلاء تتلمذوا على الدكتور طه حسنين في كلية الآداب ، وانتقلوا الى تدريس الادب في شتى كليات البلاد العربية حتى امتلأت المكتبات بالبحوث الدائرة حول الشعر الجاهلي ، فهناك دراسات جامعية

خاصة بأعلام هذا الشعر ، اذ تعددت الرسائل الجامعية والكتب الادبية التي تستقل بدراسة شاعر معين كامريء القيس أو الاعشى أو زهير أو النابغة أو عنترة أو لبيد أو أوس أو طرفة وغيرهم من فحول الجاهليين ، وفي بعضها بحوث هادفة عن دعوى الانتحال وتفنيدها بما لايترك مجالا للشك في بطلانها الصريح ، كما انتشرت دراسات جامعية وغير جامعية تتناول فنون الشعر الجاهلي فهذه رسالة عن الشعراء الصعاليك في الجاهلية وهذه رسالة عن الوصف في الشعر الجاهلي وهذا كتاب عن الفروسية لدى الجاهليين وهذا كتاب عن الطبيعة في الادب الجاهلي وآخر عن الحماسة وآخر عن الغزل ، ويمتد القول اذا ذهبت أنقل من فهارس المكتبات كل ماألف وطبع ، وفي هذا الطوفان الهائل من البحث المثمر المتشعب عن الشعر الجاهلي مايثبت دعائمه ، ويطيح بكل شبهة تحوم حول حقيقته وليس بعد هذا السيل الزاخر من مجال لدعاوى المتشككين اذ أنهم في الحقيقة لم يأتوا بجديد ٠

فاذا تركنا المحيط الدراسي في العالم العربي للشعر الجاهلي الى دوائر الاستشراق في أوروبا فاننا نجد مواقف متباينة ازاء هذا الشعر وذلك مالايستغرب بحال ، فقد اتجه الى دراسة الادب العربي من هؤلاء من يريدون بحثه عن حيدة تامة ،ومن تسوقهم نوازع تبشيرية تدفعهم الى التشكك في الشعر بناء على أسباب تدعو الى التشكك في مصدر الاسلام الاول وهو القرآن الكريم ، أما الفريق الاول فقد ذهبوا الى تأييد هذا الشعر ، ونادوا بصحته عن يقين ، ونستطيع أن نستدل برينان ونيكلسون ليمثلا هذا الاتجاه ، وأن ننقل عنهم ماينزع هذا المنزع الخالص من شوائب التبشير ، فقد عقد (أرنست رينان) بحثا هاما عن الشعر الجاهلي في كتابه (تاريخ اللغات السامية) قال فيه (١)

---

(١) ترجمة الاستاذ محمد لطفي جمعة في كتاب (الشهاب الراصد) ص ٣٠٢

(قد آن لنا أن نتناول صحة الشعر السابق للقرآن ، وينبغي لنـــا أن نقول ان هذه المسألة قد قطع القول فيها بصحة هذا الشعر ، وثبوت صدقه بلا قيد ولا حصر ، فانالمعلقات وديوان الحماسة ، وكتاب الاغاني قد قبلها العلماء ، وسلموا بأنها سابقة في معناها ومبناها لمبعث النبي ، أي أن العلماء أقروا بصحتها شكلا وموضوعا ، وأقروا انحدارها الينا من العهد المتقدم على الاسلام ، أما فيما يتعلق بالمعاني فلا يجوز الشك فيها ، لأن هذه الاشعار تمثل لنا الحياة الجاهلية ، كما تمثلها مرآةكاملة وهذ القصائد تتعلق بشخصيات ، وحوادث حقيقية ، وكذلكفيما يتعلق بالشكل يجب علينا أن نعتقد أنها قدحفظت ووصلت الينا بأمانة كافية ، وأنه اذا وجدت بعض الخلافات فلا تؤثر الا في أبسط التفاصيل التـــي لاشأن لها)

ثم يقول في الكتاب السابق أيضا (ومن المؤكد أن اللغة قد ربطت وضبطت وتحددت وقيدت ، وطبقت عليها قوانين التدقيق قبـــل مبعث محمد بأزمان طويلة ثـــم ان الاوزان الدقيقة التـــي نظمت بمقتضاهـــا الاشعار الجاهلية ، تعد بمثابة دليل استنتاجي على صحة هذه الاشعـــار وصدقها ، ومهما تكن الافتراضات التي تعلل اتخاذ العرب في شعرهم طريقة الاوزان بالمقاطع ، فمن المحال أن تكون تلك الطريقة العروضية قد اتخذت بعد مبعث النبي ، بل اتخذها العرب واستعملوها قبل الاسلام فلدينا اذن ضمان قوي يرد أي شبهة في صحـــة هذه الاشعـــار ، ويثبت أن الشعر الجاهلي لم يطرأ عليه سوى تحريف لفظي طفيف ، وفي الحق نعتقد أن العرب لم يغيروا في الشعر الجـــاهلي شيئـــا عن قصـــد ، وأن الاختلافات التي وجدت هي من النوع الذي لايمكن اتقاؤه في حالـــة تداول النصوص بين أفواه الحافظين لها دون محاولة التقييد بالكتابة)

أما الاستاذ نيكلسون في كتابه عن تاريخ الادب العربي فقد جزم بقوله (١)

(كان الشعر الجاهلي اذن محفوظا بالتواتر الشفوي ، ولنا أن نتساءل عن امكان ذلك ، وعما يضمن في نظرنا كون القصائد التي عاشت على أفواه الحفاظ طوال هذه الاجيال قد احتفظت بصورتها الاصلية ولو على وجه التقريب ، والجواب على تلك المسائل أنه لاشك في أن أشعارا كثيرة كالتي كانت تمجد قبيلة الشعر أو تهجو أعداءها ، كانت تنشد باستمرار على ألسنة أفراد القبيلة ، وبهذه الوسيلة حفظت القصار والمقطوعات ، وقطع من القصائد الطويلة ، ولم تكن المطولات مثل المعلقات لتصل الينا لو كانت حياتها معلقة بشيوعها على ألسنة من يهمهم انشادها ، ولكن الذي أنقذ هذه القصائد الطويلة تكوين هيئة مثل هيئة المنشدين في بلاد اليونان القديمة ، فقد كان لكل شاعر مشهور راوية يلازمه ويحفظ أشعاره ويرويها عنه غير مجردة بل محفوفة بالاخبار والظروف التي أحاطت بنظمها ، وقد يندر اتحاد صفة الراوية والشاعرية فيكون الراوية نفسه شاعرا ، كما كان زهير راوية زوج أمه أوس بن حجر ، والحطيئة راوية زهير ، وقد كان منشأ الرواية أولا الحب والصداقة بين الشاعر والراوية ، ثم انقلبت حرفة ذات عمل مادي يعود بالربح على صاحبه فبعد أن كان الرواة متصلين بشعراء معينين أصبحوا فرقة من المحترفين يحملون في ذاكرتهم مقادير مهولة من الشعر القديم والعلوم المختلفة)

هذان مثالان للفريق الذي درس الشعر الجاهلي عن حيدة وانصاف أما الفريق الثاني من ذوي الغرض ففيما كتبناه في الفصل الخامس من هذا الكتاب تحت عنوان (دعوى الاستشراق) مايكفي للدلالة عليه ،

---

(١) ترجمة الاستاذ لطفي جمعة عن الشهاب الراصد ص (٣٠٤)

وقد حافظ أصحاب الغرض من هؤلاء على اتجاههم المنحرف في ميادين دراساتهم الادبية دون أن يستجيبوا الى ماوجه الى آرائهم من نقص هادم دون أن يحاولوا الرد عليهم بما يدل على موضوعيتهم النزيهة ، وقد اتضحت سياستهم المريبة فيما سيطروا عليه من بحوث جامعية ، اذ أن طلبة الدراسات العليا الشرقية لديهم لم يستطيعوا الافلات من توجيهاتهم الخاصة حين وقفوا حائلا منيعا دون تخطي نظرية الانتحال ، ولم يسمحوا للرأي الآخر أن ينتشر في محيطهم عن عمد متشدد ، وأشير الى مثال يدل على هذاالعمد المتشدد ،فأذكر أن الدكتورمحمد المهدي البصير الباحث العراقي المعروف كان قد اتجه الى أن تكون اطروحته العلمية في جامعة السوربون الفرنسية عن الشعر الجاهلي ليثبت تبرئته من دعوى الانتحال ، وقد شرح خطوط فكرته للاستاذ مانسيون (١) ليضمن موافقته الاولى على الرسالة ، ولكن الاستاذ مانسيون قد رفض أي اتجاه يدعو الى مناقشة دعوى الانتحال ، مؤكدا أن الجامعة ترى آراء الدكتور طه حسين تلك التي أعلن الاستاذ المهدي البصير أنه سينقضها بالدليل وأمام اصرار ذوي التوجيه من أساتذة السوربون تراجع الدكتور البصير عن موضوع الشعر الجاهلي ، واتجه الى موضوع سواه ، ولكن حرصه على فكرته الاولى في هدم الانتحال دفعه فيما بعد الى تأليف كتاب تحت عنوان (بعث الشعر الجاهلي) جاء ردا على أكثر ماحاكه الشاكون من ادعاءات ، على أن مما يقلل من خطر هؤلاء الاساتذة الآن ، أن تعدد الجامعات العلمية في البلاد العربية قد صرف كثيرا من الطلاب عن التلمذة عليهم في أوربا ، اذ وجد من الاساتذة العرب من يفوقون أولئك في مضمار الادب العربي ، بل ان الطبقة الاولى من رجال الاستشراق – على وهنها الواضح – لم تخلف في الميدان من يبلغ مبلغها في الدراسات العربية ، اذ كان نفر كبير من هؤلاء الاوائل مندفعين بتشجيع وزرائهم ليكونوا أداة استعمارية ذات تأثير يتلمس نشاطه في دروب الثقافة

---

(١) مجلة الاديب اللبنانية (ديسمبر سنة ١٩٧٤) ص ٢٣ ، من مقال جيد للاستاذ عبد الرازق الهلالي

والتعليم وحين انقشع ظل الاستعمار عن البلاد العربية لم يكن هناك داع الى امداد هؤلاء بالمغريات الدافعة الى الاستشراق ، وحينئذ نضب المعين نوبا آذن بالجفاف ٠

على أن الطبقة الاولى ذات القوة النسبية لم تكن ضحالتها السطحية في مجال الدراسات العربية بخافية على الاصلاء من مفكري العرب ، اذ تجرد نفر من ذوي القدرة العالمة على كشف أخطائهم العلمية في الادب والتاريخ وبحوث الفقه والتفسير والحديث مما هجموا على الخوض فيه دون دربة كافية ، أو نزاهة محايدة ، وكان تعرض الكثير منهم الى تحليل الشعر العربي مدعاة سقوط ملحوظ ، وقد كتب العقاد ومحمد حسين هيكل والمازني وعبد العزيز جاويش وغيرهم ماينبيء عن عوارهم الواضح حين يكتبون في العلوم الادبية والدراسات الدينية ، وضربوا من غرائب الشواهد في هذا المجال مايجب أن يقرأه الذين يتتبعون كل غربي بلا هدى أو كتاب منير ، وأذكر أن الامير شكيب أرسلان قد أفاض في هذا الاتجاه مرات كثيرة ، ولعل أمسها بموضوع هذا الكتاب ما قاله في المقدمة البارعة التي تصدرت كتاب (النقد التحليلي) للاستاذ الغمراوي ، وقد جاء فيها قوله (١) (ان من أحمق الحمق أن يظن أن مرجليوث لكونه افرنجيا صار يميز الشعر المصنوع على لسان الجاهلية من الشعر الجاهلي الاصلى ، وأنه صار يظهر له فيهما مايخفى على مثل سيبويه والخليل والفراء والاخفش والمبرد وأبي علي الفارسى وابن جنى والزمخشري وأقرانهم ممن لايحصيهم عدد ، وهم جهابذة العربية وصيارف اللغة الذين يعرفون في لحظة صحيحها من بهرجها ، وأصيلها من هجينها ، واذا تليت عليهم القصيدة ، عرفوها من نسجها ولأول بيت فيها ،وذلك لشدة مرانهم ٠٠ فكيف يقدر مستشرق أوربي نسبته الى هؤلاء نسبة عربي تعلم الانجليزي الى شكسبير أن يدعي كونه فهم من

---

(١) النقد التحليلي ، مقدمة الامير شكيب صفحات هـ ، و ، ز

لغة العرب مالم يفهموه ، وانتبه الى ماغفلوا عنه ، وأنه عرف الدخيل من الاصيل ، وحقق أن الاصيل من شعر الجاهلية نزر لايكاد يذكر الى أن قال رحمه الله :

(اننا عرفنا من هؤلاء المستشرقين بالذات ، وحادثناهم ونفضنا ماعندهم ومنهم من يعد في الطبقة الاولى من هذا الجنس ، ولا ننكر ماعندهم من علوم واسعة وآراء صائبة ، ونظرات دقيقة ، ولمحات عامة وطرق في البحث جليلة ، وأن منهم مؤلفين عظاما ، ومنقبين دهاة ، ولكننا لانتردد في القول أننا لم نجد منهم واحدا ـ اذا رجعت المسألة للعربية ـ نقدر أن نعده عالما ،وأن نقرنه الىعلماء هذه الامةالحاضرين فضلا عن الغابرين ، وأتذكر أني لقيت أشهرهم ، وسمعت منهم الخطأ في العربي ، ولكننا نظرا لكونهم أجانب عن اللسان ، نرى قليلهم كثيرا ، ونغضى على ضعفهم بما يعجبنا من عنايتهم بلساننا وآدابنا)

لقد سكنت العاصفة دون هبوب ، ولكن ريحا أخرى هبت على الادب الجاهلي فيأواخر الثلاثينيات على يدالاستاذ أحمد أمين ،ولم تكن خاصة بدعوى الانتحال ، بل كانت تنحو منحى آخر ، اذ رأى الاستاذ أحمد أمين أن الادب الجاهلي قد جنى على الادب العربي في مد عصوره ، اذ كانت القصيدة الجاهلية بألفاظهاوأغراضهاوصورها وأخيلتها ومعانيها مثالا يحتذى لما تلاها من قصائد العصور الاموية والعباسية والاندلسية والمملوكية والحديثة ، فعاقت بوادر التجديد وجاء من شيوخ النقد من جعل الطراز الجاهلي مثلا أعلى للصياغة ، فاستنفد الشعراء معانيهم وقوافيهم وظلوا يضطربون في نطاق ضيق ، وما تم من التجديد على أيدي أمثال أبي نواس وأبي تمام وأبي العلاء كان يتجه الى الجزئيات اليسيرة دون أن يخرج عن الاطار الكلي حتى جاز لمثل شوقي أن يقول في مطالع قصائده وهو أمير الشعراء في العصر الحديث ٠

أنادي الرسم لو ملك الجوابا　　　وأفديه بدمعي لو أجابا

ويقول :

أثن عنان القلب واسلم به　　　من ربرب الرمل ومن سربه

مما يدل على التقليد المفرط اذ لارسم ولا طلل ، ولا ربرب ولا رمل ، وقد تتبع الاستاذ عصور الادب ليأخذ من آثارها مايؤيد قضيته ، وكلام الاستاذ في جوهره يقبل الاخذ والرد ، ولكنه بالغ حين نسب الجناية الادبية الى الادب الجاهلي ، وليس الذنب في ذلك ذنبه ، ولكنه يرجع الى نقاد العصور الذين رأوا في القصيدة الجاهلية أروع الامثلة ، والى الشعراء الذين هاموا بالتقليد ، فاذا جددوا فكثيرا مايكون التجديد في الشكل دون المضمون ، وما المذهب البديعي الذي ازدهر على يد أبي تمام سوى طلاء يمس الخارج دون أن يلج في صميم الداخل ، ولا أريد أن أقول أن أبا تمام لم يجدد في معانيه ، فقد كان من أعمق الشعراء نفاذا وأبعدهم غوصا ، وكان مفكرا أكبر منه شاعرا ، ولو وجد من التلاميذ من يحذون حذوه لعرقلوا مذهب الوضوح السطحي الذي ازدهر على يد البحتري ، وهذا كلام يحتاج الى اطالة وتدليل لانجد موضعهما الآن ، ولكننا نقول ان الاستاذ أحمد أمين في نقده الاحتذاء الجاهلي كان صاحب معركة أدبية تدور مرة ثانية حول الادب الجاهلي اذ نشر مقالاته المتتابعة بمجلة الثقافة سنة ١٩٣٩ ثم جمعها في الجزء الثاني من فيض الخاطر ،وقد نقدها الدكتورعبد الوهاب عزام بمقالات هادئة ظهرت في مجلة الثقافة مجاورة لمقالات الاستاذ أحمد أمين ، أما الدكتور زكي مبارك فقد أعلنها حربا ضروسا في أكثر من عشرين مقالة ظهرت سنة ١٩٣٩ بمجلة الرسالة ، ولا زال المعاصرون من الادباء يذكرون هذه المعركة النقدية الدسمة وهي الآن في حاجة الى مثل القاضى علي بن عبد العزيز الجرجاني ليحكم فيها بعيدا عن التحيز ، فيقوم

بوساطة كوساطة بين المتنبي وناقديه ، وأود أن تسمح الايام لي بوقت يتسع لهذه الوساطة ، فقد عاصرتها وتابعتها في تطلع ونشاط ، أما دعوى الانتحال فقد أخذت تتردد في كتب التاريخ الادبي للعصر الجاهلي يخصها كل مؤلف بعدة صفحات ويتركها بعد أن يجهز عليها بالدليل ، أقول : أخذت تتردد لمدى ربع قرن ، ثم جعلت كتب التاريخ الادبي تكتفي بالاشارة الموجزة لها حينا ، وتغفلها اغفالا تاما حينا آخر ، اذ رسخ الشعر الجاهلي رسوخا لايزعزعه اعصار وكأن ماحمل من المعاول لتحطيمه قد كان مساعدا على بنائه وتقويته اذ نهضت الدراسات العميقة لقصائده ، واتسعت الابحاث التحليلية في تشريحه ، وافتن الدارسون في تناول المنعرجات الخافية في شعابه ، واذا وصف بالسطحية والقعقعة عند قوم ، فذلك شيء ، ودعوى الانتحال شيء آخر ، وحسبنا أن تعود الآن له نسبته قوية منيعة لاتنال منها الشكوك ٠

لقد أشرنا الى مؤلفات معاصرة كثيرة تعالج مسائل الشعر الجاهلي وقضاياه دون تخصيص وقد آن لنا أن نخص ببعض التحليل دراسة جيدة كانت رأسا بازرا في موضوعها الحافل تلك هي الرسالة القيمةالتي قدمها الدكتور ناصر الدين الاسد لنيل الدكتوراه من جامعة القاهرة فجاءت أقوى رد على دعوى النحل ، اذ أن تأليف هذه الرسالة الممتازة كان صدى لقراءة المؤلف كتاب الشعر الجاهلي وتغلغل قضاياه في نفسه ، فعكف على معالجة هذه القضايا ، لاليقف منها موقف العداء باديء ذي بدء بل ليدرس الموضوع بعيدا عن كل تأثير ، وكان الطريق الذي اخطته وعرا شاقا حيث ألزم نفسه أن يتعرض الى أغمض المسائل ، وأبعدها ايغالا في المعاناة ، وأشدها اعراقا في الابهام ليكشف ستورا كثيرة كانت تحجب ملامح هامة عن العيون ، وقد اهتدى الى كثير مما أراد ، ولابد أن نطوف برسالته الجيدة طوافا طائرا اذ جاءت بأدلة ممتازة تعفى على كل ماقيل من لجاج ، وقد وقعت في أكثر من سبعمائة صفحة تتلمس الجهد في كل سطر منها ، جهد الباحث الدؤوب ، بل جهد

الظاميء الذي أتعبه الصدى وصبر على حفر الارض الصلبة حتى اهتدى الى الماء في قرار سحيق وقد بدأ البحث بالحديث عن موطن العرب فأظهر كيف كان متفاوتا في طبيعة أرضه وفي طبيعة مناخه وفي طبيعة سكانه ليرى في اختلاف البيئة من حضرية وبدوية ومترددة بين البدو والحضارة مايجعل من الخطأ أن نعمم الحكم الادبي على انتاج الحواضر والبوادي والاوساط فنأتي بحكم واحد يسري على شعراء غسان والحيرة ومكة والطائف ونجد وتميم وأسد وقد تعددت بيئاتهم ، وتنوعت أساليب معيشتهم تنوعا لابد أن يحدث اختلافا هاما في منحى الشعر الجاهلي فاذا فرغ من هذه القضية اتجه الى ايضاح مسألة التدوين والكتابة في العصر الجاهلي ، فاهتدى الى خطأ ما تتردد من انتشار الامية على وجه مطلق عام ، ورجح مقدما مع مايملك من أدلة هامة ـ ثلاثة أمور لها خطرها ، أولها قدم معرفة العرب في الجاهلية بالخط العربي معرفة لاتقل عن ثلاثة قرون قبل الاسلام ، وثانيها معرفة النقط والاعجام في الكتابة منذ الجاهلية نفسها ، وثالثها قيام المدارس ووجود المعلمين لتعليم الخط بين عرب الجاهلية ، وانتشار الكتابة على وجه أتاح لهم أن يسجلوا بها كثيرا من شئون الحكم والعيش والنظام ، وأكاد أقف عند كلمة (المدارس) هذه ، اذ أن المراد بها فيما أرى غير المراد منها الآن فليست هناك دور خاصة تجمع الاساتذة والطلاب ولكن نفرا من المعلمين كانوا يقومون في قصور بني غسان وبني المنذر وملوك كندة والعلية من رؤساء المدن بتعليم الموهوبين من أبناء الرؤساء والشيوخ ، وقد ينزح بعض البادين الى الحاضرة ويرجع ملما بشئون الخط ، وفي ذلك كله مايضمن تسجيل آثار كثيرة من الشعر الجاهلي وفي سبيل الاستدلال على وجود الكتابة الجاهلية قدم المؤلف أدلة عقلية وأدلة صريحة نصية ، والادلة العقلية ذات استنباط جيد ، وتحليل كاشف ولكننا نتجاوزها لاحتمال اللجاج في بعضها ، دون البعض الآخر ، وننتقل الى الادلة النصية فنرى أنها حفلت بأكثر من عشرين قولا هاما يؤكد تدوين الكثير

من الشعر الجاهلي ، ومحاولة سرد هذه الاقوال في هذا الفصل ، اسراف لامعنى له ، فليرجع اليها الدارس اذا شاء ، وقد اقتضاه هذا المنحى أن يتحدث عن نشأة التدوين في العصر الجاهلي فمهد بالحديث عن شيوع صحف الكتابة ووفرتها ، وجمع من ألفاظ اللغة الجاهلية مايدل على أدوات الكتابة من صحف ومهارق وأقلام ومداد ثم عرض من الروايات والنصوص عن تدوين الحديث والفقه ومغازي الرسول وسيرته الكريمة مايدل على أن بعضها كان يدون بسهولة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفي عهد الصحابة مما يدل على عراقة سابقة ، وأصالة تمتد الى ماقبل العهد النبوي الكريم ، وهذا ينتهي بنا الى أن مادون من آثار متفرقة في العصر الجاهلي قد وجد طريقة التدوين المنظم في العصر الاسلامي ، وقد جمع المؤلف من الاخبار والروايات مايقطع بتدوين الشعر الجاهلي في القرن الاول من الهجرة ليسقط حجة من ذهب الى تحديد زمن التدوين في عصر بني العباس ، وتساءل المؤلف عن السبب الذي جعل علماء القرن الثاني يغفلون مصادرهم الكتابية التي دونت في القرن الاول فرأى أن القوم آنذاك ـ لأمر ما ـ كانوا يضعفون من يأخذ عن صحيفة أو ينقل عن كتاب حتى أصبحت كلمة (الصحفي) لمزا ينبز به ، فتحاشى هؤلاء المدونون ذكر مارجعوا اليه من الصحف ، وأكبر رواياتهم الشفهية عن الاساتذة والاعراب كيلا يتوهم واهم أن هؤلاء قد اكتفوا بالصحف عن المشافهة والتلقين ، وبعد هذا الجهد الجاد انتقل الدارس في قوة الى الرواية الشفهية ـ وقد كانت مدعاة تخرص كثير ، وادعاء عريض لاحد لمنتهاه ـ فتحدث عن اتصال رواية الشعر الجاهلي منذ زمنه الى عصر التدوين العلمي في القرن الثاني ، وناقش القدماء في كثير مما قالوه ، وصوب كلام ابن سلام وخطأ ، وقد أكد أن القوم في القرن الاول لم يكونوا يكتفون برواية الشعر الجاهلي وانشاده في المجالس والمحافل ، انما كانوا كذلك يعلمونه الصبيان ويروونه الاطفال فذاع وانتشر ، وكان المؤلف موفقا حين تحدث عن طبقات الرواة فاهتدى الى خواف دقت على الكثيرين ، وما زال الطعن في الرواية وسيلة هذا

النفر من المعارضين ، فاذا نهضت الرواية على قدميها في قوة متماسكة فقد تهاوت أدلة هؤلاء ، وفي هذا المجال تحدث الدكتور ناصر الدين عن الاسناد في الرواية الادبية ، وقابل بينه وبين الاسناد في الحديث ثم عرض أمثلة من الاخبار المسندة التي يرتفع اسنادها الى الشعراء الجاهليين أنفسهم ، وقدم نماذج أخرى يسند فيها العلماء الرواة من الطبقة الاولى الى من سبقهم ، وفيهم من أدرك الجاهلية ، وهكذا تسلسل الاسناد على وجه راجح يبين الدارس ملامحه البارزات .

ثم اتجه الى صميم البحث فتحدث عن دعوى الانتحال ممهدا لها بحديث عن نشأة الشعر الاغريقي ، وموازنا بينه وبين نشأة الشعر الجاهلي ، لأن الذين أثاروا فتنة الانتحال قد عدوا امرأ القيس أسطوريا كهوميروس ، فكان لابد في نظر الكاتب أن يخص المشكلة الهوميرية ببحث طويل يتعرض للشك في الآداب القديمة بعامة ، ومعددا وجوه الشبه بين الشعر الجاهلي القديم والشعر الاغريقي ، متسائلا ومجيبا عمن نظم الالياذة ؟ وماذا كانت وسيلة حفظ الشعر الهوميري ، وعن المدارس اللغوية القديمة التي درست شعر هومر ونقدته ودونته ، وبعد أن أفاض في شرح وجوه الشبه التي ظهرت في نشأة الادبين أفاض افاضة شارحة في طريقة تدوين الشعر الاغريقي مبينا الخلاف حول نظم الالياذة والاوديسة وهل كان شخصا واحدا أو عدة شعراء جمعت أشعارهم وتسبت الى شخص واحد ، متجها الى المتن ليأخذ منه مايدل على وحدة التأليف وثنائيته ، وقد وجد من يرى هذه الوحدة ومن يعارضها ، والاقوال في ذلك لاينتهي ، ومع مابذله الدكتور ناصر الاسد في ذلك من جهد طيب نرى أنه استطرد استطرادات واسعة حين جعل المشكلة الهوميرية مقصودة لذاتها في البحث ، وماهي الا مسألة فرعية يتلمس بها الشاكون بعض السبل الى تأييد الشك في الادب الجاهلي مقارنا بنظائره من آداب العالم المختلفة ، وقد كان في بضع صفحات مايغني عن هذا الارهاق المتصل حين تثقل القارىء بتضارب الآراء ، وتعدد الاسماء

وتنوع الاحتمالات ، ومع كل رأي دليله ، ولكل اسم مؤلفه وأمثلة من اتجاهه ، ولكل احتمال مايؤيده وينقضه ، أرى أن البحث هنا قد اتسع في غير متسع ، وكان حسبنا من القلادة ماأحاط بالعنق .

وبعد حديث هومير ، جاء حديث الانتحال في الشعر الجاهلي ، وهو حديث مستوعب شارح لم يكد يترك شاردة تعن ، وقد انتفع الباحث انتفاعا ما بآثار من خاضوا هذه المعركة ، وكان مهذب اللهجة رقيق النقاش فلم يستبد به العنف الغاضب كما استبد بسواه ، ونحن نحب أن نبارك هذا الاتجاه ونثني عليه ، لأن المشاهد فيما نقرأ من المعارك الادبية أن الغضب يعصف ببعض الاقلام لينتهي بها الى نوع من السباب لاداعي له ، وقد يكون الغاضب قوي الحجة متمكن الدليل ، ولكن لجوءه الى السب يوحي لقارئه بامتعاض يصرفه عن متابعته ويؤرث في نفسه مشاعر عدائية كان الاحرى أن تتبدل بمشاعر ودية تفسح مجال التأثير والاقناع ، والمحنة في هذا المغمز طويلة ممتدة نقرأها عندالقدماء ونجدها عند المعاصرين ، وكان الظن بتقدم الزمن أن يحدث أسلوبا يرتفع عن الصخب المفرقع وأن يوجد نمطا من النقاد والقارئين يشيحون عن كل مالايمت الى اللباب الخالص بسبب من الاسباب ولكن الناس هم الناس .

ومن يطلع على ماكتبناه في هذه الفصول بصدد آراء ابن سلام والرافعي ومرجليوث وطه حسين لابد أن يجد ارتياحا تاما الى مراجعة ماقاله الدكتور ناصر الاسد في هذا المجال ، حيث اهتدى الى بوادر لامعة تضيء الطريق ، ومن أبرز ماأعجبنا في كتابه بحثه المفصل عن توثيق الرواة وتصنيفهم وعن مدرستي الكوفة والبصرة ثم عن موقفه من حماد بالذات حيث رفع عن وجهه غشاوات كانت تشوه قسماته بغيا دون حق وكذلك موقفه من خلف الاحمر ، أما أبو عمرو بن العلاء والاصمعي والمفضل فالثقة بهم أكثر ، وقد نزلوا من الكتاب أحسن منزل وأرى أن دواوين الشعر الجاهلي والمختارات القديمة لهذا الشعر من أمثال

المفضليات والاصمعيات وجمهرة أشعار العرب وغيرها قد بحثت في هذه الدراسة بحثا مفيدا موجزا يغني عن كل اسهاب ليهتدي الكـــاتب الى نتائج بحثه في توثيق هذه المصادر ، والارتفاع بها فوق اللجاج ٠

وقد ختم المؤلف كتابه الجيد بقوله الصادق (١)

وبذلك نكون قد وضعنا أصول مقياس واضح المعالم لدراسة الشعر الجاهلي ، ومعرفة صحيحه ، ولك بأن نأخذ من شعر الشاعر القدر الذي اتفقت عليه المدرستان البصرية والكوفية معا ، فنطمئـن الى أن هـذا القدر المشترك هو أقرب مايكون الى الصحة ثم ندرسه دراسة فنية داخلية بحيث نستشف روح الشاعر ، وطابعه وخصائصه اللغوية والفنية ، حتى اذا أقمنا هذا المقياس الداخلي ، احتكمنا اليه في صحة الشعر الباقي الذي انفرد بروايته أحد الرواة الاثبات ، ثم الذي انفرد بروايته راو آخر ، ثم ماروواه غيرهما ، فما استقام على هذا المقياس الداخلي ، رجحنا صحته ، وضممناه الى القدر المشترك الاول ، وما لم يستقم نفينـــاه وطرحناه)

وقد اعتمدنا على الخاتمة النهائية في تلخيص مواد الكتاب ، بعد أن درسناه دراسة بصيرة اذ وجدنا المؤلف قد أحسن التلخيص في الخاتمـة على نحو هو أولى الناس بانتحائه والحديث عن مضمـونه فقد عالـــج مشكلات ماكتب ، وعرف مواضع الارتفاع والتوسط والانخفاض فيما عالج ، وكان ظافرا في الاعم الكثير ٠

هذا ما كان من أمر العاصفة التي هبت على الشعر الجاهلي حينا من الدهر ثم استحالت بعد التمحيص العلمي الى رخاء من النسيـم ينعش ويلطف دون أن يقصف ويهدم ويرمي بالدمـار ذات اليمـين وذات الشمال ٠

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي ص ٦٣٤

تراجع واضـح

مؤلف الشعر الجاهلي رجل صلب قوي ، وليس من السهل على مثله أن يتراجع في وضوح عن رأي ادعاه لنفسه وأحدث ضجة حوله ، وكتب بسببه عشرات المقالات والكتب ، وأصبح كل مؤرخ للعصر الجاهلي منذ ظهور كتابه لايخلو مؤلفه من صفحات كثيرة تناقش رأي الدكتور طـه حسين ، لذلك كان التراجع الصريح من مثله غير منتظر ، ولكن الرجل كتب فيما بعد عن الشعر الجاهلي فصولا متعددة ،وقراءتها تلقي انطباعا آخر غير الانطباع الاول الذي أحدثه كتابه عن هذا الشعر ، ولابد من وقفه مستأنية تشرح ذلـك معبرة عن مغزاه الحقيقـي في أعمـاق الدكتـور ٠

بدأ الدكتور طه حسين في أوائل يناير سنة ١٩٣٥ ينشر فصـولا طويلة في الجرائد اليومية عن نفر من شعراء الجاهليين أي بعد ثمـان سنوات من صدور كتابه الاول ، وبعد أن ظهرت ردود الناقدين عليـه بل بعد أن سكتت الضجة ، وانصرف الدكتور الى شئون أخرى من الآداب والسياسة والتاريخ ليست بذات صلة واضحة أو خافية بالشعر الجاهلى ولكنه عاد بعد هذا الامر الى كتابة هذه الفصول الطويلة ثم افتتح بها الجزء الاول من كتابه (حديث الاربعاء) وتوالت طبعات الكتاب حاملة آراء جديدة للدكتور في هذا الشعر ولكنه كان من الذكاء واليقظة بحيث لم يجعل كلامه في حديث الاربعاء مصادما كل المصادمة على وجه صريـح كلامه في كتابه الاول ، فادعى أنه يحدث في الصحف جمهرة القراء ولكنه في المجال الجامعي يناقش الباحثين من الدارسين ، وهذا كلام لايخلو من نقد ، لأن الدكتور طه حسين ألقى ببحوثه السالفة عن الشعر الجاهلى على طلاب السنة الاولى من كلية الآداب ، وهم حديثو عهد بالمدرسة الثانوية

فليسوا باحثين بالمعنى الذي يفهم من هذه الكلمة ولكنهم شداة مبتدئون فاذا أراد الدكتور أن يقول أن كل مؤلف جامعي يلتزم الدقة والعمق دون نظر الى عقلية من يلقى عليهم من الطلاب ، فقد بان للقراء في الصفحات المقدمة مبلغ ما بكتابه الشهير من الدقة والنظر ، ونحن من بعد ذلك كله نرى في كتاب (حديث الاربعاء) اختلافا كثيرا عن (كتاب الشعر الجاهلي) ويمكن أن نحدد هذه الخلاف الواضح حين نقول ان كتاب الشعر الجاهلي قد أنكر الشعر الجاهلي كله تارة وأنكر أكثره تارة أخرى مكتفيا بصحة أبيات محدودة لبعض الشعراء الذين اهتم الدكتور بدراستهم في الكتاب ، ولكن كتاب حديث الاربعاء لم يخلص الى الشك في الشعر الجاهلي جميعه ، ولا الى الشك في أكثر ما قاله شعراء الجاهلية ولكنه اختص بالشك عدة أبيات من بعض ماعرض من القصائد والشك في بعض الابيات ليس مذهب الدكتور وحده ، وليس مذهب من وافقه من باحثي الاستشراق ، ولكنه مذهب الادباء جميعا ، حمل رايته ابن سلام في القديم ، وتابعه جميع من نقلوا عنه ، أو تواردت خواطرهم على مثل ماتوارد عليه خاطره من أمثال الجاحظ وابن قتيبه وأبي الفرج المرزباني حتى جاء القرن العشرون فجاهر الرافعي رحمه الله بالشك في بعض مايروى ، وسجل ذلك كله في صفحات متعددة من الجزء الاول من تاريخ الادب الذي اهتدى فيه الى خير كثير فاذا كان الدكتور في حديث الاربعاء قد اكتفى بالشك في بعض الابيات وبعض ماحيك حولها من القصص وخص الكثير بالثناء والجودة فذلك تراجع صريح .

يبدأ الدكتور كتابه بالحديث عن لبيد فخصه بثلاثة فصول ضافية شملت مابين الصفحة التاسعة والصفحة الاربعين من صفحات الكتاب ، أي أن لبيدا وهو أقل من غيره كثيرا فيما نسب اليه من الشعر قد حظي بنحو ثلاثين صفحة تحليلية كتبها الدكتور مثنيا منوها ، ومعلقة لبيد خشنة صعبة بل هي أخشن معلقة تروى لشعراء المعلقات ، وقد فسح لها الدكتور صدره فخصها بتحليل واسع ، وغمرها بثناء مستطاب وقال

في مقدمة حديثه عنها مخاطبا صديقا تخيل أنه يناقشه في بعض مسائل الادب القديم (أظنك توافقني على أن مثل هذا الشعر الذي يعرض مثل هذه الصور ويثير مثل هذا الخيال ويحيي في النفس مثل هذه العواطف ، لاينبغي أن يهمل ، ولا أن يصرف عنه الشباب صرفا ، ولست أزعم أني أريد أن يفرغ له الشباب ، ويتخصصوا فيه ـ كما يقولون ـ ولكني أريد أن يعرفه الشباب ، وأن يحسنوا العلم بأغراضه ومعانيه وأنا واثق «بأنه لن يكون أقل الهاما لهم واحياء لنفوسهم من الادب الحديث) (١)

وقد فاجأنا الدكتور في حديثه عن لبيد بشيء غير منتظر منه ، فقد دافع عن الوحدة في القصيدة الجاهلية ، دافع عنها دفاعا حارا ، مع أن كثيرا من أنصار هذا الشعر لايرون هذه الوحدة متحققة فيه ، ونحن نعرف أن حديث الوحدة العضوية في القصيدة العربية كان مثار نقد قوي في هذا العصر ، حين أخذ الناقد الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد على أحمد شوقي تجاهله وحدة القصيدة في بعض ماأخذ على الشاعر الكبير ، ثم امتد النقاش فلم يقف عند شوقي ، بل شمل الشعر العربي جميعه ووجد من يعترفون بذلك من أنصار هذا الشعر ، اذ رأوا من واقع بعض القصائد مايثبت ذلك من ناحية كما قرءوا من نصوص النقاد القدماء مايؤكد أن البيت وحدة القصيدة ، فهو عنصر مستقل عن غيره ، وقد روعي فيه أن يكون موضع استشهاد لما يحمل من الحكمة البالغة ، أو لما يدل على التجربة الصادقة ، هذا ماقاله كثير من أنصار الشعر القديم ومؤيدوه ، وكان من المنتظر أن يكون الدكتور طه حسين مع هؤلاء ان لم يزد عليهم تلمسا لمهاوي هذا الشعر ، ولكن الدكتور طه قد اقتحم العباب من موضع لم يكن متوقعا منه فدافع عن الوحدة في الشعر الجاهلي دفاعا أخاذا بارعا ، وقد فصل المسألة تفصيلا واضحا حين قال على لسان صديقه المتخيل :

---

(١) حديث الاربعاء جـ ١ ص ٢٧ ط ٨

(على أن هناك شيئا آخر أراك تتعمد اهماله والاعراض عنه ، لأنك تشفق فيما أظن من التعرض له ، والوقوف عنده ، وهو استقامة بنـاء القصيدة ، فأنت تعلم مايقوله الناس من أن أقبح عيب يمكن أن تؤخذ به القصيدة العربية في الشعر القديم خاصة ، هو أنها ليست وحدة ملتئمة الاجزاء وانما تأتيها الوحدة من القافية والوزن ، فلولا أن لبيدا هذا قد اختار البحر الذي اختاره والقافية التي اختارها ، لما تشابهت أجزاء قصيدته ، ولما اتصل بعضها ببعض ، ولكانت أبياتا منثورة ، لاقران لها ، فحدثنا عن هذه الوحدة ماصنع الله بها في شعر القدماء ، وحدثنا كيف يستقيم للعقل الحديث أن يسمى قصيدة هذا الكلام المتفرق الذي لايجمعه الا نظام ظاهر من الوزن والقافية ؟ وكيف يستقيم للعقل الحديث أن يعرض هذا الكلام المتفرق على الشباب ، ليتخذوه نموذجا ومثلا ، وليستوحوه ويستلهموه ، ألست تشفق على ملكات الشباب أن تفسدها هذه النماذج والمثل ، وأن تعوقها عن أن تبلغ ماتريد لها من فهم القصيدة وانشائها ، على أن لها وحدة داخلية جوهرية تتصل بالمعنى قبل أن تتصل باللفظ وبالوزن والقافية) (١)

هذا ماقاله الدكتور على لسان صديقه ، وهو يصور اعتراض المعترضين على نسق الشعر العربي القديم في قوة لم تدع مجالا للبس والاشتباه ، ولو أراد أحد أن يكتب عن اعتراض هؤلاء ماجاء بخير مما قال الدكتور طه حسين على لسان صديقه ، فلننظر بعد لك الى مادفع به الدكتور هذا الاعتراض الذائع التردد حين أعقبه بقوله (٢)

(ماسمعت من خصوم الشعر القديم حديثهم عن وحدة القصيدة عند المحدثين ، وتفككها عند القدماء الاضحكت وأغرقت في الضحك ، والعجيب

---

(١) حديث الاربعاء ج ١ ص ٣٠

أن تنشأ الاساطير في العهد الحديث مع أن عهد الاساطير قد انتهى وتفكك القصيدة العربية ، واقتصار وحدتها على الوزن والمعنى دون القافية أسطورة ياسيدي من هذه الاساطير التي أنشأها الافتنان بالادب الاوربي الحديث ، والقصور عن تذوق الادب العربي القديم والذين ينكرون الوحدة المعنوية للقصيدة العربية القديمة انما يدفعهم لهذا الانكار سببان أولهم أنهم لايدرسون الشعر القديم كما ينبغي ، ولا يتعمقون أسراره ومعانيه ، ويصدقون فيه مايقال لهم من الكلام ،وهم يحفظون منه البيت والابيات ، وقل منهم من يحفظ القصيدة كاملة ويدرسها كاملة ، أما علماؤهم فيكتفون بالاغاني من الكتب ولايلتفتون الى الدواوين ، وأما عامتهم من أوساط المثقفين فيكتفون بكتب التاريخ الادبي وما يشبهه من المذكرات التي تذاع في المدارس بين الطلاب وكل هذه الكتب لاتتكلف ولاتستطيع أن تروى قصائد الشعراء كاملة فخاصة المثقفين وعامتهم يعرفون الشعر العربي متفرقا لانهم يحفظونه متفرقا ، وهم من هذه الناحية يجهلون الشعر ويقضون عليه حين يقضون قضاء الجهال ·

والسبب الآخر الذي يدفع المثقفين المحدثين الى انكار هذه الوحدة المعنوية في القصيدة يأتي من أنهم يقبلون مايقوله الرواة وما ينقلونه اليهم في غير تحفظ ولا احتياط ولا تحقيق ، وينسون أن كثيرا من الشعر القديم لم ينقل الى الاجيال مكتوبا وانما نقلته الذاكرة فأضاعت منه ، وخلطت فيه ولم تحسن الرواية ، فكثر الاضطراب في الشعر فخيل الى المحدثين أن هذا الاضطراب طبيعي في الشعر العربي القديم ، ولم يفطنوا لعلة طارئة ، ومرض عارض لم يصب الشعر العربي وحده وانما أصاب كل قديم نقل الى المحدثين عن طريق الرواية لا عن طريق التدوين)

ثم انتقل الدكتور الى التمثيل بمعلقة لبيد التي جاء هذا الحديث بصددها فتساءل كيف يأتيها الاضطراب والاختلاف ؟ وقال : انكم تقولون ياسيدي ان القصيدة العربية مضطربة التكوين بحيث نستطيع أن نقدم

منها ونؤخر ، ونضع أبياتها فيما نحب لها من المواضع ، دون أن يصيبها من ذلك فساد واعتلال فأمامك قصيدة لبيد هذه ، فأرني كيف تقدم فيها وتؤخر ، وكيف تضع فيها بيتا مكان بيت دون أن تفسد معناها افسادا ، وتشوه جمالها تشويها ، فسترى أنها بناء متقن محكم ، لاتغير منه شيئا الا أفسدت البناء كله ونقضته نقضا ، ثم مضى الدكتور يحلل القصيدة على وجه يطول تلخيصه للقارىء فليرجع الى مصدره هناك ٠

هذا الدفاع القوي عن وحدة القصيدة الجاهلية كان مستغربا غير متوقع من الدكتور ، وكان في مقدوره ـ وهو الناقد المتمكن ـ أن ينقضه ببعض مايرى من وجوه النقض ، لأن الذين يأخذون على الادب القديم خلوه من الوحدة لاينكرون توالي معانيه معنى وراء معنى في أغراض مختلفة ولكنهم ينكرون تعدد الاغراض في القصيدة الواحدة بحيث تنتقل من الغزل الى الوصف الى الحكمة الى المدح وهو مالايستطيع أن ينكره الدكتور فالشاعر القديم حين يتكلم في غرض واحد فانه يتماسك ويتسلسل ولايستطيع أحد أن يمس الابيات حينئذ بتقديم وتأخير حتى يفسد بناء القصيدة افسادا ، فالجهة منفكة كما يقول المنطقيون ، على أن العقاد ونظراءه من دعاة التماسك الهندسي في القصيدة انما يقصدون وحدة عضوية لها ماللكائن الحي من ترتيب دقيق في البناء المتناسق ، والوحدة العضوية شيء ووحدة الموضوع شيء آخر ، فقد يكون الموضوع واحدا ولكن عناصره لاتلتئم ، ولاتتماسك بحيث تستطيع أن تقدم وتؤخر في الابيات ، ومع هذا تسير القصيدة مكتفية بالجو العام الناشىء من تناسق الوزن واتحاد القافية ، وفي هذا متسع للقول أي متسع ولكننا نتعرض له بايجاز لنشير الى أن دفاع الدكتور طه حسين هنا عن الشعر الجاهلي قد بلغ من الحرارة والقوة والتحدي مبلغا يلفت الانظار ، ويدعو الى التأمل ٠

وقد يقول قائل انه يدافع عن الشعر من حيث انه عربي عام لامن

حيث انه شعر جاهلى يشك في قائله ، ولكن اعتداد الدكتور بالاسماء الجاهلية من أمثال لبيد وطرفة وزهير والمثقب العبدي وسويد بن أبي كاهل الشكري مع ذكره لخصائص كل شاعر في منحاه الاسلوبي مما يرد على هذا القول ، ويؤيد الطابع العام لهذه البحوث الجاهلية التي ابتدأ بها حديث الاربعاء لان الفرق بينه وبين طابع كتابه الاول عن الشعر الجاهلى واضح ملموس ·

وقد قدم الدكتور لبعض قصائد لبيد في الرثاء بقوله (١) :

(ان للبيد فنا آخر من فنون الشعر جوده كل التجويد ، وبرع فيه كل البراعة ، وأعجب به القدماء كل الاعجاب ، وهو فن الرثاء ، ولست أدري كيف يمكن أن تقدم عليه الخنساء في رثائها ، وهو عندي أبرع منها في تصوير الحزن ، وصب اليأس في القلوب صبا في غير ضعف ولا وهن ·· وبعد أن تحدث عن مناسبة هذا الرثاء استشهد بقول الشاعر :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع ... وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
فلا جزع ان فرق الدهر بيننا ... فكل امرىء يوما له الدهر فاجع
وما المرء الا كالشهاب وضوئه ... يحور رمادا بعد اذ هو ساطع
وما المرء الامضمرات من التقى ... وما المال الا عاريات ودائع
أليس ورائي ان تراخت منيتي ... لزوم العصاتحنى عليهاالاصابع
أخبر أخبار القرون التي مضت ... أدب كأني كلما قمت راكع
فأصبحت مثل السيف أخلق جفنه ... تقادم عهد القين والنصل قاطع
فلا تبعدن ان المنية موعد ... علينا فدان للطلوع وطالع
أعاذل مايدريك الا تظنيا ... اذا رحل الفتيان من هو راجع
أتجزع مماأحدث الدهر بالفتى ... وأي كريم لم تصبه القوارع
لعمرك ماتدري الضوارب بالحصا ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع

---

(١) حديث الاربعاء جـ ١ ص ٥١

وقال الدكتور عقب هذه الابيات (١)

(أتعرف أجمل من هذا الشعر معنى ، وأرصن منه لفظا ، وأروع منه أسلوبا ، وأدنى منه الى الصدق ، وأنطق منه بالحق ، وأعظم منه حظا من هذه السذاجة الحلوة التي لاتتناول معانيها الراقية من بعيد ، وانما تتناولها من قريب ، فالشاعر لايجهد نفسه ولا يجهد له ، وانما ينظر ، ويحملك على أن تنظر معه الى النجوم التي تطلع وتغيب ، والى الجبال المستقرة على الارض ثم الى الانسان ، واذا هو يرى ــ وأنت ترى معه ــ أن النجوم على اختلافها طلوعا وغروبا باقية تذهب الاجيال والاجيال ، وهي تشرق في السماء وتغرب ، لتشرق مرة أخرى وتغرب ، واذا الجبال كذلك ثابتة مستقرة ، تذهب الاجيال والاجيال وهي في مكانها لاتريم ، واذا الانسان شيء يسير ، لايستطيع أن يشرق ويغرب كما تشرق النجوم وتغرب ، ولايستطيع أن يثبت ويستقر ، كما تثبت الجبال وتستقر ، وانما هو كالشهاب ، يشرق ساطعا فيبهر الابصار ، ثم لايلبث أن يستحيل رمادا تذروه الريح ، واذن فما أشد غرور الانسان ، وحبه للباطل ، وثقته بما لاينبغي أن يثق به ، واطمئنانه الى ما لاينبغي أن يطمئن اليه ، وتعلله بالسخف من أحاديث العائفين والقائفين والمستشيرين للحصى ، والمتحدثين عن الغيب ، وانما أمر هذا كله باطل ، وأمر الغيب الى من استأثر بعلم الغيب :

لعمرك ماتدري الضوارب بالحصى　　ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقد أطلت بعض الشيء في الاقتباس من كلام الدكتور طه لأن تحليله لأبيات لبيد هذه رائع رائع ، ويصح أن يكون نموذجا يحتذيه المحللون ، وكذلك ماجاء في مقدمة حديثه عن معلقة زهير بن أبي سلمى :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم　　بحومانة الدراج فالمتثلم

---

(١) حديث الاربعاء ج ١ ص ٥٢

فقد بلغ في التمهيد لها والتحليل لمعانيها مبلغا رائعا (١) ، ولولا أن المقام يضيق عن أن أنقل خواطر رائعة تملأ الصفحات لفعلت ، وزهير من كبار شعراء العصر الجاهلي بحيث لايقاس به لبيد ، وقد وفاه الباحث حقه في ثلاثة فصول ضافيات ، فألم بكثير من روائعه ، ووقف وقفات بصيرة عند الرائع من وصفه ، والبارع من حكمه ، فاذا تعرض الى مدائحه استشهد لها بمثل قوله :

وأبيض فياض يداه غمامة	على معتفيه ماتغب فواضله
بكرت عليه غدوة فرأيته	قعودا لديه بالصريم عواذله
يفدّينه طورا وطورا يلمنه	وأعيا فما يدرين أين مخاتله
فاقصرن منه عن كريم مرزأ	عزوم على الامر الذي هو فاعله
أخي ثقة لاتتلف الخمر ماله	ولكنه قد يهلك المال نائله
تراه اذا ماجئته متهللا	كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وهي أبيات رائعة تحدث عنها الاقدمون والمحدثون جميعا بلهجة الاعجاب والاطراء ، ولكن الدكتور طه حسين أربى عليهم بتحليله الرائع الذي تجلى في مثل قوله (٢)

(أجمل شيء في مثل هذا الشعر أنه واضح سهل ، لايجهد سمعك ان سمعته ، ولا يجهد عقلك ان وعيته ، وانما هو نقي ناصع كصفحة الشمس ، وخصال الممدوح فيه هي هذه الخصال التي يحبها الناس ، ويألفها العرب ، والظريف أنه قد اصطنع القصص اليسير وسيلة الى اظهار هذه الخصال ، فهو قد غدا على صاحبه حصن (الممدوح) فألفاه وقد أحاط به عواذله يلمنه ، ويلححن عليه في اللوم ، لكثرة ماينفق من

---

(١) حديث الاربعاء ص ٨٢ جـ ١

(٢) حديث الاربعاء ص ١١١ جـ ١

المال ، وهن مع ذلك يحببنه ويؤثرنه ، ويرفقن به ، ويفدينه بأنفسهن ، يأخذنه بالعنف حينا ، وبالرفق حينا آخر ، ولكنه يعييهن ويعجزهن ، فلا يبلغن منه شيئا ، ولا يعرفن كيف ينتهين الى نفسه ، ليصرفنه عن هذا الاسراف ، فاذا بلغ منهن العجز ، أقصرن عنه ، وتركنه وما هو فيه من اهلاك للمال ، لا في لهو ولا في عبث ، ولكن في اغاثة الملهوف ، واعانة المحروب ، ثم يمضى الشاعر في مدحه ، فيصل الى هذا البيت البديع الذي لاأعرف أبدع منه في سذاجته ويسره ، وارتفاعه عن التكلف ، وتصويره لطبيعة الانسان السهلة السمحة ، التي لم تعقدها الفلسفة ، ولم يلح عليها الترف ، ولم تخرجها الحضارة عن طورها ٠

تراه اذا ماجئته متهـــللا　　　كأنك تعطيه الذي أنت سائله

الى آخر ماقال عن زهير :

واذا كان كل من لبيد وزهير شاعرين شهيرين من أصحاب المعلقات فان ماعرف عنهما لدى القراء كثير وفير ، ولم يشأ الدكتور أن يقصر حديثه على أصحاب المعلقات فحسب ، ولكنه انتقل الى شاعرين آخرين آثرهما باعجابه من غير المشهورين بالقياس الى زهير ولبيد ، وهما سويد ابن أبي كاهل اليشكري والمثقب العبدي ، ولهما عندالناقد مكانة أفصح عنها حين قال عن سويد بن أبي كاهل (١)

وأظنك توافقني على أن هذه المطولة البـديعة (يريد قصيـــدته التي مطلعهـــا) :

بسطت رابعـــة الحبل لنا　　　فوصلنا الحبل منها ماتسع

هذه المطولة البديعة من أروع الشعر العربي وأرقاه ، ومن أعذبه

---

(١) حديث الاربعاء ج ١ ص ١٥٥

وأحسنه موقعا في السمع ، ومسلكا للنفس ، واذا كان شعر صاحبها قد ضاع ، فانها تكاد تغني عما ضاع من شعره لأنها تصور مذهبه في الشعر وحظه من اجادته تصويرا قويا واضحا ، لأنها جمعت ألوانا من فنون الشعر التي كان يطرقها القدماء ، وأكبر الظن أنها جمعت فنون الشعر التي كان يطرقها سويد نفسه ، ففي القصيدة غزل طويل مكرر ، وفي القصيدة وصف ، وفيها فخر بقومه ، وفيها فخر بنفسه ، وفيها بعد ذلك هجاء لخصومه ومنافسيه ، وما أظنه طرق فنا آخر غير هذه الفنون ، الا أن يكون المدح الذي يغني عنه الفخر أحسن الغناء ، وشاعرنا كما ترى قوي الحس جدا دقيق الشعور جدا ، وهو كذلك مالك لأمر الشعر ، يصرفه كما يجب ، لايجد في تصريفه مشقة ولا جهدا .. وكان يحسن بناء قصيدته فلا يضطرب فيها ، ولا يختلط عليه الامر ، وانما يتصور الاغراض التي يريد أن يقول فيها الشعر ، ثم يلائم بينها ملاءمة حسنة ثم يتمثل قصيدته كما يتمثل المهندس صور البناء الذي يريد أن يقيمه ثم يندفع في انشاد هذه القصيدة فلا يكف حتى يتم مايريد أن يقول) :

ومن الابيات التي حازت ارتياح الدكتور قول الشاعر :

فأبيت الليل ماأرقده	**وبعيني اذا النجم طلع**
واذا ماقلت ليل قد مضى	**عطف الاول منه فرجع**
يسحب الليل نجوما ظلعا	**فتواليها بطيئات التبع**
ويزجيها على ابطائها	**مغرب اللون اذا اللون انقشع**

اذ تساءل عنها بقوله (١)

(ماترى في هذه الصورة التي يعرضها الشاعر عليك ، فيزعم لك أن الليل قد طال وطال ، حتى كأن كل قطعة منه اذا مضت في طريقها

---

(١) حديث الاربعاء ج ١ ص ١٦٠

أمدا عادت الى حيث كانت ، واستأنفت طريقها مرة أخرى ؟ وماترى في هذه الصورة الثانية التي يعرضها عليك ، فيزعم لك أن الليل يقود النجوم ، وأن هذه النجوم تمشى متثاقلة مبطئة ، كأنما أدركها الظلع الذي يدرك الابل فيعوقها عن المشى السريع المستقيم وهي مبطئة ، وتواليها مبطئة أيضا ، ومن ورائها الصبح يحدوها دون أن يستطيع أن يدفعها أمامه دفعا سريعا ، كما أن الليل يقودها دون أن يحملها على أن تسرع من ورائه فهي بليدة على قائدها ، وهي بليدة على سائقها ، أما أنا فأرى في هذا شعرا جميلا رائعا ، وأنا أعلم أن الشعراء قد أكثروا في هذا المعنى ، ولكني أجد سذاجة الشاعر في تصويره وهدوئه ، وبعده عن التكلف في عرضه ، وأحب هذه الحياة التي يبعثها الشاعر في الليل والصبح ، بل أحبّ هذا التشخيص الذي يحمل الشاعر على أن يجعل الليل قائدا ، والصبح سائقا ، والنجوم ابلا تقاد وتساق)

ولا أحب أن أترك هذه القصيدة حتى أتمثل بقول سويد فيها :

رب من أنضجت غيظا قلبه ... قد تمنى لي موتا لم يطع
ويراني كالشجا في حلقه ... عسرا مخرجه ماينتزع
مزبد يخطر مالم يرني ... فاذا أسمعته صوتي انقمع
بئسما يجمع أن يغتابني ... مطعم وخم وداء يدّرع
ويحييني اذا لاقيته ... واذا يخلو له لحمي رتع

وقد استشهد بها الدكتور معجبا ، وكنت أود لو وقف عندها وقفة تحليلية رائعة كتلك التي وقفها عند قول زهير (وأبيض فياض يداه غمامة) وقول لبيد (بلينا وما تبلى النجوم الطوالع) لأن لوحتها التصويرية الرائعة تحتاج الى شارح موهوب .

أما حديث الناقد عن المثقب العبدي فقد جاء في تحليله لقصيدته التي مطلعها :

أفاطم قبل بينك متعيني ... ومنعك ما سألت كأن تبيني
فلا تعدى مواعد كاذبات ... تمر بها رياح الصيف دوني
فاني لو تخالفني شمالي ... خلافك ماوصلت بها يميني
اذن لقطعتها ولقلت بيني ... كذلك اجتوى من يجتويني

وقد سار معها الناقد سيرا طبيعيا في تحليله ، وأحسن ماوفق فيه ماجاء تعليقا على قول المثقب في الحديث عن ناقته :

اذا ماقمت أرحلها بليل ... تأوه آهة الرجل الحزين
نقول اذا درأت لها وضيني ... أهذا دينه أبدا وديني
أكل الدهر حل وارتحال ... أما يبقى علي ولا يقيني

فقد قال الدكتور في ذلك (١)

(أترى اليه وقد نهض آخر الليل ليرحل ناقته ، ويهيئها للسفر ، فلما رأته عرفت ما يريد بها ، فضاقت به ، وشكت منه ، وتأوهت آهة الرجل الحزين المذعن ، الذي لايجد مردا للقضاء النازل ، ولا منصرفا عن المكروه الملم ، ثم أترى اليه وقد دنا من ناقته يمد لها الحزام ، وهي تتمثل ماينتظرها من جهد ، لأنها ملت أمثال هذا الجهد ، وهي تصور في حركاتها ولحظاتها وزفراتها حزنها وشكايتها ، والشاعر يعرب لنا عن هذا الحزن أحسن الاعراب أليست الناقة تشكو ، وكأنها تقول أهذا دأبه أبدا ودأبي ، أما ينقضى يوم الا ونحن في حل ورحيل ، أما في نفس هذا الرجل شيء من اشفاق يعطفه عليّ ، ويحمله على أن يرحمني ويجنبني بعض ماأجد من هذا العناء ، ماتقول في رفق هذا الشاعر بناقته ، وفهمه اياها واعرابه عما يضطرب في نفسه المحزونة ، أما أنا فأرى أنه من

(١) حديث الاربعاء ج ١ ص ١٦٩

أروع ما قال الناس ، لا في اللغة العربية وحدها بل في غيرها من اللغـات أيضـــا)

ثم استشهد بقول الشاعر :

ومـــا أدري اذا يممت أمـرا	أريد الخـــير أيهما يلينـــي
أألخـير الـــذي أنا ابتغيـــه	أم الشر الـذي هو يبتغينـــي

ليقول معلقا (١) :

(وانظر الى هذا البيت الاخير خاصة ، كيف صور فيه الشاعر أجمل تصوير مكر الاقدار بالناس ، فهم يبتغون الخير ، حين يقصدون الى أمر من الامور ، ولكن الشر كامن لهم ، يرصدهم حينا ، ويسعى اليهم حينا آخر ، وهم لايدرون ، أينتهون الى مايريدون من خير ، أم يقعون فيما يريدهم من شـر .

قال صاحبي : صدق أبو عمرو بن العلاء : لو كان الشعر كله كهذه القصيدة لوجب على الناس جميعا أن يتعلموه ، ولو كان شعر القدمـاء كله كهذه القصيدة ماعدلت به شيئا آخر)

هذه نبذ مختارة مما قاله الدكتور في اطراء الشعرالجاهلى وتمجيده وفي تحليله البصير الصادر عن ذوق وفهم واطلاع ، ولكننا بعد ذلك كله نسأل صاحب الشعر الجاهلي هذا السؤال الدقيق :

كيف يقول هذه الروائع البارعة أناس خاملون لينحلوها أناســا تشتهر أسماؤهم وتدوي الرواة بأشعارهم ، ويهتف التـــاريخ الادبي باطرائهم عبر العصور الممتدة في رحاب الزمن ، وهل في منطق العقــل

---

(١) حديث الاربعاء ج ١ ص ١٧٠

أن يرضى الناس بسهولة أن يتنازلوا عن هذا الجيد الممتاز لأناس لم يروهم ولم تجمعهم بهم أدنى آصرة ! اذا كان الدكتور قد رأى في حديث الاربعاء أن هذه الروائع تجمع الصدق والصراحة والبساطة الى ما فيها من رائع الخيال ودقيق التصوير ، فانه بذلك لايستطيع أن يقرر بسهولة أن أصحاب هذه الوثبات قد كرهوها كراهة ساخطة فنزعوها عن أنفسهم ، وألحقوها بقرون سابقة ليصبحوا بعدها مجهولين مضيعين .

مصـــــادر البحث

١ ــ الاغاني لأبي الفرج الاصبهاني ط دار الكتب المصرية

٢ ــ تاريخ آداب العرب جـ ١ للاستاذ مصطفى صادق الرافعي ط ٣ ــ المكتبة التجارية

٣ ــ تاريخ الادب العربي حـ ١ للاستاذ بلاشــير ترجمة ابراهيـــم كيلاني ط ١

٤ ــ تحت راية القرآن للاستاذ مصطفى صادق الرافعي ط أولى

٥ ــ حديث الاربعاء للدكتور طه حسين ٣ أجزاء ط دار المعــــارف سنة ١٩٥٧ م

٦ ــ الحيوان للجاحظ جـ ١ طبعة دار الغد بسوريا

٧ ــ ديوان الحطيئة ــ مطبعة التقدم ط أولى

٨ ــ السيرة النبوية لابن هشام ٣ أجزاء تحقيق السقا وزميليه ط أولى

٩ ــ سيد قريش للاستاذ معروف الارناؤوط ط أولى

١٠ ــ الشهاب الراصد ، للاستاذ محمد لطفي جمعة ط أولى

١١ ــ شعراء النصرانية للاب لويس شيخو اليسوعي ط أولى

١٢ ــ طبقات فحول الشعراء لابن سلام تحقيق الاستاذ محمود محمـد شاكر جزءان ط ثانية

١٣ ــ العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ط ٤ دار المعارف

١٤ ــ العقد الفريد لابن عبد ربه تحقيق الاستاذ محمد سعيد العريان ط أولى

١٥ ـ في الادب الجاهلى للدكتور طه حسين ط ١٠ دار المعارف
١٦ ـ فيض الخاطر جـ ٧ للدكتور أحمد أمين ط أولى سنة ١٩٤٧
١٧ ـ مجلة الرسالة ـ السنة الثانية سنة ١٩٣٤ مقال الاستاذ أحمد الزيات عن طاهر نور
١٨ ـ مجلة الشبان المسلمين عدد ذي القعدة سنة ١٣٥٠ (تقرير النائب العام)
١٩ ـ محاضرات في بيان الاخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب الشعر الجاهلى للاستاذ محمد الخضري بك ط أولى
٢٠ ـ مصادر الشعر الجاهلى للدكتور ناصر الدين الاسد ط ٣ دار المعارف
٢١ ـ المفضليات تحقيق المستشرق شارلس جيمس ليال جزءان ط أولى
٢٢ ـ مجلد (مجلة الزهراء) سنة ١٣٤٦ هـ المجلد الرابع ـ المطبعة السلفية
٢٣ ـ مقدمة لدراسة بلاغة العرب للدكتور أحمد ضيف ط أولى سنة ١٩٢١
٢٤ ـ النقد التحليلى للاستاذ محمد أحمد الغمراوي ط أولى المطبعة السلفية
٢٥ ـ نقد كتاب الشعر الجاهلى للاستاذ محمد فريد وجدي ط أولى مطبعة دائرة المعارف
٢٦ ـ نقض الشعر الجاهلي للاستاذ محمد الخضر حسين ط أولى المطبعة السلفية
٢٧ ـ النهضة الاسلامية في سير أعلامها المعاصرين ـ مخطوط للدكتور محمد رجب البيومي

ـ مناهل العرفان للاستاذ عبد العظيم الزرقاني ط دار احيــــاء التراث العربي بيروت

ـ الادب العربي وتاريخه للاستاذ محمد هاشم عطيه ط ٣ سنـــة ١٩٣٥

ـ دائرة المعارف الاسلامية (المجـــلد الثاني) ترجمة الشبـــاب الجامعيين

الفهـــــرس

المطابع الأهلية للأوفست
الرياض - شارع عمر بن الخطاب
ص ب ٢٩٥٧ - ت ٢٧٥٤٦



المطابع الأهلية للأوفست
الرياض - شارع عمر بن الخطاب
ص.ب ٢٩٥٧ - ت ٢٧٥٤٦